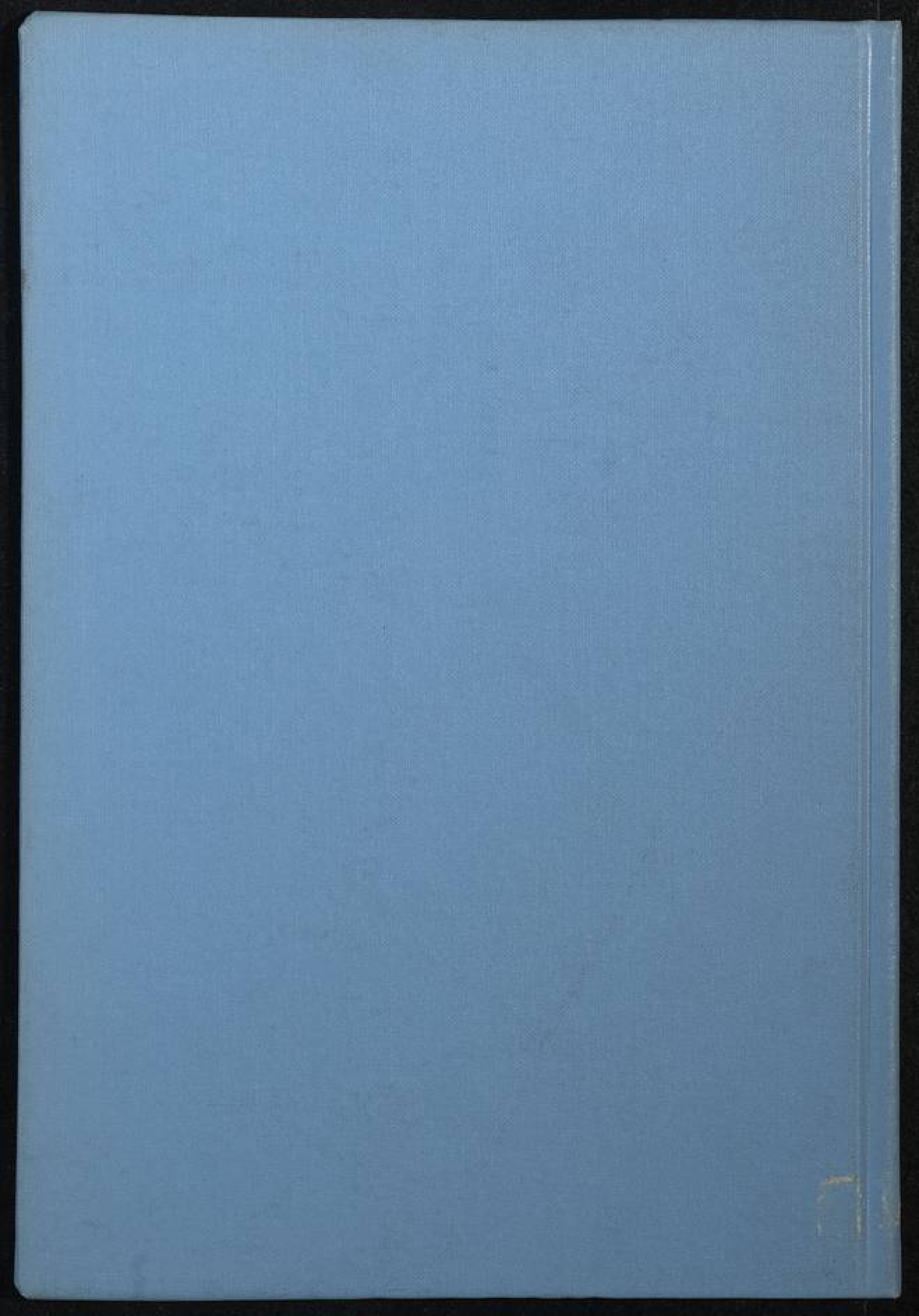
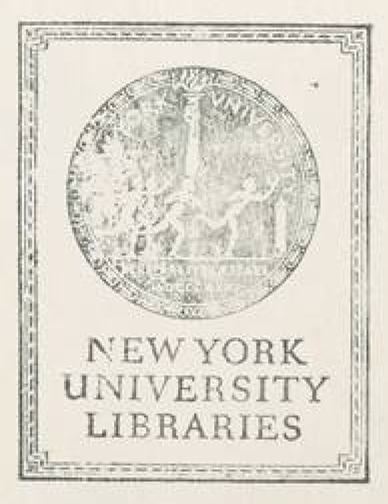
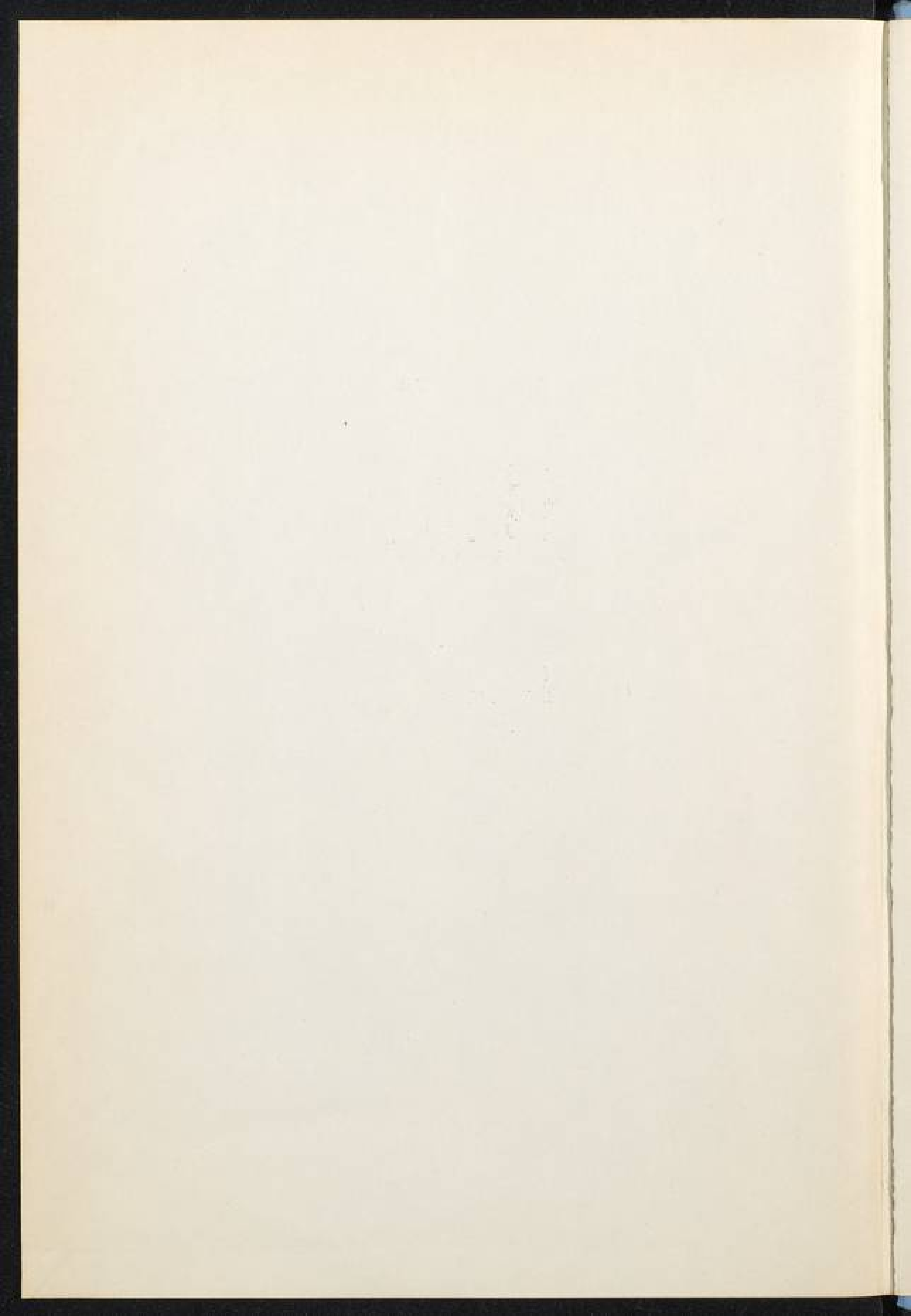
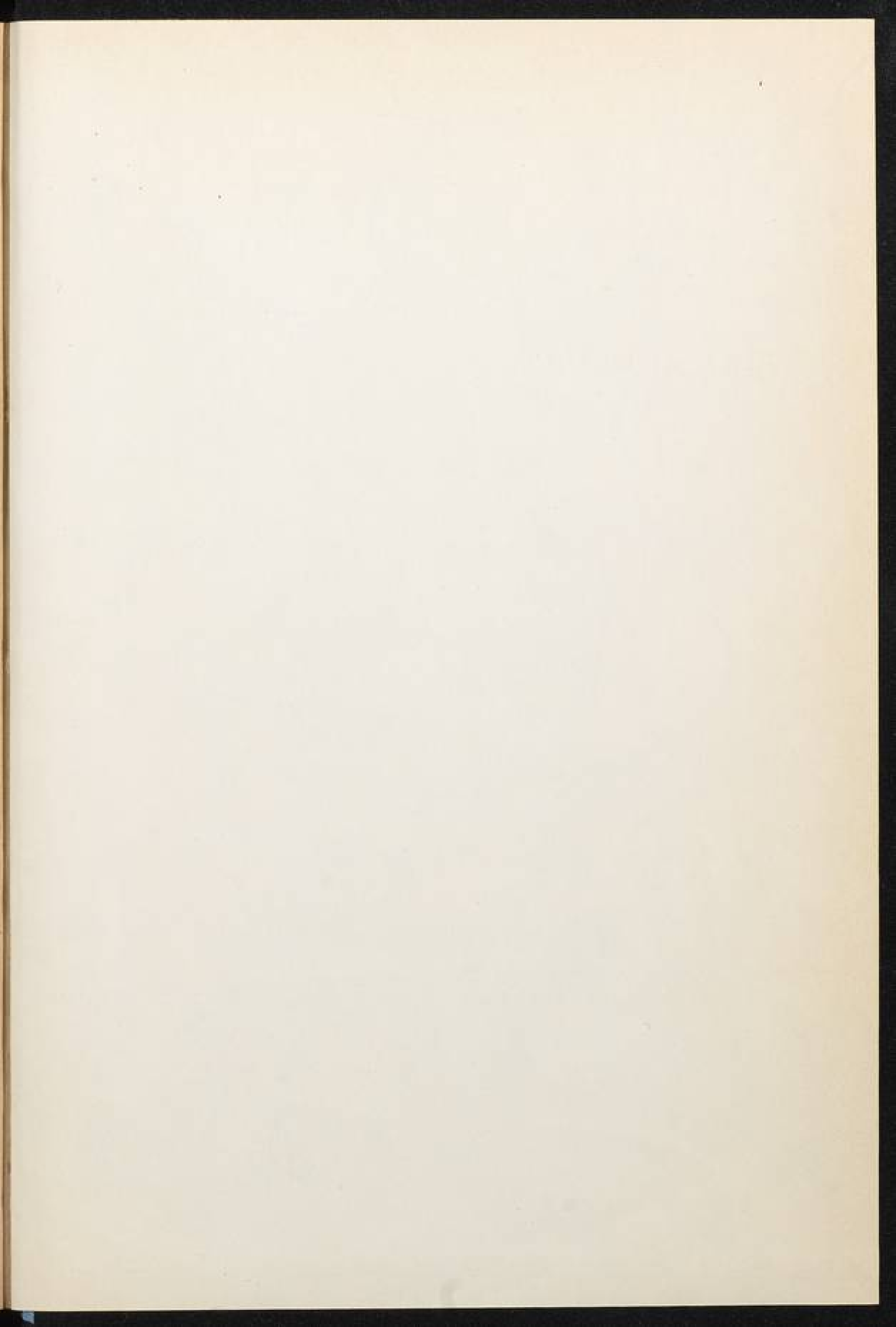





NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES





Rustūm, Abd al-Salam

طيف الوليد
أو
حياة البحتري

/Tayf al-Walid/

دراسة وتحليل

بقلم

عبد السلام رستم

Front



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

أن أبقَ أو أهلَكْ فقد نلتُ التي ملأت صدورَ أقاربى وعِداتى

وغنيتُ ندمان الخلائفِ نابِهاً ذكرى ، وناعمةً بهم نشَواتى

وشُفِعتُ فى الأمرِ الجليل إليهمو بعد الجليل ، فأنجحوا طلباتى

وصَنعْتُ فى العرب الصنائعَ عندهم من رِفْدِ طُلّابٍ ، وفكِّ عناة

البحترى

مقدمة

خلف عصر الرشيد وزمن المأمون من الدولة العباسية ذلك التراث الضخم من ملك واسع عريض ، ونبوغ فى كل فن وعلم . وتفتحت للعقول بعد جهاد الغزو والقتال مغاليق البحث والاستقراء ، فشاعت المناظرة فى المجالس ، وحفلت الاجتماعات بكثير من رجال الفكر والأدب ، وأقبل الناس من كل صوب إلى (دار السلام) يتلقفون العلم والمعرفة على الرواة والوراقين . واتسعت بحوث الفقة والفلسفة والدين بعد نقلها من لغات الفرس والروم والهند إلى أن انقسمت فيها المذاهب وتعددت فى تفضيلها الشيع والأحزاب .

ومات المأمون وولى بعده أخوه المعتصم و الدسائس تحاك على مسائل ثلاث هى :—

المسألة الأولى : الخلافات الدينية ومذهب خلق القرآن .

المسألة الثانية : تفضيل على أو معاوية .

المسألة الثالثة : تنازع العصبية بين العرب والعجم

فالخلافات الدينية فى مذاهب المعتزلة والشيعه والرافضية وغيرها أطاحت برءوس عالية ونفوس عظيمة ولم يكن لها عذر أو شفيع .

وقد أثار المأمون مسألة خلق القرآن ، فكتب فى سنة ثمان عشرة ومائتين إلى إلى عامله ببغداد إسحق بن إبراهيم بن مصعب أن يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن . فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله . ومن أبى يعلمه به ليرى فيه رأيه .

فجمع إسحق علماء بغداد ومنهم قاضى القضاة بشر بن الوليد الكندى ومقاتل وأحمد بن حنبل وقتيبة وعلى بن الجعد وغيرهم . وقرأ عليهم كتاب المأمون ثم قال لبشر بن الوليد :

ما تقول فى القرآن ؟ فقال بشر : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟ قال ، الله خالق كل شىء . قال : والقرآن شىء ؟ قال : نعم . قال : مخلوق هو ؟ فأجابه بشر ، ليس بخالق . فأعاد إسحق سؤاله ، ليس عن هذا أسألك ، أمخلوق هو ؟ فقال بشر : ما أحسن غير ما قلت لك .

فقال إسحق للكاتب : اكتب ما قال : ثم سأل غيره وغيره فيجيبون قريباً مما أجاب به بشر إلا الإمام أحمد بن حنبل فقد كان جوابه : أن القرآن كلام الله ، وما أزيد عليها ، فسأله بشر : ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال أحمد : هو كما وصف نفسه . قال فما معناه ؟ قال لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

ثم سأل بشر باقى الجماعة فأجابوا أن القرآن مجعول لقوله تعالى « إنا جعلناه قرآناً عربياً » والقرآن محدث لقوله تعالى « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث» . فقال إسحق فالمجعول مخلوق قالوا نعم قال فالقرآن مخلوق قالوا لا نقول مخلوق ولكن مجعول .

فكتب مقالتهم ووجهت إلى المأمون . فورد جواب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم أن يحضر قاضى القضاة بشر بن الوليد و إبراهيم بن المهدى فإن قالا بخلق القرآن و إلا تضرب أعناقهما . وأما من سواهما فمن لم يقل بخلق القرآن يوثقه بالحديد و يحمله إليه .

فجمعهم إسحق وعرض عليهم ما أمر به المأمون فقال بشر و إبراهيم وجميع الذين أحضروا لذلك بخلق القرآن إلا أربعة نفر وهم أحمد بن حنبل والقواريرى وسجادة ومحمد بن نوح المضروب فأمر بهم إسحق فشدوا فى الحديد ثم أعاد عليهم السؤال فأجاب الثانى والثالث بخلقه فأطلقهما . وأصر أحمد بن حنبل والرابع على قولهما فوجههما إلى طرسوس ، حيث كان المأمون فى غزو الروم . فلما ساروا بهما إلى الرقة بلغهم موت المأمون فرجعوا إلى بغداد .

وأحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يجب إلى القول بخلقه فجلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيد وحبس .

وجاء الواثق من بعد المعتصم فسار على رأى أبيه حتى خلفه أخوه جعفر المتوكل على الله فأمر بترك هذا الجدل العقيم وأفرج عن الإمام ابن حنبل .

والمسألة الثانية وهى تفضيل علىّ أو معاوية فهى وإن كانت مسألة متوارثة من عهد وفاتهما وقامت عليها حروب عنيفة فى عهد بنى أمية إلا أنها فى عهد العباسيين أخذت تشتد بعد أن عاون العلويون العباسيين على الفوز و بنيان ملكهم . فقام المنصور بعد أخيه السفاح بمطاردتهم وقتالهم وما لبثت الثورة أن هدأت حتى أثيرت من جديد فى عهد المتوكل فأمر بهدم قبر الحسين بن على وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه ومعاقبة من وجد به . ولما استخلف ابنه المنتصر أمن الناس وتقدم بالكف عن آل أبى طالب وترك البحث عن أخبارهم وأن لا يمنع أحد من زيارة (الحيرة) لقبر الحسين ولا قبر غيره من الطالبيين . وأطلق أوقافهم وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم .

وما ولى المستعين بن محمد بن المعتصم حتى قتل فى عهده (بالكوفة) أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى المنتهى نسبه إلى آل طالب . وحمل رأسه إلى بغداد وصلب فضج الناس لما كان له فى نفوسهم من المحبة والإجلال لورعه وزهده . وقد بكاه (ابن الرومى) فى جيميته الخالدة التى مطلعها :

أمامك فانظر ، أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى ، مستقيم وأعوج

والتى منها :

أيحيىَ العلى لهفى لذكراك لهفةً ... يباشر مكواها الفؤاد فينضج

أحين تراءتك العيونُ جلاءها ... وأقذاءها، أضحت مراثيك تُنسج ؟!

بنفسى-و إن فات الفداء بك الردى- ... محاسنك اللائى تمجّ فتنهجُ

لمن تستجدُّ الأرضُ بعدك زينةً ... فتصبحَ فى أثوابها تتبرجُ ؟!

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ ... عليك ، وممدودٌ من الظل سجسج

ولا نبرح القاعُ الذى أنت جارُهُ ... يرفُ عليه الأقحوانُ المفلّجُ

أما تنازع العصبية بين العرب والعجم فقد أشعلها العباسيون نار خلاف ظلت تتأجج فيما بينهم إلى أن قضت عليهم وعلى دولتهم وشيكا بالزوال .

قامت دعوتهم فى بادئ الأمر بالعصبية . وقام أهل العصبية العباسية حامية لها فى الممالك والأقطار . ثم اقتضى الملك الانفراد بالمجد فقارع العصبية وكبح من أعنتها ، واستأثر بالأموال دونها فتهامست بالشقاق والنفار .

وأحس صاحب الدولة بالعداوة الكامنة فعمل على اصطناع أولياء آخرين من غير جلدته ، يستظهر بهم ويتولاهم ويكونون أقرب إليه . فصارت الأمور للعجم من الخراسانيين والبرامكة وبنى سهل بن نوبخت وبنى طاهر وموالى الترك مثل بغا ووصيف وأتامش وابن طولون وأبنائهم .

وجاءت النعرة والتناصر بما اعترى هؤلاء من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع له والتفرد بالرياسة والاستبداد فرأينا تلك المآسى الدامية التى مثلها المنصور فى قتل (أبى مسلم) أمير خراسان ، وأردفها الرشيد بالفتك بالبرامكة فكالها الفرس بقتل الأمين وحزّ رأسه . ولولا عمومة إبراهيم بن المهدى لفتك به المأمون لخروجه بالخلافة العربية المحضة فى بغداد ولكن شفع له فعفا عنه .

وعمد المعتصم إلى الاستعانة بالأتراك فقتلوا أولاده وتألبوا على الخلافة العربية فأضاعوا هيبتها وسلطانها وملكوا زمامها منفردين بها .

زد على هذا ما كان من أثر حياة الدعة والترف والانصراف إلى اللهو والمجون وركون الناس إلى المتعة ونبذ الجهاد ، فقاموا يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ويلبسون حيطان دورهم بالوشى والديباج ويعنون بغرس الأزهار فى جنانهم واستخدام الجوارى والغلمان .

ومن البداهة أن هذا الترف لا يتوفر إلا عند كبار رجال الدولة ولكنه تداول على قياس الفارق ووصل إلى العامة فأخذوا على غرار رؤسائهم يمتعون أنفسهم بضروب الملذات وأكسبتهم المدنية طراوة النعماء وخلاعة المترفين .

أشقيقةَ القَمرين هل من نظرةٍ فتبلَّ قلباً للغليل شقيقا ؟ !
وَسمتكِ أرْديةُ السماء بديمةٍ تُحيي رَجاءً أو تردُّ عشيقا
ولئن تناوَلَ من بشاشتك البلى طَرَفاً ، وأوْحَشَ أنسَك المومُوقا
فلَرُبَّ يومٍ قد غَنِينا ، نجتلى مغناكِ بالرَشأِ الأنيقِ ، أنيقا ! !

البحترى

الفصل الأول

عهـــــد البحترى

البحترى أحد شعراء العربية الذين تزدهر بهم . ويمتاز بسلامة ذوقه وحسن اختياره للفظ الموسيقىّ الجرس والمعنى اللطيف السهل . فجاء شعره فى جملته رقيقاً على السمع متيناً فى التركيب خالياً إلا ماندر من الحشو المبتذل والتعقيد الملتوى .

وليس البحترىّ بمجهول للقارئ العربىّ فقد حفظنا من شعره فى مدة الدراسة مقطوعات مختارة كان القصد منها تقوية الذاكرة وتنمية الذهن . وكانت كلها على وتيرة واحدة مما نظمه فى مدح خلفاء عصره وولاة زمانه .

أما شعر البحترىّ النابض بخوالج النفس فلم يقدم لنا شىء منه . ولذلك غمض علينا البحترىّ ، وأخذه الناس على أنه شاعر مداح يطرق أبواب الخلفاء والأمراء للرفد والاستجداء . ولم نعرف عنه أنه شاعر عامر بالإنسانية يحس ويشعر ويقول ويعبر عما فى طبيعته الآدمية من حب وبغض .

ضحك البحترىّ وبكى . فكان ضحكه وبكاؤه فى وعى الحريص الحذر . فعاش آمناً متحرزاً . لايضحك إلا على قدر ، ولا يبكى إلا على نأمة المكبوت .

وكان للبحترىّ أصدقاء ، لفهم الشمل وأدناهم الود الصافى فجلس بينهم ولها لهوهم ورقص رقصهم ، ومال على أهوائهم . فمدحهم ، وغلا فى مدحهم ذاكراً ما لهم من أياد عليه .

وكان للبحترىّ أعداء لهم صولة وقوة . فعاشرهم ، وهو يعلم ما تنطوى عليه قلوبهم من غلّ ، وبواطنهم من حقد . فجاراهم وسايرهم وفلت منهم وهم يعضون النواجذ ينظرون إليه شذراً وهم غير قادرين على الإحداق به أو النيل منه .

وقبل أن نتقدم برفع الستار عن شخصية الرجل نود أن نقدم للقارئ صورة جلية عن التاريخ الذى عاش فيه وأثر الحوادث فى تكوينه ، والظروف التى أحاطت به فى سنى عمره .

فالزمن الذى سبق وجود البحترىّ والعهد الذى عاش فيه مفعمان بالحوادث والانقلابات . وقد عنينا فى سردها بذكر ماله علاقة بشخصه فى غدوّه ورواحه نابذين الوقائع التى ليس لها ارتباط بموضوعه . فإذا أغفلنا حادثة هامة أو واقعة تاريخية فما أغفلناها عفوا وإنما لعدم تمشيها مع مراحل سيرته الطويلة .

ولد البحترىّ سنة ست ومائتين من الهجرة أى فى خلافة المأمون وعاش بعد أن نيف على الثمانين . فاستغرقت حياته عهود عشرة خلفاء حكموا الدولة العباسية فى عواصف جائحة وثورات طائشة ، ولدتها العداوة والبغضاء وحركتها الخصومة والشحناء . استهلت مشرقة كالفجر الضاحى الجميل وغربت كاسفة كالليل الغائم الكئيب .

وإذا أسقطنا عهد المأمون لعدم اتصال الشاعر به إلا فى زمن طفولته فإن حياة الشاعر الواعية تبتدئ وهو فى سنّ العشرين أو ما يقاربها كما ذكر فى قصيدته التى يمدح بها مالك بن طوق والى الجزيرة حيث يقول :

وإذا التفت إلى سنىّ رأيتها كمجر حبل الخالع المتعصب

عشرون، قصرها الصبا وأطالها ولع العتاب بهائم لم يعتب

وسن العشرين توافق سنة ست وعشرين ومائتين من الهجرة أى قبل وفاة الخليفة المعتصم بعام واحد .

وعلى هذا نقدم قبل الكلام عن الرجل نبذ مختصرة عن الخلفاء وكبار معاصريه من ذاك الوقت أى من عهد المعتصم حتى عهد الخليفة الذى مات فى أيامه البحترىّ وهو المعتضد بالله . والقصد من هذا التاريخ أن يقف القارئ على الحوادث المقرونة بحياة الشاعر وشعره ويلم بما لها من أثر فى آرائه وخطواته .

كذلك يتصفح القارئ في سير الرؤساء والولاة وأصدقائه وأعدائه من العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم ممن عاشوا في عصره وكانت لهم صلة بشخصه أو كانت لهم يد في الحوادث التي وقعت أو عرض ذكرهم في رواية أو في مجلس من مجالس المناظرة والحديث والسحر ، ما ولّدته في نفسه من أفراح وهموم .

فليس يكفي أن يتلو القارئ شعر الشاعر في ديوانه دون دراسة عصره وما سجله العصر في سفر التاريخ .

ولعلنا بذلك قد أبرزنا الرجل في صورة واضحة نستقبله بها على علاتها من محاسن وعيوب .

لم يبقَ من جلّ هذا الناس باقيةٌ   ينالها الفهمُ ، إلاّ هذه الصُّوَرُ ! !

جَهلٌ وبخلٌ ، وحسب المرء واحدة   من تَيْنِ حتى يعفّى خلفه الأثر

إذا محاسنيَ اللائى أدلّ بها   كانت ذنوبى ، فقل لى كيف أعتذر ؟!

أهزّ بالشعر أقواماً ذوى وسَنٍ   فى الجهل ، لو ضربوا بالسيف ما شعروا

علىّ نحت القوافى عن مقاطعها   وما علىّ لهم أن تفهم البقرُ ! !

البحترى

الفصل الثانى

تاريخ الخلفـــاء

خلافة المعتصم

٢١٨ — ٢٢٧ هـ : ٨٣٣ — ٨٤٢ م

المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين ، استخلف وهو ابن ثمان وثلاثين . وقد بويع بالخلافة يوم وفاة أخيه المأمون وكانت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين .

واسمه محمد بن هارون الرشيد ، ويكنى بأبى إسحق وأمه أساحية اسمها مارية بنت شبيب .

نشأ أمياً ضعيف القراءة والكتابة . سأله والده الرشيد يوماً : ما فعل وصيفك فلان ؟!... فأجاب « مات . فاستراح من الكتاب ! ! » فغضب الرشيد وقال له : « أو بلغ منك الكتاب هذا المبلغ ؟ ... والله لا حضرته أبداً » ووجهه إلى البادية فتعلم الفصاحة .

شغب الجند لدى مبايعته ونادوا باسم العباس ابن أخيه المأمون فأرسل إليه المعتصم فأحضره وأخذ منه المبايعة وخرج العباس إلى الجند وذكر لهم أنه بايع عمه فسكتوا واستسلموا .

ذكر عنه أنه كان لين العريكة واسع الأخلاق ، قوى البنية ، تتجلى القوة العضلية فى بدنه . ومن مبالغة الرواية أنه بلغ من قوته أن كان يحمل ألف رطل من الحديد ويمشى بها خطوات ، وإذا اعتمد بأصبعه السبابة والوسطى على ساعد إنسان دقه ... وكان يلوى العمود الحديد حتى يصير طوقاً أو يشد على الدينار بأصبعه فيمحو كتابته .

وحكايته المشهورة فى حملته على الروم حين خرج (توفيل بن ميخائيل) ملك الروم إلى بلاد الإسلام فبلغ (زبطرة) — مولد المعتصم — فقتل من بها من الرجال وسبى النساء ومثل بمن صار فى يده من المسلمين فسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم. فبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهى فى أيدى الروم « وامعتصماه » ، فاستعظم النداء وجمع العساكر وتجهز جهازاً عظيما ، وسار بحملته قاصداً بلاد الروم يخرب وينهب فى طريقه حتى بلغ « عمورية » — مولد توفيل — فحاصرها المعتصم وشدد عليها الحصار . وراسله (توفيل) يطلب الصلح فأمسك المعتصم رسله واستمر على رمى المدينة وقلاعها بالمجانيق حتى دخلها ، وأعمل فيها القتل والذبح وحرق الدور حتى شفى غليله بهذا الانتقام .

وفى ذلك يقول أبو تمام مخاطباً المعتصم :

لبّيت صوتاً (زبطريا) هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرّد العرب

وقال يصف ضرب (عمورية) وفتحها :

رمى بك الله برجيها فهدّمها ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأشب
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدر للسارحين ، وليس الورد من كثب
أمانياً سلبتهم نجح هاجسها ظبي السيوف ، وأطراف القنا السُلب

وكان المعتصم يحب الأتراك ويقبل على شرائهم من أيدى مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق والحلى المذهبة وأبانهم بالزىّ عن سائر جنوده .

وتذمّرت العامة من الأتراك لجريها الخيل فى أسواق بغداد واصطدامها بالصبيان والضعفاء فقتلوا بعضهم مرات عند صدمة لامرأة أو شيخ كبير أو ضرير . فنقلهم المعتصم إلى ضاحية قريبة اختارها واستطاب هواءها فأقام بناءها وشيد القصور وأفرد أهل كل صنعة بسوق ونقل إليها أنواع الغروس والأشجار ، وأطلق عليها اسم سامرّا من (سرّ من رأى) .

وجعل للأتراك فيها قطائع متميزة وجاورهم بالفراغنة والأشروسية وغيرهم من

أهالى خراسان . وأقطع قائده أشناس التركى وأصحابه الموضع المعروف (بكوخ سامرا) .

واعتل علته التى توفى بها فشعر قبل موته بأفاقة فقال هيئوا لى (الزلال) لأركب غداً . فركب وركب معه (زنام) الزامر فمر فى نهر دجلة بإزاء منازله فقال يازنام ازمرلى .

يا منزلا لم تبـلُ أطلالُهُ　　حاشى لأطلالك أن تبلى

لم أبك أطلالك لـكننى　　بكيتُ عيشى فيكَ إذ ولّى

والعيش أولى ما بكاه الفتى　　لا بدّ للمحزون أن يُسلى

قال زنام : فما زلتُ أزمر هذا الصوت حتى دعا برطلية فشرب منها قدحاً وجعلت أزمره وأ كرره وقد تناول منديلا بين يديه فما زال يبكى ويمسح دموعه فيه وينتحب حتى رجع إلى منزله ولم يستتم شرب الرطلية .

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحية أبيض أصهب مشرّبا بحمرة

خلافة الواثق

٢٢٧ — ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ — ٨٤٧ م

هو هارون بن المعتصم وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ، واستخلف وهو ابن إحدى وثلاثين سنة . سار على نهج أبيه ولم يحدث تعديلا فى الدولة . ولم تكن فى أيامه إلا مناوشات طفيفة داخلية لثورة دمشق وفتنة بنى سليم بالمدينة وقد قضى عليهما .

وفى عهده كان الفداء بين المسلمين والروم على يد خاقان خادم الرشيد . وأمر الواثق أن يكون الفداء بامتحان الأسرى المسلمين فمن قال بخلق القرآن فودى به ومن لم يقل ترك بأيدى الروم .

وكان الواثق عالماً فطناً ميالا لمجالس الغناء واللهو كثير الأ كل والشرب . توفى بالاستسقاء وكان يردد فى احتضاره هذين البيتين :

الموت فيه جميع الناس مشترك   لا سوقة منهم تبقى ولا ملك
ما ضرّ أهل قليل فى تفاقرهم   وليس يغنى عن الملاك ما ملكوا

كان أبيض مشرباً بحمرة ربعة جميلا مفتول العود ، قائم العين اليسرى وفيها نكتُ بياض .

خلافة المتوكل[1]

٢٣٢ — ٢٤٧ هـ : ٨٤٧ — ٨٦١ م

المتوكل أخو الواثق لأبيه المعتصم . ولم تكن وشيجة الأخوة محكمة بينهما ، لتباين الميول والأهواء . عاش أنيق الملبس يعنى بهندامه وزينته . ويروى أنه كان يرسل شعره على قفاه ، فبلغ ذلك الواثق فأمر وزيره (ابن الزيات) بجز شعر قفاه وضربه به فى وجهه . فحملها المتوكل فى نفسه وكانت من أسباب فتكه بابن الزيات فى أول خلافته .

غضب الواثق على أخيه المتوكل وأقصاه عنه إلى أن استرضاه القاضى ابن أبى دؤاد فعفا عنه على كره .

ولما مات الواثق اتجهت النية إلى مبايعة ابنه محمد فوجد صغيراً فبويع جعفر المتوكل وسنه إذ ذاك ست وعشرون سنة .

وأمه أم ولد خوارزمية اسمها شجاع .

ويقول المسعودىّ :

كانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل . ولم يكن للمتوكل نظير فى العطاء وبذل الجود . وهو أول خليفة ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل . كما ازدهرت لياليه برجال العلم والأدب للحوار والمناظرة .

---

(١) أطلنا على إيجاز فى الحديث عن المتوكل لأنه أول خليفة اتصل به البحترى اتصالا وثيقاً وكانت مدة حكمه أصفى أيام البحترى .

وولى الخلافة فكان أول عمل له إبطال دعاية خلق القرآن و إطلاق الإمام ابن حنبل من حبسه .

واشتهر بولوعه بهندسة البناء . وهو الذى أحدث البناء المعروف بالحيرى والكمين والرواق . وكان الرواق مجلس الملك .

بنى (الماحوزة) بالقرب من (سر من رأى) وأقطع القواد وأصحابه فيها وأنفق عليها كثيراً . وكانت تجمع شتى الفنون والزخارف وسماها (المتوكلية) نسبة إلى اسمه . وحفر لها نهراً يسق ما حولها . وشيد بها قصراً منيفاً يقول ابن الأثير أنه لم يشاهد مثله فى علوه وسماه (الجعفرىّ) .

وحمله بغضه للعلويين على هدم قبر الحسين وما حوله من الدور والمنازل ومنع الناس من إتيانه وأطلق منادياً يمنع زيارة القبر وحبس من يوجد عنده فى (المطبق) .

وزاد فى بغضه بالسماح لمناصريه بالتهكم على (علىّ) وخلفائه وشيعته . ويذكر المؤرخون أن هذا التشهير كان أكبر داع للنفور الذى دب بين المتوكل وابنه المنتصر فاستحل الابن قتل أبيه بالتآمر مع أعدائه من حاشيته من الأتراك . فقتلوه فى مجلس شرابه هو ووزيره الفتح بن خاقان .

ومما يروى عن طرق تنديده (بعلىّ) أن كان فى مجلس لهوه نديم يدعى (أبا عبادة المخنث) فكان يشد على بطنه مخدة من تحت ثيابه ويكشف رأسه وهو أصلع فيرقص بين يدى المتوكل والمغنون يصيحون (قد أقبل الأصلع البطين) يقصدون بذلك عليًا ، والمتوكل يشرب ويضحك .

فحدث ذلك يوماً فى وجود المنتصر فما كان منه إلا أن أومأ إلى أبى عبادة بالسكوت مهددا ، فسكت خوفاً منه . فسأله المتوكل عن سر سكوته فأخبره بتهديد المنتصر . فأشار له المتوكل باستئناف رقصه . فثار المنتصر وقال لأبيه : يا أمير المؤمنين إن الذى يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمك ، وشيخ أهل بيتك ، وبه فخرك . فكل أنت لحمه إذا شئت . ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله .. فضحك المتوكل وواصل سمره .

وفى عيد الفطر من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين من الهجرة ركب المتوكل

للصلاة وقد ضرب له المصاف نحواً من أربعة أميال وترجل الناس بين يديه فصلى بالناس ورجع إلى قصره فأخذ حفنة من تراب فوضعها على رأسه فقيل له فى ذلك فقال انى رأيت كثرة هذا الجمع ورأيتهم تحت يدى فأحببت أن أتواضع لله عزّ وجلّ.

وفى ليل اليوم الثالث من شوال دعا المتوكل بندمائه ، وكان بجانبه وزيره الفتح بن خاقان والشاعر البحترى وابنه أبو أحمد . وأخذوا فى الشراب والمنادمة حتى إذا ما انتشوا فاجأه موالى الأتراك وفيهم (بغا الشرابى الصغير) الذى أمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم فقال له الفتح ليس هذا وقت انصرافهم وأمير المؤمنين لم يرفع . فلم يعبأ بقوله وأخرجهم ، وإذا بالرجال يسلّون سيوفهم فصاح بهم أبو أحمد ما هذا يا سفل . فرفع المتوكل رأسه فرآهم فالتفت إلى بغا وقال له ما هذا يا بغا فأجابه وجلاً هؤلاء رجال النوبة . فتراجع الرجال ناكصين . فصرخ فيهم بغا ، انكم لمقتولون لا محالة فأولى بكم أن تموتوا كراماً . فرجعوا وإذا بأولهم يبتدر الخليفة بضربته . فترامى عليه الفتح بن خاقان يقيه فبعجوه بالسيوف فتنحى فقتلوه وأجهزوا على المتوكل ثم تسللوا هاربين .

وأصابت أبا أحمد ضربتين ونجا . وهرب البحترى فى رجفة الوجل المذعور .

وفى الصباح أعلن من القصر أن الفتح بن خاقان قتل أمير المؤمنين فقتل به وبويع المنتصر بالخلافة .

وكان المتوكل أسمر اللون نحيفاً واسع العينين خفيف العارضين .

مناحة عرس

وبينما الحاشية تتأهب لرفع الأعلام والمناداة فى الصباح بالخليفة الجديد ، وبينما أبواب الجعفرى ونوافذه توصد ، بعد أن قسمت جواريه ووسائده وفرشه نهباً بين المعتدين ، كانت تسير من خلف القصر على وميض النور الخافت المنبثق من الكوى ، جارية مؤتزرة مطرقة تتعثر فى خطواتها والدموع حائرة فى عينيها .

تلك هى (محبوبة) جارية المتوكل وأعز نساء قصره وأدناهن من قلبه ، وأم ولده المعتز .

كانت مولدة من مولدات البصرة ، شاعرة سريعة الخاطر مطبوعة على الغناء . وكانت لعبد الله بن طاهر وأهداها إلى المتوكل فى جملة أربعمائة جارية . فحظيت عنده حتى كان يجلسها من وراء ستار بالقرب منه إذا جلس للشراب ليحدثها من حين إلى حين . وبلغ من فرط إعجابه بها أن سماها قبيحة خشية عليها من عين الحاسدين .

كان الشاعر على بن الجهم يقرب من أنس المتوكل جداً ، فلا يكتمه شيئاً من سره مع حرمه وأحاديث خلواته . فقال له يوماً ، أنى دخلت على قبيحة فوجدتها قد كتبت اسمى على خدها بغالية ، فلا والله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذاك الخد ، فقل فى هذا شيئاً . قال ابن الجهم ، وكانت محبوبة حاضرة الكلام من وراء الستارة ، فدعوت بدواة . فإلى أن أتى بها وابتدأت أفكر قالت محبوبة على البديهة من غير فكرة ولا روية .

وكاتبةٍ فى الخد بالمسك جعفراً … بنفسى مَحَطُّ المسك من حيث أثرا
لئن كتبت فى الخد سطراً بكفها … لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا
فيا من لمملوك لملك يمينه … مطيع له فيما أسر وأظهرا
ويا من هواها فى السريرة جعفر … سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا

فأمر المتوكل الأبيات إلى إحدى المغنيات لتغنى فيها . قال على بن الجهم فبقيت واجماً لا أنطق بحرف وتحيرت والله وتقلبت خواطرى وما قدرت على حرف واحد أقوله .

وغاضبها المتوكل يوماً وهجرها ومنع جواريها جميعاً من كلامها . ثم نازعته نفسه إليها ، والعزة تمنعه من ابتدائها ، وهى تدل عليه لمحلّها منه . قال ابن الجهم : فبكرت يوماً إليه فقال لى ، يا على ، إنى رأيت البارحة فى نومى كأنى صالحتُ محبوبة فقلتَ أقر الله عينك يا أمير المؤمنين وأنامك على خير وأيقظك على سرور أرجو أن يكون هذا الصلح فى اليقظة . فبينما هو يحدثنى وأحدثه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرت إليه شيئاً . فقال : أتدرى ما أسرت إلى هذه ؟ قلت لا ، قال حدثتنى أنها اجتازت بمحبوبة الساعة وهى فى حجرتها تغنى ؟ أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مغاضبها وهى

متهاونة من ذلك، لا تبدؤنى بصلح ثم لا ترضى حتى تغنى فى حجرتها، فقم بنا حتى نسمع ما تغنى. ثم قام وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها وإذا هى تغنى : —

أدور فى القصر لا أرى أحداً   أشكو إليه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصية   ليست لها توبةٌ تخلصنى
فهل لنا شافع إلى ملك   قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا   عاد إلى هجره فصارَمنى ! !

فعجب المتوكل، وأحست بمكانه، فأمرت بخدمها فخرجوا وتنحينا. وخرجت إليه فحدثته أنها رأته فى منامها فانتبهت وقالت هذه الأبيات وغنت فيها فحدثها هو أيضاً رؤياه واصطلحا .

فلما قتل المتوكل سلاه جميع جواريه غيرها، فإنها ظلّت حزينة هاجرة تغنى وهى تبكى على عودها بهذه الأبيات .

أىُّ عيشٍ يطيبُ لى   لا أرى فيه جعفرا ! !
ملكاً قد رأته عيـ   ـنى قتيلاً معفّرا
كلّ من كان ذا هيـ   ـامٍ وحزنٍ فقد برا
غير محبوبة التى   لو ترى الموت يُشترى
لاشترته بملكها   كلّ هذا لتقبرا
إن موت الكئيب أصـ   ـلح من أن يعمّرا ! !

وخرجت من سرمن رأى إلى بغداد وظلت بها حتى قتل ابنها المعتز حيث انتقلت إلى مكة وأقامت بها إلى أن ماتت .

رثاء المتوكل

محلٌ على القاطولِ أخلَقَ داثِرُه　وعادت صُرُوفُ الدهرِ جيشًا تغاوره[1]
كأن الصَّبا توفى نُذُوراً إذا انبرت　تراوحهُ أذيالُها ، وتباكره
وربّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهدُهُ　ترِقُّ حواشيه ، ويورق ناضره
تغيّر حسنُ الجعفريّ وأنسُه　وقُوِّضَ بادى الجعفريِّ وحاضره[2]
تحمّل عنه ساكنوه فجاءةً　فعادت سواء ، دورُهُ ومقابره[3]
إذا نحن زرناه أجدَّ لنا الأسى　وقد كان قبل اليوم يَبهجُ زائره
ولم أنسَ وحشَ القصر إذْ ريع سِرْبُهُ　وإذ ذُعِرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتّكت　على عَجَلٍ أستارُهُ وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به　أنيسٌ ، ولم تحسُنْ لعينٍ مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافةُ طلقةً　بشاشتُها ، والملكُ يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها　وبهجتها ، والعيش غضٌ مكاسره
فأين الحجابُ الصعبُ حيث تمنعت　بهيبتها أبوابُهُ ومقاصره ؟ !
وأين عميدُ الناسُ فى كل نوبةٍ　تنوب ، وناهى الدهر فيهم وآمره ؟ !
تخفى له مغتالهُ تحت غرة　وأولى لمن يغتالهُ لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنايا جنودُهُ　ولا دافعت أملاكُهُ وذخائره
ولا نصر المعتزُّ من كان يرتجى　له ، وعزيز القوم من عز ناصره
تعرَّض نصلُ السيف من دون فتحه　وغيّب عنه فى خراسان طاهره[4]
ولو عاش مَيْتٌ أو تقرّب نازحٌ　لدارت من المكروه ثَمَّ دوائره
ولو لعُبَيْدِ الله عونٌ عليهمو　لضاقت على ورّاد أمرٍ مصادره

---

(١) القاطول نهر كان فى سامرا (٢) الجعفرى — قصر المتوكل (٣) تحمل عن – رحل
(٤) إشارة إلى عبد الله بن طاهر والى خراسان .

حُلومٌ أضلَّتها الأمانى ، ومدةٌ ... تناهت ، وحتفٌ أوشكته مقادره
ومغتصبٍ للقتل لم يُخشَ رهطُهُ ... ولم تحتشم أسبابُهُ وأواصره
صريعٌ تقاضاه السيوف حشاشةً ... يجود بها ، والموت حمرٌ أظافره
أدافعُ عنه باليدَيْنِ ، ولم يكن ... ليثنى الأعادى أعزلُ الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعةَ الفتكِ فى يدى ... درى الفاتكُ العجلانُ كيف أساوره
حرامٌ علىّ الراحُ بعدك أو أرى ... دماً بدمٍ يجرى على الأرض مائره
وهل أرتجى أن يطلب الدمَ واترٌ ... يدَ الدهر ، والموتورُ بالدم واتره
أكان ولىُّ العهدِ أضمر غدرةً ... فمن عجبٍ أن وُلِّىَ العهد غادره
فلا ملّى الباقى تراثَ الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وَأل المشكوك فيه ولا نجا ... من السيف ناضى السيف عذراً وشاهره
لنعم الدمُ المسفوحُ ليلة جعفرٍ ... هرقتم ، وجنحُ الليل سودٌ دياجره
كأنكم لم تعلموا من وليُّهُ ... وباغيه تحت المرهفات وثائره
وإنى لأرجو أن تردَّ أمورَكم ... إلى خلفٍ من شخصهِ لا يغادره
مقلَّبُ آراء تُخافُ أناتُهُ ... إذا الأخرقُ العجلانُ خيفت بوادره !

البحترى

خلافة المنتصر

٢٤٧ — ٢٤٨ هـ : ٨٦١ — ٨٦٢ م

أصبح الأمر بعد مصرع المتوكل والفتح بن خاقان ، بأيدى رؤساء الموالى الأتراك وفيهم مدبرو جريمة القتل فظهروا سافرين على مرسح السياسة يولون الخلفاء ويعزلونهم ويتنافسون فى حبس الأموال واغتصاب الأقطاع .

فظهر منهم أربعة هم بغا الصغير رئيس الخدم ووصيف الحاجب وباغر وأتامش من غلمان القصر .

وقد حضروا مع القواد والكتاب والجند والوجوه فى اليوم التالى وأعلنوا بيعة المنتصر . وبعد أيام أجمعوا على خلع المعتز والمؤيد أخوى المنتصر حتى يأمنوا جانبهما وما زالوا بالمنتصر حتى أجابهم وخلعهما . ودعاهما إليه ، وقال لهما « أترانى خلعتكما طمعاً فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له ، والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط ، ولكن هؤلاء (وأومأ إلى الموالى الأتراك) ألحوا علىّ فى خلعكما ! . . . » فأكبّا عليه فقبّلا يده فضمّهما إليه ثم انصرفا .

ولم تطل معه خلافته فمات بعد ستة أشهر من توليته وهو فى سن الخامسة والعشرين وقيل إنه رأى على البساط صورة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه فارتاع من رؤياه وظل طيف أبيه المتوكل يطارده فمات من الفزع .

وفى حكمه تحرك يعقوب بن الليث الصفار فى ثورته واستولى على فارس .

خلافة المستعين

٢٤٨ — ٢٥٢ هـ : ٨٦٢ — ٨٦٦ م

واسمه أحمد بن محمد بن المعتصم من أم ولد صقلبية اسمها مخارق . جاءته الخلافة بغتة من غير تطلع إليها ، وقد أجمع الموالى والقواد من الأتراك بعد موت المنتصر على

توليته كى لا تخرج الخلافة إلى أولاد المتوكل فبايعوه وكان فى سن الثامنة والعشرين .

وبلغ من سطوة الموالى أنهم لم يطمئنوا إلى وجود وزيره أوتامش وضاقوا ذرعاً باستئثاره عليهم بالسلطان فقتلوه وكاتبه شجاع .

وفى عهده شغب الأهالى ببغداد نفوراً من سطوة الأتراك وانضم لهم فريق من أهالى فارس والأهواز فشبت الثورة وهجموا على السجون ففتحوها وأطلقوا من فيها وأحرقوا أحد جسرى بغداد ، وانتهبوا دور أهل اليسار واستولوا على ما فيها من أموال ولكن الجيش تغلب على الثائرين فشتتهم .

واشتدت الكراهية بين وصيف وبغا الصغير وبين باغر (قاتل المتوكل) لما ناله من هبات المنتصر فقتلاه . فثار الجند على المستعين وحاصروه فى قصره ، فاعتقل المعتز والمؤيد وانحدر إلى بغداد ومعه وصيف وبغا . فقام الجند بفك اعتقال المعتز والمؤيد وأعلنوا مبايعة الأول .

وانقسم الشعب والجيش إلى قسمين ، قسم مع المستعين ببغداد وعلى قيادته وصيف وبغا ومحمد بن طاهر ، وقسم مع المعتز بسامرا وعلى قيادته أخوه أبو أحمد بن المتوكل الذى تمكن فى النهاية من تضييق الحصار على بغداد ومنع وصول الأقوات إليها . فصاح سكانها طالبين سد غائلة الجوع وتخفيض أسعار الغلاء .

وأخيراً وبعد ما يقرب من سنة ، تدخل العقلاء من الفريقين واتفقوا بعد مفاوضات طويلة على تسوية الخلاف بخلع المستعين وأكرهوه على القبول لخلع نفسه وخطب ببغداد للمعتز بالله .

فلما بويع للمعتز أمر بتوجيه المستعين إلى البصرة ومنها إلى واسط حيث قتل وحمل رأسه إلى المعتز .

وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر .

خلافة المعتز

٢٥٢ — ٢٥٥ هـ : ٨٦٦ — ٨٦٨ م

وآلت الخلافة إلى المعتز بن المتوكل

وهو ابن (قبيحة) ، واستخلف وهو ابن ثمانى عشرة سنة . صفح ظاهرياً بوساطة أخويه أبى أحمد والمؤيد عن وصيف وبغا ولكنه كان يعمل فى الخفاء على الخلاص منهما فقد كان لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه نهاراً وليلا خوفاً منهما . وقد تم تدبيره فقتلهما .

ونما إليه أن أخاه المؤيد قد استمال جماعة من الموالى فحبسه وحبس معه أبا أحمد وهما شقيقان . وطالب المؤيد بخلع نفسه من ولاية العهد وضرب أربعين عصا إلى أن أجاب وأشهد على نفسه بالطاعة .

وشعر المعتز بمحاولة فريق من الأتراك إخراج المؤيد من حبسه فأماته بدرجه فى لحاف مسموم شد طرفاه . وأحضر القضاة والفقهاء ليروا بعد موته أن لا أثر لجريمة فى جسمه !! . . .

أما أبو أحمد فضيّق عليه الحبس .

ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة فى قتلهم وقلة الأرزاق التى تعطى لهم جملوا تحت زعامة صالح بن وصيف يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال فلجّ وأنكر .

وحاصروه فى قصره ، وبعثوا إلى مدينة السلام فى طلب محمد بن الواثق وأتوا به إلى سامرا (سرّ من رأى) . فتلقاه الأولياء فى الطريق ودخل إلى الجوسق .

وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه . فأتى به وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل . فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعانقه . وجلسا معاً على السرير فقال ابن الواثق يا أخى ما هذا الأمر. فقال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له . فأراد ابن الواثق أن يتوسط

ويصلح الحال بينه وبين الأتراك فقال المعتز لا حاجة لى فيها ، ولا يرضونى لها . فقال محمد بن الواثق : فأنا فى حل من بيعتك قال له المعتز : أنت فى حل وسعة على أن يعطونى الأمان وأن يؤمنونى على نفسى ومالى وولدى .

ولكنه ردّ إلى محبسه وبعد قليل دخل إليه جماعة من الأتراك وجروه برجليه إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه فى الشمس فى صحن الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع رجلا من شدة الحرّ . ثم سلّموه إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام . وبعد ذلك أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه ففاضت روحه .

ويقال أنه أرسل إلى أمه فى طلب أموال منها لدفعها لهم فاعتذرت بعدم وجود شىء لديها وقد فتش الأتراك مواضعها بعد وفاته فعثروا على أموال طائلة كانت مخزونة فى سراديب .

وكان المعتز طويلا أسود الشعر كثيفه ، حسن العينين أبيض الوجه ضيق الجبين أحمر الوجنتين .

المهتدى بالله

٢٥٥ — ٢٥٦ هـ : ٨٦٨ — ٨٦٩ م

ذلك رجل من طراز جديد يمثل الزهد والورع والتقشف . اسمه محمد بن الواثق من أم ولد رومية اسمها (قرب) . استخلف فى السابعة والثلاثين من عمره .

وأول عمله بناء قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم . وكان يجلس فيها للعام والخاص يظهر العدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والطغيان ويحرم الشراب .

وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب الناس ويؤم بهم . وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب . وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم . وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت ، وذبح الكباش والديوك التى كان يناطح بها بين يدى الخلفاء ، وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته .

وكانت الخلفاء تنفق على موائدها ببذخ ، فأزال المهتدى بالله هذا الإسراف وجعل لمائدته وسائر مؤنه فى كل يوم نحو مائة درهم .

وكان يواصل الصيام ، فإذا جن الليل لبس جبة صوف وغل يغل نفسه وقام يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح فلا ينام من الليل إلا ساعة بعد العشاء .

وسمعه بعض من كان يأنس إليه وقد صلى المغرب ودنا من إفطاره وهو يقول : اللهم ، إنه قد صح عن نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال ، ثلاثة لا تحجب لهم دعوة من الله ، دعوة الإمام العادل وقد أجهدت نفسى فى العدل على رعيتى ، ودعوة المظلوم وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر وأنا صائم . وجعل يدعو على أعدائه وأن يكفى شرهم .

ومما يروى عنه ، أن استعداه ذات مرة رجل على ابن له ، فأمر باحضاره فأحضر وأقام إلى جانب خصمه ليحكم بينهما . فقال الرجل للمهتدى ، والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قيل .

حكمتموه قاضياً بينكم   أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة فى حكمه   ولا يبالى غبن الخاسر

فقال المهتـدى ، أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك ، وأما أنا فما جلست حتى قرأت (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الآية . . . وأنصفه .
وروى أبو العباس الهاشمى « كنت عند المهتدى فى يوم من شهر رمضان فقمت لأنصرف ، فأمرنى بالجلوس . فجلست حتى صلى بنا المغرب وأمر بالطعام فأحضر فكان طبق عليه رغيفان وفى إناء ملح وفى آخر زيت وفى آخر خل . فدعانى إلى الأكل . فأكلت مقتصداً ظناً منى أنه يحضر طعاماً جيدا . فلما رأى أكلى قال ، أما كنت صائماً قلت بلى قال : أفلست تريد الصوم غداً ؟ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان قال : كل فليس هاهنا غير ما ترى . فعجبت من قوله وقلت ، ولم يا أمير المؤمنين ، قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه فقال إن الأمر على ما وصفت والحمد لله ولكننى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، فغرت لبنى هاشم أن لا يكون من خلفائهم مثله . وأخذت نفسى بما رأيت . أفما نخاف الله ! ! . »

وثقلت وطأته على العامة والخاصة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة عليه . فاجتمع قواد الترك داخل الجوسق وتباحثوا فيما بينهم على خلعه . فقال : لهم أحدهم وهو بايكباك « إنكم قتلتم ابن المتوكل — المعتز بالله — وقد كان فاضل النفس ، سخى الكف ، حسن الوجه وتريدون قتل هذا من دون ذنب ، وهو مسلم يصوم ولا يشرب النبيذ . والله لئن قتلتموه لألحقن بخراسان لأشيع أمركم هناك» .

ونما الخبر إلى المهتدى ، فتحول من مجلسه متقلداً سيفه وقد لبس ثياباً نظافا وتطيب . ثم دعاهم وأمر بإدخالهم عليه فدخلوا . فقال لهم « بلغنى ما أنتم عليه ، ولست كمن تقد منى مثل المستعين والمعتز . والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنّط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى . وهذا سيفى ، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدى . والله لئن سقط منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم . كم هذا الخلاف على الخلفاء . . والإقدام والجرأة على الله ؟ ! . . سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسروراً بمكروهكم حتى تعلموا أنه وصل إلى شىء من دنياكم . أما أنكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من جماعة من أهلى وولدى . سوأة لكم » فخرجوا صامتين .

ولكنهم لم يلبثوا أن جمعوا قواهم وطاردوه حتى اختبأ بدار « أحمد بن جميل » ببغداد فقاتلوه . وأرادوه على الخلع فأبى أن يجيبهم حتى سقط . فأجهزوا عليه .

فلما مات ، داروا ينوحون ويبكون . وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده .

وقضى فى خلافته أحد عشر شهراً وخمس عشرة ليلة !

وكان رحب الجبهة أجلى ، جهم الوجه ، أشهل ، عظيم البطن ، عريض المنكبين طويل اللحية قصيراً .

خلافة المعتمد

٢٥٦ — ٢٧٩ هـ : ٨٦٩ — ٨٩٢ م

وأحضر العباس بن أحمد المتوكل وكان محبوساً بالجوسق فبايعه الأتراك وغيرهم ولقب بالمعتمد على الله وكان فى الخامسة والعشرين .

وأمه أم ولد كوفيّة اسمها فتيان .

عاش شغوفاً بالطرب ، غلبت عليه المعاقرة ومحبة اللهو والمجون وله فيها حديث مستفيض .

وفى أيامه قويت شوكة صاحب الزنج (وكانت ثورته فى خلافة المهتدى) فاستولى على الأهواز والبصرة وواسط وغيرها من المدن الكبيرة وأعمل فيها هو وجنوده القتل والنهب والتخريب وهزموا جيوش المعتمد مراراً حتى خشى منهم . فسيّر المعتمد أخاه أبو أحمد (الموفّق) لحربه . فانتصر عليه بعد كفاح أربع عشرة سنة وظفر به وقطع رأسه وأرسلها إلى بغداد .

ولم تكد ترتاح البلاد من ثورته حتى أغار يعقوب بن الليث الصفار على الأهواز فاستحوذ عليها . فحارب به الموفق وهزمه .

وبهذه الانتصارات الناجحة ارتفع ذكر الموفق وعلا شأنه فغطى على اسم أخيه الخليفة . فاستغلّ هذه الفرصة وضيق على أخيه وأصبح الحلّ والربط بيد الموفق وحده . وأصبح المعتمد لا حول له ولا قوة ولا يجد مايعوزه من المال فكان ينظر لنفسه ويردد هذين البيتين أسفاً .

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ماقلّ ، ممتنعاً عليه ؟!

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما منها يسيرٌ فى يديه ؟!

وأخذ الموفق من أخيه العهد على توليته بعد موته . ولكن شاءت حكمة الله أن يموت الموفق قبل المعتمد . فأصابه داء النقرس واشتد عليه . فكانوا يحملونه على سرير عليه قبة يقعد عليه ومعه خادم يبرد له رجله بالثلج . واستحالت علة رجله إلى

داء الفيل . فكان يحمل سريره أربعون رجلا بالنوبة وهو ينظر إليهم بعين الحسرة ويقول لهم « لقد ضجرتم من حملي . وما أرغب إليّ لو كنت كواحد منكم أحمل على رأسي وآكل وأنا في عافية ... !!

ولم يلبث قليلا ثم توفى .

وبايعوا بولاية العهد ابنه المعتضد .

وفى أواخر العهد قامت ثورة القرامطة واتسعت دعوتهم . وفى خلالها مات المعتمد بعد ثلاثة وعشرين عاماً من حكمه . وقيل فى سبب وفاته أنه دس إليه نوع من السم فى شرابه .

خلافة المعتضد

٢٧٩ — ٢٨٩ هـ : ٨٩٢ — ٩٠٢ م

وبويع أحمد بن الموفق ولقب بالمعتضد بالله . وأمه أم ولد رومية اسمها مرار . وكانت سنه إحدى وثلاثين .

وكان المعتضد قوى الشكيمة صارماً مقداماً سفاكا للدماء دون هوادة أو لين . واتخذ المطامير وجعل فيها صنوف العذاب لمن يقع تحت يده من مخالفيه والخارجين عليه . فهابه الناس وسكنت الفتن ورخصت الأسعار وهدأ الهرج وسالمه كل مخالف .

وكان صاحب المملكة ومستشاره فى الحكم غلامه التركى (بدر) .

وحكى عن المعتضد أنه كان شحيحاً بخيلا ينظر فيما لا ينظر فيه العامة . من ذلك أنه أمر عند ولايته بأن ينقص من الأرغفة التى تصرف لحشمه ومن يجرى عليه من الأتراك أوقية لكل رغيف وأن يبدأ بخبزه هو . وقصد من ذلك اقتصاداً وفيراً للدولة !.

وفى عهده وقعت حروب للروم وثورة بنى شيبان .

ومن آثاره منع الناس من تقاليد النيروز كصب الماء ورفع النيران وعدم بيع كتب الكلام والجدل والفلسفة .

وفى عهده مات البحترى فى مسقط رأسه بمنبج عام ٢٨٤ هـ .

(إيوان كسرى)

صُنتُ نفسي عما يدنّسُ نفسي   وترفّعتُ عن جَدا كلِّ جِبْسِ [١]

وتماسكتُ حين زعزعني الده   رُ التماساً منه لتعسي ونكسي

بُلَغٌ من صُبابةِ العيشِ عندي   طففتها الأيامُ تطفيف بخس [٢]

وبعيدٌ ما بين واردِ رَفهٍ   عَلَل شربُه ، ووارد خمس [٣]

وكأنّ الزمان أصبح محمو   لاً هواه مع الأخسّ الأخسّ

واشترائي العراقَ خطةُ غَبنٍ   بعد بيعي الشآم بيعة وكس

لا ترزني مزاولاً لاختياري   عند هذي البلوى فتنكر مسّي

وقديماً عهدتني ذا هناتٍ   آبياتٍ على الدنيئات شمس

ولقد رابني نبوُّ ابن عمي   بعد لينٍ من جانبيه وأنس

وإذا ما جفيت كنت حرياً   أن أُرى غيرَ مُصبحٍ حيث أمسي

حضرت رحلي الهمومُ فوجّه   ت إلى أبيضَ المدائنِ عَنسي

أتسلّى عن الحظوظ ، وآسى   لمحلّ من آل ساسان درس

ذكّرتنيهم الخطوبُ التوالي   ولقد تذكرُ الخطوبُ وتُنسي

وهم خافضون في ظلّ عالٍ   مشرفٍ يُحسر العيونَ ويُخسي

مُغلقٌ بابه على جبل القبـ   ق إلى دارَتَي خِلاطٍ ومُكَس

حِلَلٌ لم تكن كأطلال سعدى   في قفار من البسابس مُلس

ومساعٍ لولا المحاباة مني   لم تطقها مسعاة (عنس) و(عبس)

نقل الدهر عهدهن عن الجدّ   ة حتى غدون أنضاء لبس

فكأنّ الجرماز من عدم الأنـ   س وإخلاله بنيّةُ رَمس

لو تراه علمت أن الليالي   جعلت فيه مأتماً بعد عرس

وهو يُنبيك عن عجائب قومٍ   لا يُشابُ البيان فيهم بلبس

---

(١) الجبس اللئيم (٢) الضبابة بقية ما في الكأس (٣) وارد رفه ورود الماء كل يوم ووارد خمس وروده كل أربعة أيام أي في اليوم الخامس وأصلها لورود الأبل

فإذا ما رأيت صورة أنطا   كية ارتعت بين رُوم وفرس

والمنايا مواثلٌ ، (و أنو شر   وان)يزجى الصفوف تحت الدِّرَفْس (١)

فى اخضرارٍ من اللباس على أصـ   فر يختال فى صبيغة ورس (٢)

وعراكُ الرجال بين يديه   فى خُفُوتٍ منهم و إغماضِ جَرس

من مُشيحٍ يهوى بعامل رُمحٍ   ومُليح من السِّنانِ بترس

تصفُ العينُ أنهم جدّ أحيا   ء لهم بينهم إشارة خُرس

يغتـلى فيهمو ارتيابىَ حتى   تتقرّاهم يَــداىَ بلمس

قد سقانى ولم يصرّدْ (أبو الغو   ث) على العسكرينِ شَرْبة خَلس (٣)

من مدامٍ تقول ها وهى نجم   أضوأ الليلُ أو مجاجة شمس (٤)

وتراها إذا أجدّت سروراً   وارتياحاً للشــارب المتحسى

أفرغت فى الزجاج من كل قلب   فهى محبوبةٌ إلى كلّ نفس

وتوهمتُ أن كسرى أبروي   زَ معاطىّ ، والبلهبذ أنسى

حلمٌ مطبق على الشكّ عينى   أم أمانٍ غيّرن ظنى وحدسى

وكأن الإيوانَ من عَجَب الصنـ   عة جَوبٌ فى جنب أرعنَ جِلس (٥)

يتظنى من الكآبة أن يبـ   ـدو لعينى مصـبح أو ممسى

مزعجاً بالفراق عن أنس الفِ   ـعزّ ، أو مرهقا بتطليق عرس

عكستْ حظّه الليالى وبات الـ   ـمشترى فيه وهو كوكبُ نحس

فهو يبدى تجلّداً وعليــه   كلْكلٌ من كلاكل الدهر مُرسى

لم يعبه أن بزّ من بُسطِ الديـ   ـباج واستلّ من ستور الدّمقس

مشمخرٌ تعــلو له شُرُفات   رفعت فى رءوس رضوى وقدس (٦)

---

(١) الدرفس العلم   (٢) الورس نبات يميل إلى الأصفرار .

(٣) أبو الغوث هو ابن البحترى   (٤) فى رواية ديوان البحترى تقولها هى نجم وقد صححناها من رواية أبى العلاء فهى أوضح معنى   (٥) جوب ترس — أرعن جلس أحمق ضخم والمعنى أن الإيوان بهيئته بجانب أبيض المدائن كالترس بجانب الرجل الضخم .

(٦) رضوى وقدس جبلان

لابسات من البيَــاض فما تبـ   ـصر منها الا غلائل بَرس
ليس يدرى أصنع إنس لجنّ   سكنوه أم صنع جنّ لإنس
غير أنى أراه يشهد إن لم   يكُ بانيــه فى الملوك بنِكس
فكأنى أرى المراتبَ والقو   مَ إذا ما بلغتُ آخر حسى
وكأن الوفودَ ضاحين حَسرى   من وقوف خلف الزحام وخُنس
وكأن القيانَ وسطَ المقا   صير يرَجعن بين حُوّ ولُعس (١)
وكأن اللقاء أوّلُ من أمـ   ـس ، ووشكَ الفراق أوّلُ أمس
وكأن الذى يريد أتباعا   طامعٌ فى لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهرا فصارت   للتعزى رباعُهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع   موقفاتٍ على الصبابة حُبس
ذاك عندى ، وليست الدار دارى   باقترابٍ ، ولا الجنس جنس
غير نعمى لأهلها عنـد أهلى   غرسوا من ذكائها خير غرس
أيّدوا ملكنا ، وشدّوا قواه   بكماةٍ تحت السنوّر حمس (٢)
وأعانوا على كتائب (أريا   ط) بطعن على النحور ودعس
وأرانى من بعد أكلف بالأشـ   ـراف طرا من كل سنخٍ وأسّ !! (٣)

البحترى

---

(١) حو ولعس سمراء الشفة ومن فى شفتها سواد مستحب .   (٢) السنور السلاح
(٣) سنخ وأس — الأصل .

ألا ليت المقـــــادرَ لم تقدر ولم تكن الأحاظى والجُدودُ
فأنظرَ أيُّنا يضحى ويمسى له هذى المواكب والعبيد
فلو كان الغنى حظًّا كريماً لأخطأه النصارى واليهود
ولـكن الزمان زمان سوء سجال الأمر يفعل ما يريد
فأسعدَهُ ، على قومٍ نحوسٌ وأنحسَهُ ، على قومٍ سعود !!

البحترى

الفصل الثالث

الوزراء والكتاب

شغل « ديوان الرسائل » أهم جانب من الدولة . فمنه كانت تصدر الأوامر والأحكام التى يسجلها الكاتب بين يدى السلطان أو الوالى فى مجالس حكمه وفصله فيوقع عليها بأوجز لفظ وأبلغه . وفى هذا التسجيل يحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه .

وكان اختيار الكتاب من أرفع طبقات الناس ومن أكثرهم علماً وأوسعهم إلماماً بالأدب والتاريخ وطرق معاشرة الملوك . فكانوا أقرب من السلطان مجلساً وأكثر تردداً إليه وألصق به من غيرهم من سائر الموظفين . و بهذه المكانة أصبحوا الآلة التى يستظهر بها الخليفة أو من يليه على تحصيل ثمرات ملكه .

ومن هنا علا قدر الكتابة حتى إنها صارت صناعة اختصّ بها من يحسنها .

بل و بلغ من ارتفاع شأوها وخطورة شأنها أن اختار بعض الخلفاء وزراءهم من هذه الطائفة وأحلوهم مكانة الصدر من الدولة ، يأمرون عنهم و يجيزون .

وامتزجت الكتابة بالأدب وصارت فنًّا يدرسه الناس على اختلاف طبقاتهم و يتذاكرون به حتى أرباب السيوف ، وفيهم من أسندت إليه هذه الرتبة ، فبرز منهم فى إبّان الأزمات وتحرج الأحوال من يدافع بسيفه المسلول ، فإذا ماردّ السيف إلى غمده ، عاد إلى وظيفته فى الديوان يدبّج مقالته و ينمقّ عبارته . فجمع بين السيف والقلم فى صناعة واحدة .

وسمت منزلة الكتاب بما لهم من الدالّة وعظمت ثرواتهم . وأصبحت دورهم مطروقة بالوافدين من كل صوب . ومدحتهم الشعراء وتملقتهم الولاة والحكام طمعاً فى الجاه وأملا فى الحظوة والارتفاع .

حدّث الزجّاج النحوى أحد معاصرى البحترى ، وكان مؤدباً للقاسم بن عبيد الله

بن سليمان بن وهب ، وزير المعتضد فقال : « كنت أقول للقاسم بن عبيد الله : إن بلغك الله مبلغ أبيك ووليت الوَزَارةَ ماذا تصنع بى ؟ فيقول ماذا أحببتَ ؟ فأقول له تعطينى عشرين ألف دينار . وكانت غاية أمنيتى . فما مضت سنون حتى ولىَ القاسم الوَزَارةَ وأنا على ملازمتى له . وصرت نديمه . فدعتنى نفسى إلى إذكاره بالوعد ثم هبتُه . فلما كان فى اليوم الثالث من وزارته قال لى ، يا أبا إسحق لم أرَكَ أذكرتنى بالنَّذْر ! فقلت : عولت على رعاية الوزير أيده الله وأنه لايحتاج إلى إذكار بنذرٍ عليه فى أمر خادم واجب الحق ، فقال لى : إنه المعتضد ولولاه ما تعاظمنى دفعُ ذلك إليك فى مكانٍ واحدٍ ، ولكنى أخاف أن يصير لى معه حديث ، فاسمح بأخذه متفرّقاً . فقلت : يا سيدى افعل . فقال : اجلس للناس وخذ رقاعَهُم فى الحوائج الكبار خذ جعلاً عليها ، ولا تمتنع عن مسألتى شيئاً تخاطب فيه ، صحيحاً كان أو مُحالا ، إلى أن يحصل لك مال النذر . قال ففعلت ذلك ، وكنت أعرض عليه كل يوم رقاعاً ، فيوقع لى فيها . وربما قال لى : كم ضمن لك على هذا فأقول كذا كذا فيقول لى غبنت ، هذا يساوى كذا وكذا ، ارجع فاستزد . فأراجع القوم ، فلا أزال أما كسهم ويزيدونى ، حتى أبلغ الحد الذى رسمه . قال وعرضت عليه شيئاً عظيماً فحَصَلت عندى عشرون ألف دينار ، وأكثر منها فى مُديدةٍ ، فقال لى بعد شهور يا أبا إسحق ، حصل مال النذر؟ فقلت لا ، فسكت . وكنت أعرض عليه فيسألنى فى كل شهر ونحوه حصل المال ؟ ! فأقول لا ، خوفاً من انقطاع الكسب ، إلى أن حصل لى ضعف ذلك المال .

وسألنى يوماً فاستحييت من الكذب المتصل ، فقلت قد حصل ذلك ببركة الوزير . فقال فرجت والله عنى ، فقد كنت مشغول القلب إلى أن يحصل لك ، قال ثم أخذ الدواة فوقع إلى خازنه بثلاثة آلاف دينار صلة فأخذتها ، وامتنعت أن أعرض عليه شيئاً ، ولم أدر كيف أقع منه . فلما كان من الغد جئته وجلست على رسمى ، فأومأ إلىّ أن هات ما معك ، يستدعى منّى الرقاع على الرسم . فقلت ما أخذت من أحدٍ رقعة ، لأن النَّذرَ وقع الوفاء به ، ولم أدر كيف أقعُ من الوزير فقال ياسبحان الله ! ! أترانى أقطع عنك شيئاً قد صار لك عادة وعلم به الناس ،

وصارت لك منزلة عندهم وجاه ، وغدوّ ورواح إلى بابك ، ولا يُعلَم سبب انقطاعه ، فيُظَنُّ ذلك لضعفِ جاهكَ أو تغيّر رتبتك عندى ؟ اعرض علىّ رسمك ، وخذ بلا حساب . فقبلت يده ، وباكرته من غد بالرقاع ، فكنت أعرض عليه كل يوم شيئاً إلى أن مات ، وقد تأصلت حالى هذه » .

وفى هذا الحديث يجد القارئ صورة لما كانت عليه الكتابة وما كان لها من أثر فى عصر البحترى . ومن هذه الصورة المتكاملة نستطيع أن نرسم تقاطيعها مفصلة فى سير وزراء ذاك الأوان وكتّابه .

آل سهل

وأصل سهل سرخسى من خراسان وقيل إنه أسلم على يد المهدى . وشب ولداه الفضل والحسن فى عهد الرشيد . ووزر الأول للمأمون فلما قتل خلفه أخوه الحسن فى سنة ٢٠٢ هجرية .

وما لبث الحسن أن ثارت عليه السوداء لكثرة جزعه على أخيه الفضل فتغير عقله حتى شد فى الحديد وحبس فى بيت .

وتعافى من دائه وظل بعيداً عن الحكم محافظاً على صداقة المأمون مقيماً فى « فم الصِّلح » على نهر دجلة . وتزوج المأمون ابنته بوران فى حفل حاشد . ويروى المؤرخون أن الحسن بن سهل فرش للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب فلما وقف عليه نثرت على قدميه أمطار اللآلىء . وكتب أسماء ضياع وجوار ودواب فى رقاع ونثرها على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه ممن حضروا حفل الزفاف فمن وقع له رقعة أخذ نصيبه المكتوب فيها .

وكان عالماً أديباً . ومن مأثور أدبه قوله لبنيه « يا بنى تعلموا النطق ، فإن فضل الإنسان على سائر البهائم به . وكلما كنتم أحذق كنتم بالإنسانية أحق !! » .

وقال بعضهم حضرت مجلس الحسن بن سهل وقد كتب لرجل كتاب شفاعة فجعل الرجل يشكره فقال الحسن ، يا هذا ، علام تشكرنا ؟ إنا نرى الشفاعة زكاة مروءاتنا !! .

وفى أخبار الفراء : كان عمر بن بُكير راوية ناسباً أخبارياً نحوياً له مصنفات، وكان صاحب الحسن بن سهل خصيصاً به ومكيناً عنده ، يسائله عن مُشكلات الأدب .

وكان عمر يوما بين يدى المنتصر (بن المتوكل) وهو أمير ، وأحمد بن الخصيب كاتبه فقال المنتصر دعونا من الرسوم الدائرة والعظام البالية . فوثب عمر بن بكير فقال أيها الأمير ، إن للحسن بن سهل علىّ نعماً عظاماً ، وله فى عنقى مِننٌ جمّة فقال ماهى يا عمر ؟ قال ملأ منزلى ذهباً وفضّة ، وأدنى مجلسى حتى زال عن مجلسه ، وخلع علىّ فألحقنى برؤساء أهل العلم كأبى عبيدة والأصمعى ووهب بن جرير وغيرهم ، وقد أقدرنى الله بالأمير على مكافأته ، وهذا من أوقاته ، فإن رأى الأمير أن يسهل إذنه ، ويحيل ذلك على يدى وحبوة لى وذريعة إلى مكافأة الحسن فعل . فقال المنتصر يا أبا حفص بارك الله عليك ، فمثلك يستودع المعروف ، وعندك يتم البر ، ومثلك يرغب الأشراف فى اتخاذ الصنائع ، وقد جعلت إذن الحسن إليك ، فأدخله فى أى وقت حضر من ليل أو نهار ، ولا سبيل لأحد من الحجاب عليه . فقبل عمر البساط ووثب إلى الباب . فأدخل الحسن وأتكأه على يده . فلم سلم على المنتصر أمره بالجلوس فجلس وقال له قد صيرت إذنك إلى أبى حفص ، ورفعت يد الحاجب عنك ، فاحضر إذا شئت من غدوّ ورواح ، وارفع حوائجك ، وتكلم بكل ما فى صدرك

فقال الحسن أيها الأمير ، والله ما أحضر طلباً للدنيا ، ولا رغبة فيها ولا حرصاً عليها ، ولكن عبد يشتاق إلى سادته . و بلقائهم يشتدظهره ، و ينبسط أمله ، وتتجدد نعم الله عنده ، وما أحضرُ الآن أىّ وقت شئت . وأكب الحسن على البساط فقبله شكراً ونهض . ونهض معه عمر بن بكير فلما بعدا عن عين المنتصر قال المنتصر هكذا فليكن الشاكرون ، وعلى أمثال هذا فلينعم المنعمون . وقال الحسن لعمر : يا أبا حفص والله ما أدرى بأى لسان أثنى عليك ، فقال سبحان الله ! أنا أولى بالشكر والثناء عليك والدعاء لك ، خوّلتنى الغنى وألبستنى النعمى فى الزمان الصعب ، وفى الحال التى كان يجفونى فيها الحميم ، فجزاك الله عنى وعن ولدى أفضل

الجزاء، فقال الحسن وا لهفتا ! ألا يكون ذلك المعروف أضعاف ما كان !!

ومات بعد ذلك بأيام قلائل. وله من الأولاد إبراهيم (أبو الفضل) والحسين ومحمد. والأخير وهو المعروف بشَيْلَمة وكان مع العَلَوى صاحب الزّنج ثم صار إلى بغداد وأومن ثم خلّط وسَعى لبَعض الخوارج فحرقه المعتضد حيًّا. وكان مصلوباً على عمود خيمة.

قريعـــان

ابن أبى دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات

والأول هو القاضى أحمد بن أبى دؤاد.

والثانى هو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات.

وأصل الأول من قرية بقنسرين. واتجه أبوه إلى الشام وأخرجه معه وهو حدث. فنشأ أحمد فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام. وكان من أصحاب « واصل بن عطاء » فصار إلى الاعتزال.

واتصل أمره بالمأمون. وهو فى صحابة القاضى يحيى بن أكثم، فأدناه منه. وأسند المأمون وصيته عند الموت إلىّ أخيه المعتصم وقال فيها: « وأبو عبيد الله أحمد ابن أبى دؤاد، لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك. فإنه موضع لذلك ».

وعزل المعتصم يحيى بن أكثم وجعل مكانه ابن أبى دؤاد وخص به حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه. فنال حظوة ودالة لم يسبقه إليهما أحد، حتى صار يفتتح الكلام فى حضرته. وكانت العادة عند الخلفاء أن لا يبدأهم أحد بالكلام حتى يخاطبوه.

أما الثانى فمن إقليم الجبل الواقع بين بلاد العراق وخراسان من قرية يقال لها الدسكرة. وكان جده (أبان) يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد. فسمت بمحمد همته وشب من أهل الأدب شاعراً بليغاً، عالماً بالنحو واللغة. كان كاتباً « بديوان

الرسائل » وكان وزير المعتصم أحمد بن عمار بن شاذى المبصرى . ففى يوم ورد على المعتصم كتاب من بعض عماله فقرأ الوزير عليه . وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فسأله المعتصم : ما الكلأ ؟ فأجابه الوزير لا أعلم . وكان قليل المعرفة بالأدب ، فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى ! ...

ثم قال أبصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه فسأله المعتصم ما الكلأ ؟ .. فقال ابن الزيات : الكلأ العشب على الإطلاق . فإن كان رطباً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش . وشرع فى تقسيم أنواع النبات . فعلم المعتصم فضله فاستوزره ، وحكمه ، و بسط يده .

وامتد سلطان ابن الزيات فى عهد الواثق وأطلق يده يشتد و يقسو ، واتخذ تنوراً من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل وهى قائمة مثل رؤوس المسال . وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال . فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه فيتألم أشد الألم . وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ، ارحمنى فيقول له : « الرحمة خور فى الطبيعة !... »

ولم يسبقه أحد إلى هذه العقوبة الفظيعة .

وتشاء الأقدار ، أن يكون « ابن الزيات » سبباً من أسباب الخصومة التى كانت بين المتوكل وأخيه الواثق . فما ولى المتوكل حتى أخذه بالعداوة وعذبه فى هذا التنور. فكان يقول لنفسه ، يا محمد يا بن عبد الملك !! لم تقنعك النعمة والدواب الفُرْهُ والدار النظيفة والكسوة الناضرة وأنت فى عافية ، حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ! ...

وقيل إنه طلب من الموكل به أن يأذن له فى دواة و بطاقة ليكتب فيها ما يريد فاستأذن المتوكل فى ذلك فأذن له . فكتب :

هى السبيل فمن يوم إلى يوم ... كأنه ما تريك العين فى النوم
لا تجزعن رويداً ، إنها دول ... دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وتشاغل المتوكل فى ذلك اليوم فلم تصل الرقعة إليه . فلما كان الغد قرأها ، فأمر بإخراجه فوجد ميتاً .

*
* *

كان القاضى فى المنزلة الأولى لدى المعتصم وهو من المعتزلة المنادين بخلق القرآن . ووزر محمد بن عبد الملك الزيات للمعتصم وهو من شيعة الطالبيين . ووقف الاثنان وجهاً لوجه . وتولدت النفرة ، وقامت العداوة . كلاهما متربص وكلاهما على حذر من الآخر .

ونتجت بينهما منافسات وشحناء حتى إن شخصاً كان يصحب القاضى ويختص بقضاء حوائجه فمنعه الوزير من التردد إليه . فبلغ ذلك القاضى فجاء إلى الوزير وقال له : والله ما جئتك لا متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة . ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك . ثم نهض من عنده .

واستصدر ابن الزيات فى مدة الواثق أمراً بأن يقوم له كل من يراه من الناس . فكان ابن أبى دؤاد إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلى . فقال ابن الزيات :

صلّى الضحى لما استفاد عداوتى وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمنّ عداوة مسمومة تركتك تقعد تارة وتقوم

وهجا الوزير القاضى بتسعين بيتاً فعمل القاضى بيتين ردّاً عليهما وهما

أحسن من تسعين بيتاً سدًى جمعك معناهنّ فى بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت !!

وحدث أن صار جعفر المتوكل إلى ابن الزيات يسأله أن يكلم له أخاه الواثق ليرضى عنه . فلما دخل عليه ، مكث واقفاً بين يديه ملياً لا يكلمه ثم أشار عليه أن يقعد فقعد ، فلما فرغ من نظره فى الكتب ، التفت إليه كالمتهدد له وقال له ما جاء بك قال جعفر : جئت لتسأل أمير المؤمنين الرضى عنى . فقال ابن الزيات لمن حوله « انظروا إلى هـذا ، يغضب أخاه ويسألنى أن أسترضيه له !! .. اذهب فإنك إذا صلحت رضى عنك » .

والتجأ المتوكل إلى ابن أبى دؤاد فدخل عليه فقام له القاضى واستقبله على باب البيت وقبله والتزمه وقال له ماجاء بك جعلتُ فداك ؟ قال جئت لكى تسترضى لى أمير المؤمنين ، قال أفعل ونعمة وكرامة . وقام باسترضاء الواثق عليه حتى رضى وعفا عنه .

وعند المبايعة للمتوكل كان من رأى ابن الزيات مبايعة ابن الواثق ومن رأى القاضى مبايعة المتوكل وتمت المبايعة على رأى الثانى .

بيد أن المتوكل غضب فيما بعد على القاضى وحبس أولاده وصادر ضياعهم ثم عفا عنهم وصالحهم على بيع كل ضيعة لهم .

فكانت صدمة بالغة أثرت على القاضى حتى فلج فأقام فى عقر داره عامين لا يتحرك من مكانه . ومات عام ٢٤٠ هجرية .

بنو خاقان

وخاقان بن أحمد غرطوج التركى أحد قواد المعتصم . ومن أولاده يحيى والد عبيدالله وزير المتوكل والمستعين والمعتمد ، والفتح ربيب المعتصم ووزير المتوكل ونجيه ، وقد قتل معه .

وقد وزر عبيدالله بن يحيى للمتوكل عام ٢٣٧ ﻫ خلفاً لمحمد بن الفضل الجرجرائى الذى عزله المتوكل .

وانفرد عبيد الله بديوانى الخراج والضياع وعزل فى أيام المنتصر ثم وزر أياماً للمستعين ثم عزل وطورد ومنع من الحج .

فانزوى بين العيون والأرصاد إلى أن استوزره المعتمد . وتوفى وهو بالوزارة عام ٢٦٣ ﻫ أثر صدمة خادم له وهو على دابته فسقط فى الميدان والدم يسيل منه ومات بعد ساعات من الصدمة .

أما عمه الفتح فكان من حاشية المعتصم من صغره .

الفتح بن خاقان

دخل المعتصم يوماً إلى خاقان يعوده فرأى الفتح ابنه وهو صبى لم يطر شاربه فمازحه ثم قال له أيما أحسن ، دارى أم داركم ؟ فقال الفتح ياسيدى دارنا إذا كنت فيها أحسن ! فقال المعتصم لا أبرح والله حتى أنثر عليه مائة ألف درهم !!.. وجعله ضمن حاشيته . وكذلك أبقاه الواثق من بعده .

وكان الفتح أديباً فاضلا زكى النفس حسن العشرة لطيف الأخلاق متودداً إلى كل من يكلمه ، كريماً جواداً .

كانت له خزانة كتب جمعها له على بن يحيى المنجم زخرت بشتى الفنون والآداب ويقول أبو هفّان « ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم من الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحق القاضى .

وكانت داره محجة لفصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين وآهلة بالشعراء والأدباء من مختلف الأقطار والأمصار .

اتخذه المتوكل أخاً وكان يقدمه على جميع أولاده ، وأنس به فكان رفيقه أينما سار . وإذا أراد المتوكل القيام لحاجة لبث الفتح وأخرج كتاباً من كمه يقرأه فى المجلس ويناظر الحاضرين إلى حين عودة المتوكل .

حدث البحترى « كنا فى مجلس المتوكل ومعنا الفتح بن خاقان وطرب المتوكل بالفتح ودخل عليه من السرور ما حمله على القيام إلى الفتح فوقع عليه يقبله ووثب الفتح فقبل رجله فالتفت المتوكل إلىّ (البحترى) وقال قل فىّ وفى الفتح شعراً فإنى أحب أن يحيا معى ولا أفقده فيذهب عيشى ، ولا يفقدنى فيذلّ . . فقل فى هذا المعنى .

فقلت أبياتى :

سيدى ، أنت ، كيف أخلفت وعدى وتثاقلت عن وفاء بعهـــدى

وذكرت فيها :

لا أرتنى الأيام فقدك يا فتـ ـح ، ولا عرفتك ما عشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدّم قبلى ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حسداً أن تكون إلفاً لغيرى إذ تفرّدت بالهوى قبلُ وحدى

فقال المتوكل أحسنت والله يا أبا عبادة وجئت بما فى نفسى . وأمر لى بألف دينار .

وفى رواية أخرى أن البحترى زاد فقال وكنت عملتُ هذه الأبيات فى غلام كنت أكلف به ، فلما أمرنى المتوكل بما أمر تنحيت فقلت الأبيات ، وأريته أننى عملتها فى وقتى وما غيرت فيها إلا لفظة واحدة فإننى كنت قلت : لا أرتنى الأيام فقدك (ما عشت) فجعلته (يا فتح . . ! !) .

وأضاف البحترى « وقد قتلا معاً ، وكنت حاضراً وربحت هذه الضربة .. » وأومأ إلى ضربة فى ظهره .

وكان الفتح ينوب عن المتوكل فى تصريف مهام الدولة وشئونها ويقضى فيها ببصيرة نافذة وعقل راجح . أوفده فى ثورة بنى تغلب فأخمدها وعقد الصلح بينهم على رضاء ووفاق .

ورثته إحدى جواريه :

قد قلت الموت حين نازله والموت مقدامة على البُهم (١)
لو تبيّنت ما فعلت ، إذن قرعت سنًّا عليه من ندم
فاذهب بمن شئت إذ ذهبت به ما بعد فتح للموت من ألم ! !

* * *

وأخو الفتح مزاحم بن خاقان عاش بعده متصلاً بنصراء المتوكل وأولاده إلى أن ولاه المعتز على صلاة مصر بعد عزل يزيد بن عبدالله . فأخذ فى « إظهار الناموس و إقماع أهل الفساد » وحاول جماعة الخروج عليه ففشلوا . وبدأ بمنع النساء من الخروج من بيوتهن إلى الحمامات والمقابر ، وسجن المؤنثين والنوائح ومنع المصلين من الجهر بالبسملة وأمرهم بمساواة الصفوف ، ورفع المساند التى يسند إليها فى الحِلَق بالجوامع ووكّل بالمراقبة رجلاً يقوم بالسوط من مؤخرة المسجد . وعاقب من يصيح أو يشق ثوباً أو يسوّد وجهه على ميت . وظل على هذا الضغط حتى مات بعد سنتين من حكمه .

آل وهب

ينتهى نسبهم إلى قيس بن قبال كاتب يزيد بن أبى سفيان . ووهب كان كاتباً لجعفر ابن يحيى البرمكى ثم صار بعده فى جملة ذى الرياستين الفضل بن سهل ، ثم استكتبه بعد مقتله أخوه الحسن بن سهل ، وقلده كرمان وفارس فأصلح حالها . ثم وجه به إلى المأمون برسالة من (فم الصِّلح) فغرق فى طريقه إلى بغداد . وولداه هما سليمان والحسن .

---

(١) جمع بهمة — الشجاع .

ولد سليمان فى أواخر عهد الأمين وكتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة ثم لأيتاخ وأشناس من موالى المعتصم . وتنقل فى دواوين الخلفاء إلى أن ولى الوزارة للمهتدى بالله . ثم المعتمد على الله . وتوفى مقبوضاً عليه فى خلافة المعتمد بأمر الموفق سنة اثنتين وسبعين ومائتين .

وولده الحسن كان يكتب للوزير محمد بن عبد الملك الزيات وكان شاعراً بليغاً وكاتباً فصيحاً . وهو الذى ولى أبا تمام بريد الموصل . ومات فى أواخر أيام المتوكل بالشام وهو يتقلد البريد بنواحيها .

ومن أولادهما عبيد الله بن سليمان فالقاسم ابن عبيد الله والثانى كان وزير المعتضد وقد عرف بالصرامة والبطش والقسوة ويقال إنه هو الذى دس السم للشاعر العظيم (ابن الرومى) وأماته .

وقد مدح آل وهب وبالأخص (سليمان والحسن) شعراء كثيرون وفى مقدمتهم أبو تمام والبحترى . وكانت دارهم ندياً لكبار رجال الدولة من الساسة والرؤساء والأدباء والعلماء .

ومن مدح أبى تمام فيهما قوله :

كل شعب كنتم به آل وهب	فهو شعبى ، وشعب كل أديب
إن قلبى لكم لكالكبد الحرّ	ى ، وقلبى لغيركم كالقلوب

ومن قوله فى الحسن :

صدفت عنه ولم تصدف مودته	عنى ، وعاوده ظنى فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريّقه	وإن ترحّلت عنه لجّ فى الطلب
كأنما هو من أخلاقه أبداً	وإن ثوى وحده فى جحفل لجب
لما رأى أدباً فى غير ذى كرم	قد ضاع ، أو كرماً فى غير ذى أدب
سما إلى السورة العلياء فاجتمعا	فى فعلة ، كاجتماع النور والعشب

آل مخلد بن مصعب

أصلهم نصارى من فارس وأسلموا .

عاشوا بالعراق يتزعمون الثورات ويدبرون المؤامرات لفريق من الموالى ضد فريق وانتهت حياتهم بالحبس والتعذيب .

منهم الحسن بن مخلد وكان على ديوان الضياع فى عهد المتوكل عام ٢٤٣ ﻫ ثم انقطع للوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان . وقام باسم المستعين بشراء جميع الدور والقصور التى كانت ملك المعتز والمؤيد

واتهم بالخيانة والفتنة مع بعض الكتاب فى أيام المهتدى بالله فحبس واضطهد وتدخل المهتدى فى أمره فأفرج عنه .

ووزر للمعتمد بعد وفاة عبيد الله بن يحيى فلم يطمئن إليه أضداده من الموالى فأقصوه وأحلوا مكانه سليمان بن وهب .

وغضب المعتمد على سليمان بن وهب فحبسه وقيده وصادر أملاكه وأملاك بنيه عبد الله ووهب وإبراهيم وأعاد الحسن بن مخلد إلى الوزارة . فتدخل الموفق (أخو المعتمد) ولى العهد فأطلق سليمان بن وهب وهرب الحسن بن مخلد . ولم يكد يغيب الموفق فى محاربة صاحب الزنج حتى عمد المعتمد ثانية لمطاردة سليمان بن وهب واحلال ابن مخلد . ثم صولح آل وهب على تسعمائة ألف دينار دفعوها كاملة .

واستكتب الموفق صاعد بن مخلد (أخا الحسن) وأطلقه جاسوساً على المعتمد فى غيبته فراح يراقبه ويتصيد أخباره .

فلما اجتاز المعتمد سامرا فى محاولته الهرب إلى مصر سارع صاعد بالحيلولة دون مروره وحاشيته فأعيدوا .

وعقد لصاعد على أعمال الفرات وطساسيج حلوان وماسبذان وما جاورها .

واشترك مع الموفق فى القضاء على ثورة الزنج ومحاربة عمرو بن الليث (الصفار) بفارس . وأمر الموفق جميع القواد أن يستقبلوه عند دخوله واسط قادماً من فارس . وسمى بعدها بذى الوزارتين .

ولم يمض وقت طويل حتى قبض الموفق على صاعد بن مخلد وأخيه عبدون وابنيه العلاء وأبى صالح فى يوم واحد ونهب منازلهم وضياعهم .

وسمع أبو العباس أحمد بن بسطام يحدّث أبا الطيّب أحمد بن علىّ قال : لما سخط الموفق على صاعد وكل به من يطالبه وأقرّنى والطائىّ على ما كنا نتقلّده له . وكان صاعد محسناً إلينا ، جميل العشرة لنا ، فلم نترك شيئاً نصل إليه مما خفف عنه إلا بلغناه . وكانت بينى وبين الطائى إحنة . فدعانى الموفّق فى يوم من الأيام ، ونحن بواسط وقد أدرك صاعداً الإعياء والجهد، واستنزل من كلف بالمصادرة جميع ما وصل إليه منه . فقال لى : ادخل إلى صاعد فقل له أظنّك أرضيتَ المستخرج حتى فتَر فى مطالبتك ، وتالله لئن لم تخرج محتجبك لأتولّينّ تعذيبك بنفسى . فدخلت إليه وأدّيت الرسالة . فقال لى : يا أحمد والله ما بقىَ لى شئ وما ملكت قطّ ما هو أحبّ إلىّ من نفسى ، فقل له : يا سيدى والله ما أملك على الأرض ولا فيها ديناراً ولا درهماً ولا جوهراً ، وأنت أولى بالتطول على خادمك . فانصرفت من عنده وأنا أخاف أن يغريَه ذلك الجوابُ . ودخلت إليه ، وقلت له : يقول لك يا سيدى ما أملك على وجه الأرض ولا بطنها غير مائة ألف دينار عند الطائىّ . فأمر بإحضاره . فلما مثل بين يديه قال له : المائة الألف الدينار التى لصاعد عندك ، قد بعث إلىّ يحلف أنه لا يملك غيرها . فقال له : هى بمدينة السلام ، فيُنظِرُنى الأمير مسافة الطريق ، وأنا أستسلف له ما تيسّر منها من التجّار ها هنا . فقال له : اكتُبْ خطَّك بها . فكتبه وسلمه إلى الموفّق ، فسلّمه إلى غلام من خاصّته ، وانصرف الطائى

فاستقبحتُ ما صدر منّى فيه ، وعظُم فى نفسى لتصديقه صاحبه وترك معارضته بما يدفع به المرء عن نفسه ، فدنوتُ من الموفّق ، وقلت له : أيّها الأمير ، جميع ما أدّيته إليك عن صاعد منى تقوّلتُه ، وقد قبح فى عينى ، وسيدى الأمير مخيّر بين الصفح عنه والعقوبة عليه . فقال أحسنت ، بارك الله عليك . ثم أمر بردّ الطائىّ فقال لِمَ لمْ تفض إلىّ بذكر هذا المال ؟ فقال أيّها الأمير ، يمنعنى ذلك ما تولاّه من اصطناعى فقال له لا يقنعنى إلاّ أن تحلفَ برأسى على هذا المال ، وفى أى وقت دفعه إليك . فقال : يعفينى الأمير من ذلك . فقال : والله لو فعلتُ فقال وحقّ رأس الأمير

ماله عندى درهم واحد فضلاً عنه ، ولكنِّى رأيت قد عاذ بالدعوى علىَّ وتيقنت أنه لم يبق له حيلة فى المدافعة عن نفسه ، فعملت على تحمّل هذا المال ، ووالله ما أملِكُهُ ، ورجوت أن أصل إليه بجاهى ولطيف حيلتى .

فاستحضر الموفّق الخط ودفعه إلى الطائىّ فقال له خَرِّقه . ثم تقدم باعفاء صاعد من المطالبة .

آل المدبر

للجاحظ كتاب أفرده لآل المدبر ، وأشهرهم إبراهيم وأخوه أحمد. وكانا من جلة الكتاب وأفاضلهم وكرامهم . أصلهم من ميسان وهى كورة بين واسط والبصرة ويدعون أنهم من قبيلة ضبة .

وكان إبراهيم شاعراً كاتباً متقدماً ، من وجوه كتاب أهل العراق والمتصرفين فى كبار الأعمال ومذكور الولايات . قدمه المتوكل وآثره وفضله . ونكبه عبيد الله بن خاقان وحبسه ثم أطلقه . حارب فى معركة الزنج وأصيب فى جبهته ووقع فى أسر صاحب الزنج ثم هرب .

وزر للمعتمد لما خرج من سامرّا يريد مصر . ومات فى سنة تسع وسبعين ومائتين وهو يتقلد للمعتضد ديوان الضياع ببغداد .

وهو من المعجبين بأدب الجاحظ والمتأثرين به .

قال العطوىّ الشاعر : أتيت إبراهيم بن المدبر ، فاستأذنت عليه فلم يأذن لى حاجبه فأخذت ورقة وكتبت فيها :

أتيتك مشتاقاً فلم أر جالساً ... ولا ناظراً إلا بوجه قطوب
كأنى غريم مقتض أو كأننى ... نهوض حبيب أو حضور رقيب !!

واحتلت على الحاجب حتى أوصل الورقة إليه، فلما قرأها قال له ويحك ، أدخل هذا الرجل . فدخلت وأكرمنى وقضى حوائجى .

وأخوه أحمد بن المدبر ولى خراج فلسطين أيام المهتدى بالله . وكان له سبعة ندماء قد اصطفاهم لعشرته ، كل رجل منهم ينفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره ! !

بنو ثوابة

أصلهم نصارى ، وأبرزهم أحمد بن محمد بن ثوابة وأبو العباس الكاتب وأخوه جعفر بن محمد الذى تولى ديوان الرسائل فى أيام الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب وكان مترسلاً بليغاً . ومنهم أبو الحسين محمد بن جعفر وابنه أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن جعفر وهو آخر من بقى منهم .

وأمهم لبابة وقد ذكر اسمها فى قصائد من هجاهم من الشعراء .

ولأبى العباس ابن اسمه محمد بن أحمد استكتبه ميمون بن هارون (بايكباك التركى) فلما أغرى المهتدى بالرافضة وشهدت الجماعة عليه قال المهتدى لبايكباك كاتبك والله أيضاً رافضى فأجابه ليس كاتبى كما تقولون ، كاتبى خيِّر فاضل يصلى ويصوم وينصحنى ، ونجانى من الموت ، لا أصدق قولكم عليه . فغضب المهتدى وردد الأيمان على صحة القول فى ابن أبى ثوابة وهو يقول لا ، لا .

فلما انصرف القوم من حضرة المهتدى أسمعهم بايكباك وشتمهم ونسبهم إلى أخذ الرشى والمصانعات ، وأغلظ لهم وأمر ببعضهم فنيل بمكروه إلى أن تخلصوا من يده . واستتر ابن ثوابة .

وقلد المهتدى كتابة بايكباك سهل بن عبد الكريم الأحول . ولم يزل بايكباك فى سعيه لدى المهتدى وموسى بن بغا حتى عفا عنه قائلاً لم يكن ما فعلته بابن ثوابة لشىء كان فى نفسى عليه يخصنى لكن غضباً لله تعالى والدين ، فإن كان قد نزع عما أنكر منه وأظهر تورعاً فإنى قد رضيت عنه .

وخلع عليه أربع خلع وقلده سيفاً وعاد إلى كتابة بايكباك من جديد .

وكانت بين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير وبين أبى العباس أحمد بن محمد ابن ثوابة وحشة شديدة لأسباب منها أشياء جرت فى مجلس صاعد فى آخر أيامه

ثم توالت الأيام وولى أبو الصقر الوزارة فدخل إليه ابن ثوابة بواسط فوقف بين يديه ثم قال: أيها الوزير لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين فقال له أبو الصقر لا تثريب عليكم يا أبا العباس ثم رفع مجلسه وقلده طساسيج[1] (بابلَ وسورا وبرَبْسما) فضاعف وزاد فى الدعاء له. فما زال والياً عليها إلى أن صرفه عبيد الله بن سليمان بن وهب عنها بأبى الحسن بن مُخَلَّد. وحدث جحظة فى أماليه قال: حضرت مجلس أبى العباس ثعلب، وعنده جماعة من أصحابه وحضر أحمد بن علىّ المادرائىّ (الكاتب الأعورَ الكردىّ) صديق المبرّد فسأله ثعلب عن أبى العباس ابن ثوابة وقال له متى عهدك به فقال لا عهدَ ولا عقدَ ولا وفاقَ ولا ميثاقَ فقال له ثعلب عهدى بك إذا غضبت هجوتَ، فهل من شىء فأنشد:

بنى ثوابة أنتم أثقل الأمم   جمعتمُ ثقل الأوزار والتُّخَم
أهاض حين أراكم من بَشامتكم   على القلوب، وإن لم أوتَ من بَشَم
كم قائلٍ حين غاظته كتابتكم   لو شئت يارب ماعلّمت بالقلم

فقال ثعلب أحسنت والله فى شعرك وأسأت إلى القوم.

واشتد المادرانى فى هجائهم فنظم القصيدة التى أولها:

تعست أبا الفضل الكتابهْ   من أجل مقت بنى ثوابه
وسألتُ أهلَ المهتد   ـين من الخطابةِ والكتابه
عن عادل فى حكمه   فعليكَ أجمعت العصابه
فاسمع فقد ميزتُهم   ولكلهم طرزٌ وبابه
أما الكبير فمن جلا   لته يقال له (لبابه)
وإذا خلا فممدّد   فى البيت قد شالوا كِعابه
وارفضّ عنه زهوُهُ   وتقشعت تلك المهابه

وسلط ابن الرومى للرد عليه فأجابه:

أنى هجوت بنى ثوابه   يا صاحب العين المصابه
أهل السماحة والرجا   حة والأصالة واللبابه

(١) الطسوج — الناحية

القائلين الفاعلـ ـين أولى الرياسة والنقابه
والفارعين المجد والـ ـبانين فوقهم قبابه
نجب تلوح إذا بدوا بوجوههم عزر العجابه
كم عائذ من دهره بهم ، إذا ما الدهر رابه
خذ فى النوائب منهمُ حبلاً ، ولا تخف انقضابه
واخصص أبا العباس بحـ ـر الجود حماًّلا ثوابه

والقصيدة طويلة لمن يشاء أن يرجع إليها فى ديوان ابن الرومى .

وفى رواية أن بعض جلسائه أشار على ابن ثوابة أن يضيف إلى فصاحته و براعته معرفة البرهان القياسى وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء بقراءة فلسفة أقليدس فرغب فى ذلك فأرسل إليه راهباً متزملاً . فلما بدأ فى شرح الذرّة كشىء لاجزء له أنكره وطرد الراهب لوقته من مجلسه . وهذه الرواية مسجلة فى كتابين مسهبين تبودلا بين الصديق وابن ثوابة .

ومات أبو العباس فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين هجرية .

*
* *

ومن الوزراء والكتاب عدا من ذكرنا من لم يشتهر إلا بحكم وظيفته وصلتها بأعمال الدولة ، ولم يأت اسمه إلا مقروناً بالعهد والحوادث التى وقعت فيه . فمنهم أحمد ابن الخصيب . وأبوه الخصيب كان والى مصر فى زمن الرشيد والأمين . واستكتب المنتصر ابنه أحمد واستوزره فى خلافته ثم استكتبه المستعين من بعده .

واستوزر المستعين أتامش التركى واستكتب معه شجاعاً . وقد قتلهما موالى الأتراك فى الاضطرابات الداخلية . وأعقبه أبو صالح بن يزدان فغضب عليه الموالى فهرب . وقام مكانه محمد بن الفضل الجرجرائى .

واستوزر المعتز كاتبه أحمد بن إسرائيل فاتهم بالخيانة مع الحسن بن مخلد وحاول المعتز استخلاصه فلم يستطع . وقتل فى أيام المهتدى بالله . ووزر للمهتدى عبيد الله ابن يحيى بن خاقان والحسن بن مخلد .

وفى عهد المعتمد أسندت الوزارة إلى الحسن بن مخلد وسليمان بن وهب وصاعد

ابن مخلد و إسماعيل بن بلبل المعروف بأبى الصقر وعبيد الله بن سليمان بن وهب .

وكان أبو الصقر كاتباً لديوان الرسائل فلما صاهر الموفق و بنى بابنته رفعه للوزارة فأصبح صاحب الكلمة يتصرف فى أموال بيت المال دون رقيب فلما أحس بنفادها عمل على مطالبة أرباب الضياع بخراج سنة مبهمة فمن لم يقم بالدفع حبسه وعذبه .

ومرض الموفق مرضه الذى مات فيه ، ونهض أنصار ابنه العباس (المعتضد) فى فرصة المرض ففكوا اعتقاله وهرب أبو الصقر واختفى .

و بويع للمعتضد بولاية العهد بعد زوال دولة الموفق . فأخذ رجاله بنهب دور أبى الصقر وضياعه والتفتيش عليه فظفروا به وقبضوا على كاتبه (جرادة) وطاردوا من بقى من أنصاره كبنى الفرات واعتقلوا منهم أحمد بن محمد بن الفرات وكان على ديوان (السواد) وحبسوهم جميعاً فى المطبق .

ومن الكتاب الآخرين ، أبو نوح عيسى بن إبراهيم وكان نصرانياً ، كتب للفتح بن خاقان واتهم بالخيانة مع أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد فى عهد المعتز وقتل هو والثانى فى أيام المهتدى بالله (محمد بن الواثق) .

ومنهم (وكيل بن يعقوب النصرانى) كاتب بغا الصغير وولى ضياع العباس ابن المستعين .

ومنهم أحمد بن صالح كاتب وصيف التركى .

وعلى بن الحسين الأسكافى كاتب بغا الكبير (أحد قواد جيوش الأتراك) واشترك مع أحمد بن الخصيب فى أخذ البيعة للمستعين .

وكان يكتب لآل طاهر محمد بن عيسى .

ومحمد بن الحسين بن الفياض كاتب إسحاق بن كنداج (أحد قواد جيوش الأتراك فى عهد المهتدى بالله) وتولى أعمال الخراج بفارس عام ٢٥٨ هجرية .

وممن يجمل التنويه عنهم فى هـذا الفصل أحمد بن محمد أبى الوزير وقد ولاه ابن طولون فى أول عهده بمصر أمر الخراج ومثل أبى على الحسين بن أحمد الماذرائى الذى اشترك فى تدبير دولة ابن طولون وكان من حزبه وكافأه بتعيينه معه وهو من قرية ما ذرايا بالقرب من البصرة .

وغير هؤلاء نذكر أبا العباس أحمد بن محمد بن بسطام أحد رجال الموفق وقد تولى ضمان الخراج فى الدولة الطولونية ، وغيره محمد بن أبى الساج ، ولى إمرة الأهواز وحارب من قبل الخليفة المعتمد سنة ٢٦١ ه صاحب الزنج . وقد رغب فى ضم الشام إلى ملك بنى العباس عقب وفاة ابن طولون فلم ينجح ، وكان متفقاً مع القائد إسحاق ابن كنداج ، الا أنه انشق عليه وخرج على الخليفة العباسى ودعا لخمارويه وهادنه . ثم هرب من خمارويه بعد معارك جرت بينهما وعاد الى العراق فأكرمه الموفق وخلع عليه وقبل توبته وأخرجه معه لمحاربة الخارجين من أهل الجبل .

يد النعماء

*قال البحترى يمدح الفتح بن خاقان وولده أبا الفتح :

مثالُكَ من طيفِ الخيالِ المُعَاوِدِ ... ألَمَّ بنا من أُفقِهِ المتباعد
يحبِّى هجوداً منتشين من الكرى ... وما نَفْعُ إهداء السلام لهاجد !!
إذا هى مالت لِلعناق تعطَّفتْ ... تَعَطفَ أُملودٍ من البان مائد
إذا وَصَلَتْنا لم تَصِلْ عن تعمُّد ... وإن هَجَرَتْ أبدت لنا هَجْرَ عامد
تقلّبَ قلباً ما يلين إلى الصبا ... ومنزور دمع عن جوى الحب جامد
تمادى بها وجدى ، ومالك وصلها ... خلىُّ الحشا فى وصلِها جدّ زاهد !!
وما الناسُ إلا واجدٌ غير مالك ... لما يبتغى ، أو مالك غير واجد !!
سقى الغيثُ أكنافَ الحمى من مَحِلّةٍ ... إلى الحِفِ من رمل الحمى المتقاود
ولا زال مخضرٌّ من الروض يانعاً ... عليه بمحمرٍّ من النَّوْرِ جاسد
تُذَكِّرُنا رَيّا الأحبة كلما ... تنفَّسَ فى جُنح من الليل بارد
شقائق يحملن الندى فكأنه ... دموعُ التصابى فى خدود الخرائد
ومن لؤلؤ فى الأرجوانِ منظم ... على نُكَتٍ مصفرَّةٍ كالفرائد[1]
كأن جنى الحَوْذانِ فى رونقِ الضحى ... دنانيرُ نُثْر من تُوْأمٍ وفارد[2]
رباعٌ تردَّتْ بالرِّياضِ مجودة ... بكل جديدِ الماء ، عذبِ الموارد
إذا رَاوَحتها مزنةٌ بكَرَتْ لها ... شآبيبُ مجتازٍ عليها وقاصد
كأنَّ يدَ الفتح بن خاقانَ أقبلت ... تليها بتلك البارقات الرواعد
مليًّا إذا ما كان بادئُ نعمة ... بكرٌّ العطايا الباديات العوائد
رأيتُ الندى أمسى حميّاً مناسباً ... لأخلاقهِ دون الحليف المعاقد

---

(١) نكت : جمع نكتة وهى النقطة . (٢) الحوذان : نبات طيب الطعم زهره أحمر ضارب الى الصفرة .

تلفّتَ فوق القائمين فطالهم … تشوّفُ بسّامٍ إلى الوفد قاعد
جهير الخطاب يخفضُ القومُ عنده … معاريضَ قولٍ كالرياح الرواكد
يَخُصُّونَ بالتبجيل أطولَهم يداً … وأظهرَهم أُكرومةً فى المشاهد
ولم أر أمثالَ الرجال تفاوتت … إلى الفضلِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحد
ولا عيبَ فى أخلاقه غير أنه … غريبُ الأسى فيها ، قليلُ المساعد
مكارمُ هنَّ الغيظ بات غليلهُ … يضرّم فى صدر الحسود المكايد
ولن تستبينَ الدهرَ موضعَ نعمةٍ … إذا أنت لم تدْلُلْ عليها بحاسد
كفى رأيه الجلّى وألقى سماحُهُ … نفاقاً على علق من الشعر كاسد
وإن مُقامى حيث خيّمتُ محنةٌ … تخبَّرَ عن فهم الكرام الأماجد
وكائن له فى ساحتى من صنيعةٍ … قطعتُ لها عقلَ القوافى الشوارد
وإنىّ لمحقوقٌ بأن لا يطولنى … نداه ، إذا طاولتُه بالقصائد
يحكن له حوكَ البُرُود لزينة … وينظمن عن جدواه نظم القلائد
وحسبُ أخى النعمى جزاء إذا امتطى … سوائرَ من شعر على الدهر خالد
ملكتُ به وُدَّ العِدَى وأجدَّ لى … أواصرَ قُرْبَى فى الرجال الأباعد
جمالُ الليالى فى بقائك ، فليدُمْ … بقاؤك فى عُمْر عليهن زائد
ومُليتَ عيشاً من أبى الفتح إنه … سليلُ العلا والسُّؤدَدِ المترافد
متى ما يَشِدْ مجداً يَشِدْهُ بهمّةٍ … تقيّلَ فيها ماجداً بعد ماجد
وإن يطّلب مَسعاةَ مجدٍ بعيدةٍ … ينَلْها بجَدٍّ أريحىٍّ ووالد
كما مُدّت الكفُّ المضافُ بنانها … إلى عَضُدٍ فى المكرمات وساعد
يسرُّك فى هَدْى إلى الرشد ذاهبٍ … ويرضيك فى همٍّ إلى المجد صاعد
له حركاتٌ مُوجباتٌ بأنه … سيعلو ، وخيمُ المرء أعدلُ شاهدِ
مَواعدُ للأيامِ فيه ، ورغبتى … إلى الله فى إنجاز تلك المواعد
أأجحدُكَ النعماء ، وهى جليلةٌ … وما أنا للبرِّ الخفىّ بجاحد ؟ !
متى ما أُسيّرْ فى البلاد ركائبى … أجدْ سائقى يهوِى إليك وقائدى
وأكرمُ ذُخْرِى حسنُ رأيكَ ، إنهُ … طريفى الذى آوِى إليه وتالدى ! !

ألم ترَ للنوائب كيف تسمو إلى أهلِ النوافلِ والفضُول

وكيف ترُومُ ذا الشرفِ المعلى وتخطو صاحبَ القدرِ الضئيل

وما تنفكُّ أحداث الليالى تميلُ على النباهةِ للخمُولِ

البحترى

الفصل الرابع

قواد الجيش

كانت أغلب الوظائف تسند بالوراثة . فأولاد القضاة يخلفون آباءهم وكذلك أولاد القواد والولاة وسائر الموظفين إلا ما فرضته الخصومة والعداوة من إقصاء .

وكانت طوائف الجند مكونة من :

الشاكرية وهم من أهل فارس .

والأتراك وقد جلبهم المعتصم .

والفراغنة وهم من أهالى تركستان وأفغانستان .

والمغاربة « « مصر وشمال أفريقيا .

وغير هؤلاء فلول العرب فى القبائل المتاخمة .

ولكل طائفة قوادها ورؤساؤها . ومنهم كثيرون اشتركوا فى حرب الروم والقضاء على الفتن والثورات فاتصفوا بالشجاعة والإقدام والبطولة الخارقة .

ومثل هذا الكتاب لن يتسع لذكر المعارك التاريخية المسجلة لكل قائد وطائفته وإنما نأتى بإلمامة يسيرة عن حياة أظهرهم وحياة أولاده بما يقتضيه المقام فى سيرة البحترى .

آل طاهر

وطاهر هو قائد جيش المأمون الذى غلب جيش أخيه الأمين وانتصر عليه فى بغداد . وقد كافأه المأمون بإمارة خراسان فانفرد بها هو و بنوه من بعده . وجده زريق بن ماهان من أهل خراسان . وحكى هرون بن العباس بن المأمون فى تاريخه قال: دخل طاهر يوما على المأمون فى حاجة فقضاها و بكى حتى اغرورقت عيناه بالدموع فقال طاهر : يا أمير المؤمنين لم تبكى،لا أبكى الله عينك ، وقد دانت الدنيا لك و بلغت

الأمانى ؟ فقال أبكى لا عن ذل ولا عن حزن ، ولـكن لا تخلو نفس من شجن .
فاغتم طاهر وقال لحسين الخادم ، وكان يحجب المأمون فى خلواته أريد أن تسأل
أمير المؤمنين عن موجب بكائه عند ما رآنى . وأنقده مائة ألف درهم .

فلما كان المأمون فى بعض خلواته وهو طيب الخاطر قال له حسين الخادم :
يا أمير المؤمنين، لم بكيت لما دخل عليك طاهر ؟ فقال مالك ولهذا ويلك ! قال غمّنى
بكاؤك فقال المأمون هو أمر إن خرج من رأسك أخذته ، فقال الخادم يا سيدى ومتى
أبحت لك سراً ؟ قال إنى ذكرت محمداً أخى وما ناله من الذلة فخنقتنى ، العبرة ولن
يفوت طاهراً منى ما يكره .

فأخبر حسين طاهراً بذلك . فركب طاهر إلى أحمد بن أبى خالد فقال له إن الثناء
منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع فغيبنى عن المأمون فقال سأفعل
فبكر إلىّ غداً .

وركب أحمد إلى المأمون وقال له لم أنم البارحة فقال له ولم ؟ قال لأنك وليت
خراسان غسّان ، وهو ومن معه أكلة رأس ، وأخاف أن يصطلمه مصطلم فقال
المأمون فمن ترى ؟ قال طاهر فقال هو جائع فقال أنا ضامن له ، فدعا به المأمون وعقد
له خراسان من وقته . وأهدى له خادماً كان رباه وأمره سرًا إن رأى ما يريبه من
طاهر أن يسمّه .

فلما تمكن طاهر من الولاية قطع الخطبة وأمسك عن ذكر الخليفة . ووصل الخبر
للمأمون فدعا أحمد بن أبى خالد وقال: اشخص الآن فأت به كما ضمنت، وأكرهه على
المسير فى يومه . ولم يلبث أن وافاه البريد بموته . وقيل إن الخادم سمه فى كامخ .

وكانت وفاته فى سنة ٢٠٧ ﻫ

وكان طاهر شجاعاً أديباً بعين واحدة . وفيه يقول أحد مداحه :

ياذا اليمينين وعين واحدهْ   نقصان عين ، ويمين زائدهْ ! !

*
* *

واستخلف المأمون ولده طلحة على خراسان فكانت ولايته عليها تقرب من سبع
سنوات . وخلفه أخوه أبو العباس عبد الله بن طاهر ، وكان سيداً نبيلاً عالى الهمة

شهماً مولعاً بالآداب ظريفاً جيد الغناء نسب إليـه صاحب الأغانى أصواتاً كثيرة أحسن فيها ونقلها أهل الصنعة عنه . وله شعر جيد ورسائل بليغة .

فمن شعره قوله :

نحن قـوم تذيبنا الأعين النجـ	ـل على أننا نذيب الحديدا
طوع أيدى الظباء تقتـادنا العيـ	ـن ، ونقتـاد بالطعان الأسودا
نملك الصيـد ثم تملـكنا البيـ	ـض المصـونات أعيناً وخـدودا
تتقى سخطنا الأسـود ، ونخشى	سخط الخشف حين يبدى الصدودا
فترانا يوم الـكريهـــة أحرا	راً ، وفى السلم للغوانى عبيدا ! !

وكان المأمون كثير الاعتماد عليه حسن الالتفات إليه . بعث به وهو بالدينور إلى خراسان لمحاربة بابك الخرّمى حين خرج بالخوارج على خراسان فهزمهم . وولى مصر والعراق وخراسان . ومات فى سنة ٢٣٠ هـ فى أيام الواثق .

وترك عبد الله أربعة أولادهم طاهر ومحمد وسليمان وعبيد الله . فكان طاهر خليفة أبيه بخراسان ثم خلفه أخوه محمد أمير الشرطة ببغداد فى زمن المستعين . وقد انضم إلى المستعين فى الفتنة التى نشبت بينه وبين المعتز ثم انضم إلى المعتز على أثر مفاوضات طويلة جرت لحسم الخلاف .

ومن بعده خلفه أخوه عبيد الله وبه انتهت رئاسة آل طاهر وهو آخر من مات منهم رئيساً ، وله من الـكتب المصنفة كتاب الإشارة فى أخبار الشعراء وكتاب رسالة فى السياسة الملوكية وكتاب رسائله لعبد الله بن المعتز ، وكتاب البراعة والفصاحة.

وكان عبد الله مترسلاً شاعراً جيد السبك رقيق الحاشية ومن شعره ما ذكره ابن رشيق فى كتاب العمدة فى باب الاستطراد وهو قوله فى عبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا	وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها	ودع أمرنا إن المهم المقدّم

ولما مات أخوه سليمان بن عبد الله بن طاهر سنة ٢٦٥ هـ وقف عبيد الله على قبره متكئاً على قوسه ، ونظر إلى قبر أهله وأنشد

النفس ترقى بحزن فى تراقيها ودمعة العين تجرى من مآقيها
لبقعة ما رأت عينى كبقلتها ولا ككثرة أحباب ثووا فيها ! !

ومات عبيد الله سنة ثلثمائة ببغداد ودفن بمقابر قريش .

بنو تغلب

و بنو تغلب من قبيلة وائل ، أهل شكيمة وصرامة ، غلبت عليهم الحمية العربية وزعيمهم فى العصر العباسى « مالك بن طوق » صاحب الرحبة وأحد الأشراف والفرسان الأجواد . بنى الرحبة التى على (الفرات) وإليه تنسب . وسبب بنائها أن هرون الرشيد ركب فى حراقة مع ندمائه فى الفرات ، ومعهم مالك بن طوق . فلما قرب من الدواليب قال يا أمير المؤمنين لو خرجت إلى الشط لنجوز هذه الدواليب . قال أحسبك تخاف هذه ! قال الله يكفى أمير المؤمنين كل محذور . قال الرشيد قد تطيرت بقولك . ثم صعد إلى الشط فلما بلغت الحراقة إلى الدواليب دارت دورة ثم انقلبت بما فيها . فتعجب الرشيد من ذلك وسجد شكراً لله تعالى وتصدق بأموال كثيرة . وقال لمالك وجبت علينا حاجة فسل ما تحب قال يعطينى أمير المؤمنين هنا أرضاً أبنيها فتنسب إلىّ . قال قد فعلنا وساعدنا بالأموال والرجال .

فلما عمرها واستوثق أمره فيها وتحول الناس إليها ، أنفذ إليه الخليفة يطلب منه مالاً ، فتعلل ودافع ومانع وتحصن . وجمع الجيوش وطالت الوقائع بينه و بين عسكر الرشيد إلى أن ظفر به قائد جيش الرشيد وحمله مكبلاً .

فمكث فى السجن عشرة أيام . ثم أمر الرشيد بإحضاره فى جمع من الرؤساء وأرباب الدولة . فقبل الأرض ولم ينطق فتعجب الرشيد من صمته وغاظه ذلك ، وأمر بضرب عنقه . و بسط النطع وجرد السيف وقدم مالك . فقال الوزير الفضل ابن الربيع يا مالك تكلم ، فإن أمير المؤمنين يسمع كلامك . فرفع رأسه وقال يا أمير المؤمنين أخرستُ عن الكلام دهشة . وقد أدهشت عن السلام والتحية ، فأما إن يأذن أمير المؤمنين فإنى أقول السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته . الحمد لله

الذى خلق الإنسان من سلالة من طين . يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ، ولم بك شعث الأمة ، وأخمد بك شهاب الباطل وأوضح بك سبل الحق ، إن الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة وتصدع الأفئدة ، وأيم الله ، لقد عظمت الجريمة وانقطعت الحجة ، ولم يبق إلا عفوك وانتقامك . ثم أنشأ يقول بعد ما التفت يميناً وشمالاً :

أرى الموت بين النطع والسيف كامناً … يلاحظنى من حيث ما أتلفتُ (١)
وأكبر ظنى أنك اليوم قاتلى … وأى امرئٍ مما قضى الله يفلتُ
يعزّ على الأوس بن تغلب موقف … يهز علىّ السيف فيه ، وأسكت
وأى امرئٍ يدلى بعذر وحجّةٍ … وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما بىَ من خوفٍ أموت وإننى … لأعلم أن الموت شىء موقت
ولكن خوفى صبية قدْ تركتهم … وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى إليهمُ … وقد خمشوا تلك الوجوه وصوّتوا
فإن عشت ، عاشوا آمنين بغبطة … أذود الردى عنهم ، وإن متُّ مَوَّتوا
فكم قائلٍ لا يبعد الله داره … وآخر جذلان يسرّ ويشمت

فبكى الرشيد وقال لقد سكتّ على همة ، وتكلمت عن علم وحكمة وقد عفوت لك عن الصبوة ، ووهبتك للصبية ، فارجع الى ولدك ولا تعاود . فقال سمعاً وطاعة وانصرف.

وولى الجزيرة فى عهد المأمون والمعتصم وكان حازماً شديداً على بنى قومه فثار عليه فريق منهم فطردهم ثم جاءوا مستغفرين فشفع فيهم الشاعر أبو تمام ، فعفا عنهم . ولم يزل به المتآمرون حتى عزل عن الجزيرة فقال له أبو تمام يمدحه ويخاطب بنى تغلب :

مهلاً بنى غنم بن تغلب إنكم … هَدَفُ الأسنَّةِ والقَنا يتحطَّمُ
المجد أعنقُ والديارُ فسيحةٌ … والعزُّ أقْعَسُ والعديدُ عَرَمْرَمُ
فستذكرون غداً صنائع مالكٍ … إن جل خطب أو تدوفع مغرم
حد القرابة للقرابة فرحة … أعيت عواندها ، وجرح أقدم

(١) فى رواية أن هذه الحادثة جرت بين المعتصم وتميم بن جميل .

ومنها يخاطبهم :

إن تذهبوا عن مالك أو تجهلوا　　نعماه ، فالرحم القريبة تعلم
كانت لكم أخلاقه معسولة　　فتركتموها ، وهى ملح علقم
فقسا لتزدجروا ومن يك حازماً　　فليقس أحياناً على من يرحم
وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم　　إن الدم المعترّ يحرسه الدم
ولقد علمت لدن لججتم أنه　　ما بعد ذاك العرس إلا المأتم

وما برحت الأحقاد كامنة فى بنى تغلب حتى اندلعت فى عهد المتوكل وتحركت الحفائظ فثاروا على بعضهم وتدخل المتوكل فى انتزاعها فتم الصلح بينهم على يديه .

ومن أولاد مالك محمد وأبو أيوب وأبو القاسم .

أبو دلف العجلىّ

قائد عربى ينتهى نسبه إلى عدنان . وكان من أصحاب الأمين. وقدم على المأمون فى سنة أربع عشرة ومائتين وهو شديد الخوف منه فأكرمه ورضى عنه وقربه .

وكان أبو دلف كريماً سريًا جواداً ممدحاً شجاعاً مقداماً ، له وقائع مشهورة وصنائع مأثورة . أخذ عنه الأدباء والفضلاء ، وله صنعة فى الغناء وكتب فى السلاح وسياسة الملوك على ما روى ابن خلّكان .

وفيه قال الشاعر أبو الحسن على بن جبلّة المعروف بالعكوّك الأبيات المشهورة وهى :

إنما الدنيا أبو دلف　　بين مغزاه ومحتضره
فإذا ولّى أبو دلف　　ولت الدنيا على أثره
كل من فى الأرض من عرب　　بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة　　يكتسبها يوم مفتخره

ومن روايات كرمه أن كان لبنى هاشم مولى اسمه أبو عبد الله أحمد بن أبى فتن

صالح وكان أسود مشوه الخلق فقيراً . فقالت له امرأته يا هذا إن الأدب أراه قد سقط نجمه وطاش سهمه ، فاعهد إلى سيفك ورمحك وقوسك وادخل مع الناس فى غزواتهم عسى الله أن ينفلك من الغنيمة شيئاً فأنشد يقول :

مالى ومالك ، قــد كلفتنى شططاً — حمل السلاح وقول الدارعين قف
أمن رجال المنـايا خلتنى رجلاً — أمشى وأصبح مشتاقاً إلى التلف
تمشى المنايا الى غيرى فأكرهـا — فكيف أمشى إليها بارز الكتف
ظننت أن نزال القرن من خلق — وأن قلبى فى جنبى (أبى دلف) !!

فبلغ خبره والأبيات أبا دلف فوجه إليه ألف دينار !!

ومدائحه كثيرة وكان مغالياً فى التشيع ومات فى حكم المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين ببغداد .

ومن أولاده أبو ليلى وعبد العزيز وكانا من القواد المشهورين . ولى الأول أصبهان وولى الثانى الجبل سنة ٢٥٣ هـ وخرج على الطاعة فى حكم المعتز وانهزم فى ثورته فانتقل الى الأهواز وانضم تحت لواء عمرو بن الليث (الصفار) .

آل حُميد

وأبو غانم حُميد بن عبد الحميد الطُّوسى قائد من قواد الرشيد والمأمون . وهو الذى طارد إبراهيم بن المهدى عند خروجه على ابن أخيه المأمون و إعلان الخلافة العربية .

غضب الرشيد عليه فدعا بالنطع والسيف. فبكى حُميد . فقال له الرشيد ما يُبكيك؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت ، لأنه لا بدّ منه ، وإنما بكيتُ أسفاً على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علىّ . فضحك الرشيد وعفا عنه .

ويحكى أن الشاعر أبا الحسن على بن جبلة المعروف بالعكوَّك أتى حُميداً بعد مدحه القائد أبى دلف فقال له حُميد : ما عسى أن تقول فينا وما أبقيت لنا بعد قولك (إنما الدنيا أبو دلف) ؟ فقال أصلح الله الأمير قد قلت فيك ما هو أحسن من هذا فقال ما هو ؟ فأنشد :

إنما الدنيا حُميد   وأياديه الجسام

فإذا ولى حميدٌ   فعلى الدنيا السلام

فابتسم وأحسن جائزته .

وأولاده محمد (أبو نهشل) وأبو مسلم وأبو نصر وهم من قواد الجيش وهؤلاء ماتوا فى ساحات القتال . وأبو سعيد وقد تولى ديوان الرسائل فى خلافة المستعين .

وكان محمد (أبو نهشل) شهماً عظيم النفس كريم الطباع محبًا للفنون والآداب . ومما يحكى عنه . أنه كان يوماً على غدائه مع جلسائه ، إذا بصيحة عظيمة على باب داره . فرفع رأسه وقال لبعض غلمانه : ما هذه الضجة ؟ من كان على الباب فليدخل . فخرج الغلام ثم عاد إليه وقال : إن فلاناً أُخذ وقد أوثق بالحديد والغلمان ينتظرون أمرك فيه . فرفع يده من الطعام فقال رجل من جلسائه : الحمد لله الذى أمكنك من عدوّك ، فسبيله أن تسقى الأرض من دمه ، وأشار كل من جلسائه عليه بقتله على صفة اختارها ، وهو ساكت . ثم قال يا غلام فكّ عنه وَثاقه ويدخل إلينا مكرماً . فأدخل عليه رجل لا دم فيه ، فلما رآه هشّ إليه ورفع مجلسه وأمر بتجديد الطعام ، وبسطه بالكلام ولقّمه حتى انتهى الطعام . ثم أمر له بكسوة حسنة وصلة وأمر برده إلى أهله مكرماً . ولم يعاتبه على جرم ولا جناية . ثم التفت إلى جلسائه وقال لهم : إن أفضل الأصحاب من حضّ الصاحب على المكارم ، ونهاه عن ارتكاب المآثم . وحسّن لصاحبه أن يجازى الإحسان بضعفه ، والإساءة بصفحه ، إنا إذا جازينا من أساء إلينا بمثل ما أساء ، فأين موقع الشكر على النعمة فيما أتيح من الظفر ! إنه ينبغى لمن حضر مجالس الملوك أن يمسك إلا عن قول سديد وأمر رشيد . فإن ذاك أدوم للنعمة وأجمع للألفة ، إن الله تعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم » الآية .

وأخوه أبو سعيد راوية لما يستحسن من الأخبار ويستجاد من الأشعار ، متصرف فى فنون العلم ، ممتع الحديث أنيس المجلس وله أشعار حسان .

وكان يتنصب ويظهر التسنن والتحيل وظهر عنه الانحراف عن آل أبى طالب .

أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى

هو طائىّ من أهل مرو ، ومن قواد حميد الطوسىّ ومن بعده بغا الكبير وكانت له قرابة بالبحترىّ .

واشترك فى حملة المعتصم على الخرّمية (أصحاب التناسخ) يوم وقعة معاوية صاحب خيل بابك الخرمىّ .

ولى الشام فالحجاز وفيها خلف أخاه أحمد بن يوسف وكان متشيعاً للعلويين .

وطارده جنود المستعين فهرب فقبض عليه وسلم إلى كاتب نصرانىّ لسعيد الحاجب وأمر بتعذيبه والغلظة عليه . ثم أفرج عنه وعقد له على أذربيجان وأرمينية ولكنه لم يعش طويلاً فمات فجأة (وقيل مسموماً) وخلفه ابنه يوسف بن محمد فوثب عليه أهل أرمينية فقتلوه بعد أن دافع دفاع الأبطال :

على بن يحيى الأرمنىّ

أحد قواد الدولة العظام . وكان على جند الشاكرية ، مشهوداً له بالجسارة والإقدام .

أحبه الشعب والجند لنفوره من الأتراك والموالى واستنكاره إقدامهم على قتل المتوكل .

ولى مصر مرتين وتولى القيادة بالثغور الشامية وانتقل من الشام إلى ولاية أرمينية ثم عزل . فسار إلى ضياعه بالقرب من ديار بكر وفى طريقه وقع النفير فعاد مسرعاً وقد أغارت جيوش الروم فحمل عليهم وظل يقاتل مستبسلاً إلى أن خرّ صريعاً . وكانت وفاته فى خلافة المستعين عام ٢٤٩هـ

وشغب الجند والشعب لمقتله ولكن سرعان ما أخمدت الفتنة .

بغا الـكبير

تركى من غلمان المعتصم ، كان مؤمناً كثير التعطف والبر للطالبين شهد أعظم الحروب وأحكم صراعها وخرج منها سالماً . ولم يدرع فى قتاله أو يتق بمجن" !!..

وأهم المعارك التاريخية التى اقتحمها كانت فى غزو الروم وعلى يديه كان القضاء على ثورات العرب الداخلية بالمدينة واليمامة والمشرق . توفى سنة ثمان وأربعين ومائتين فى عهد المستعين .

وتقلد ابنه موسى أعماله وضم إليه أصحابه وجعلت له قيادته . واشترك فى النزاع الذى قام بين المستعين والمعتز فكان فى جانب الثانى . وحاول المستعين إرضاءه فأبى .

ولى ديوان البريد والجبل . قاتل عبد العزيز بن أبى دلف بالكرج فهزمه وهزم كثيرين من أهله .

مات موسى عام أربع وستين فى عهد المعتمد .

أحمد بن طولون

وطولون من قبيلة الطفرغر (إحدى القبائل التى تتألف منها تركستان) وكانت عائلته مقيمة بجوار بحيرة لوب فى بخارى الصغرى . وجىء به أسيراً فى إحدى المواقع الحربية فى عهد المأمون . فأعجب المأمون بمنظره وتناسب أعضائه فألحقه بحاشيته ، وما زال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بأمير الستر" .

وولد له أحمد سنة عشرين ومائتين فى عهد المعتصم ، فشب تقياً رضى" الخلق كريم النفس وخلف أباه سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية فى خلافة المتوكل . وتوجه إلى طرسوس لتلقى الدروس بها . فأتقن علم الحديث وغيره من العلوم . وعاد إلى بغداد

فوجد أن الأتراك خلعوا الخليفة المستعين واعتقلوه بواسط و بايعوا المعتز .

وأمره المعتز بقتل المستعين فأبى ، فأرسل المعتز سعيداً الحاجب سراً ، فقتل المستعين . فلما دخل أحمد بن طولون وجده جثة بلا رأس فغسله ودفنه . فأكبر الجميع مروءة بن طولون وعظمت ثقتهم به . ووقع اختيار القائد بايكباك عليه فولاه إمارة مصر نيابة عنه (وكان على خراج مصر فى ذلك الوقت أحمد بن المدبر فسار أحمد بن طولون إلى الفسطاط ودخلها وتلقاه ابن المدبر وحاشيته بهيئة) وعظمت شوكته بمصر والشام بعد مقاتلة ابن شيخ حتى استقل بهما . وله فى مصر مآثر جليلة فابتنى الجوامع وحفر الترع وأقام الحصون وأصلح إصلاحات جمة فى الإدارة والتشريع .

وملك حلب وحماة وهما تابعتان لمقاطعة أنطاكية بعد أن قتل سيما الطويل الذى كان أميراً عليها .

وتقدمت فتوحاته حتى جاءه الخبر بعصيان ابنه عباس بمصر و بخلعه طاعته . وكان قد قارب الرقة فافتتحها وولاها مولاه لؤلؤاً وأضاف إليه حلب وحمص وقنسرين وعاد ابن طولون إلى مصر فى آخر سنة ٢٦٥ ﻫ حيث اعتقل ابنه .

وخرج عليه خادمه لؤلؤ وانضم إلى الموفق وسار إليه وحارب مع صاحب الزنج .

فلما بلغ ذلك ابن طولون تجهز للمسير إلى لؤلؤ فى أنطاكية و بينما هو يحاربها أصيب بمرض عضال اضطره للرجوع إلى مصر فعاد محمولاً فى هودج فوصلها فى آخر سنة ٢٦٩ ﻫ ولبث يعانى برحاء مرضه إلى أن توفى فى شهر ذى القعدة من سنة سبعين ومائتين فى خلافة المعتضد .

٭٭٭

وغير هؤلاء من القواد ورجال الحرب من ورد ذكرهم فى قمع الثورات واشتركوا فى معارك الغزو وصد المعتدين من ممدوحى البحترى ، محمد بن عبدالله القمى . وهو من طبقة الكتاب . وجهه المتوكل عام ٢٤١ ﻫ لمحاربة قبيلة البجة وهم من أجناس الحبش كانوا يقطنون المنطقة الواقعة من غرب السودان إلى جنوب مصر شمالاً . فلما

نقضوا العهد وخرجوا إلى معادن الذهب والجوهر على التخوم فيما بين أرض مصر وبلادهم ، صار إليهم محمد بن عبد الله القمى وحطم حصونهم وقلاعهم وقاتلهم حتى غلبهم وطلبوا منه الأمان فأمنهم .

والقائد الشاه بن ميكال وهو من طائفة الشاكرية وكان من حزب المستعين وناصره ببغداد ، وأبلى بلاء حسناً فى الدفاع عنها أثناء محاصرتها بجنود المعتز ثم انضم إلى لواء المعتز بعد المبايعة .

ومن بعده قام ابنه محمد قائداً لحرس الخليفة المعتمد .

والقائد إسحاق بن كنداج أحد قواد بغا (الكبير) ومن الذين اشتركوا فى منازلة صاحب الزنج ومقاتلته . وهو الذى ردّ المعتمد عند محاولته الهرب إلى مصر فأعاده إلى سامرّا ، وأمسك بالرجال المصاحبين له وأرسلهم إلى بغداد . وكوفئ بتقليده سيفين بحمائل أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وسمى ذا السيفين . وخلع عليه بتاج ووشاحين وشيّعه إلى منزله هارون بن الموفّق وصاعد بن مخلد والقواد وتناولوا الغداء معه .

ثم عقد له على اعمال بن طولون عند خروجه على الخلافة وأضيفت معها ولايات المغرب .

الصنائع والموالى

رأى القارئ فى مصارع الخلفاء وفى صور الشخصيات التى مرت كيف هب الصنائع والموالى متكاتفين للاستحواذ على مرافق الدولة ، وكيف أنهم بعد ذلك غلبتهم الأنانية ومصالحهم الذاتية فضحوا فى سبيلها بكل شىء ، وانقسموا على بعضهم واتخذوا سلاح الفتك ذريعة مشروعة للقضاء على من يقف فى وجوههم . فأصبح الخلفاء مطية ذلولاً لمآربهم ومطالبهم .

والآن نعرض فى خاتمة تواريخ قواد الجيش نبذة مختصرة عن هؤلاء الموالى. وكانوا من أرباب السيوف وحملة الرماح ، واشتركوا فى تصريف الجند فى الداخل وفى الخارج حتى دب الفساد بينهم وصاروا آلات بين أيديهم يسخرونها بالأموال والهبات.

وكانوا يتولون الأعمال والإمارات اسماً بلا رسم لا يبارحون مجاس الخليفة وإنما يوكلون عنهم من يثقون به لتصريف شئونها .

دبر مؤامرة المتوكل خمسة منهم بتشجيع ولده المنتصر وهم باغر ووصيف (الحاجب) وبغا الصغير المعروف بالشرابى وأتامش وموسى بن بغا الكبير وهو ابن خالة المتوكل .

ووزر أتامش للمستعين فضجر الباقى من نفوذه غيرة وحسداً فقتلوه هو وكاتبه شجاع .

وكان لباغر – وهو قاتل المتوكل ورأس المؤامرة – قطائع أقطعها له المنتصر فى خلافته فراح يفاخرهم بها وأوغر صدورهم فتألبوا عليه وقتلوه ، فدب الشقاق بين جنودهم وكانت الثورة بين مؤيدى المستعين والمنادين بخلافة المعتز . وفى ذلك يقول الشاعر :

لعمرى لئن قتلوا باغراً لقد هاج باغر حرباً طحوناً

وبقى وصيف وبغا الشرابى وموسى بن بغا الكبير وانضموا للمستعين فلما بويع للمعتز بالخلافة توسط أخواه المؤيد وأبو أحمد فى العفو عنهم فعفا على مضض .

لم يطمئن المعتز إلى بغا ووصيف فقتلها من وراء ستار . ولكى يظهر بمظهر المنكر للجريمة أقام ولديهما صالح بن وصيف ومحمد بن بغا (المعروف بأبى نصر) فى مكانى أبيهما .

واستأثر صالح بن وصيف بسلطة الخلافة فانتقم لأبيه وقتل المعتز بدعوى طلب الأرزاق للجيش على نحو ما رآه القارئ فى سيرة المعتز .

واستصفى صالح فى عهد المهتدى بالله أموال الكتاب للحصول على الأرزاق وقتل منهم أحمد بن إسرائيل (كاتب المعتز) وأبا نوح عيسى بن إبراهيم (كاتب الفتح ابن خاقان) بعد أن حبسهما مع الحسن بن مخلد (فى عهد المعتز) وعذبهم طويلاً ،

وقد نجا الثالث . وسئل صالح فى عدم قتله : كيف نجا الحسن بن مخلد مما صَلِيَ به صاحباه؟ فقال : بخصلتين إحداهما لصدقه عن الخبر فى أول وهلة و إيجاده الدلائل على ما قاله ، والأخرى أن أمير المؤمنين كلمنى فيه وأعلمنى حرمة أهله به وأومأ إلى محبته لإصلاح شأنه . فرددته .

ولم يطل نفوذ صالح إذ انضم موسى بن بغا إلى القائد التركى « بايكباك » فاتهما المهتدى بمناصرته وقتلاه .

وفى جو هذا الإرهاب المفزع والبطش المريع ، عاش الناس على اختلاف أجناسهم بين متقٍ يتستَّر بالمداراة وآخر يجاهر مع صاحب السلطان ثم يرتد مؤيداً لمن يرتقى مكانه .

صلح بنى تغلب

مُنى النفس فى أسماء لو يستطيعُها ... بها وجدُها من غادةٍ وولوعُها
وقد راعنى منها الصُّدودُ ، وإنما ... تَصُدُّ لِشيبٍ فى عِذارى يروعُها
حملت هواها يوم مُنعرَجِ اللِّوَى ... على كَبَدٍ قد أَوْهَنتها صدوعُها
وكنتُ تبيع الغانيات فإنما ... يذُمُّ وفاء الغانيـات تبيعها
وحسناء لم تحسن صنيعاً ، وربما ... صبوتُ إلى حسناء سَيِّئٍ صنيعها
عجبتُ لها تُبدى القِلَى وأوَدُّها ... وللنفس تَعصينى هوًى وأطيعها
تشكَّى الوَجَى والليلُ مُلتبسُ الدُّجى ... غريرية الإنسان مَرْتٌ بقيعها[1]
ولستُ بزوّارِ الملوكِ على الوَجَى ... لئن لم تُحلّ أغراضُها ونسوعُها
تؤمُّ القصورَ البيضَ من أرضِ بابلٍ ... بحيث تلاقى غربُها وبديعها
إذا أشرف البرجُ المطلُّ رمينَهُ ... بأبصار خُوصٍ قد أرثّت قطوعُها[2]
يضىء لها قصدَ السُّرى لمعانُهُ ... إذا اسودَّ من ظلماء ليـلٍ هزيعها
نزورُ أميرَ المؤمنين ودونَهُ ... سهوبُ البلاد رحبُها ووسيعها
إذا ما هبطنا بلدةً كرَّ أهلُها ... أحاديث إحسانٍ ، نداه يذيعها
حمى حَوْزَةَ الإسلامِ فارتدع العدى ... وقد علموا أن لن يرام منيعها
ولما رعى سِربَ الرعيةِ ذادها ... عن الجدبِ مخضرّ التلاع مريعها
علمتُ يقيناً مذ توكلَ جعفرٌ ... على الله فيها أنه لا يضيعها
جلاَ الشكَّ عن أبصارنا بخلافةٍ ... نفى الظلمَ عنا والظلامَ صديعها

---

(١) الوجى : تعب المسير . والمرت : الأرض الملساء . (٢) أبصار خوص : غور العينين مع الأحداق .

هى الشمسُ أبدى رونقَ الحقِّ نورُها ... وأشرق فى سرِّ القلوبِ طلوعها

أسيتُ لأخوالى ربيعة إذ عفَتْ ... مصايفها منها وأقوَتْ رُبُوعُها

بِكُرهِىَ أن باتت خلاءً ديارُها ... ووحشاً مغانيها وشتّى جميعها

وأمستْ تَسَاقَى الموتَ من بعدما غَدَتْ ... شُرُوباً تساقى الراحَ رفهاً شُروعها

إذا افترقوا عن وقعةٍ جمعتهمُ ... لأُخرَى دماءٌ ما يُطَلُّ نجيعها

تذمُّ الفتاةُ الرُّود شيمةَ بَعلِها ... إذا راح دونَ الثأر وهو ضجيعها

حَميّةُ شَعبٍ جاهليٍّ ، وعِزَّةٌ ... كُلَيبِيَّةٌ أعيا الرجالَ خضوعها

وفرسان هيجاءٍ تجيشُ صدورُها ... بأحقادِها حتى تَضِيقَ درُوعها

تُقتِّلُ من وِترٍ أعزَّ نفوسِها ... عليها ، بأيدٍ ما تكادُ تطيعها

إذا احتَرَبتْ يوماً ففاضَتْ دماؤها ... تذكَّرَتِ القُربى ففاضت دموعها

شَواجِرُ أرماحٍ تقطّعُ بينهم ... شواجِرُ أرحامٍ مَلُومٌ قطوعها

فلولا أميرُ المؤمنين وطَوْلُه ... لعادت جيوبٌ والدماء ردوعها

وَلَاصطَلَمت جُرثومةٌ تغلبيَّةٌ ... به استُبقِيَتْ أغصانُها وفروعها

رفعتَ بضبعى تغلبَ ابنة وائلٍ ... وقد يَئِسَتْ أن يستقلَّ صريعُها

وكنتَ أمينَ اللهِ مولى حياتِها ... ومولاك فتحٌ يومَ ذاك شفيعها

لَعَمرِى لقد شرَّفته بِصَنيعةٍ ... إليهم ، ونُعمَى ظَلَّ فيهم يُشيعُها

تألّفهم من بعد ما شَرَدتْ بهم ... حفائظُ أخلاقٍ بطىءٍ رجوعها

فَأبصر غاويها المحجَّةَ فاهتدى ... وأقصرَ غاليها ودانى شُسُوعها

وأمضى قضاءً بينها فتحاجَزَتْ ... ومخفوضُها راضٍ به ورفيعها

فقد رُكِزَتْ سُمرُ الرماحِ وأُغمِدت ... رقاقُ الظُّبَى مخفوها وصنيعها

فقرّت قلوبٌ كان جمًّا وَجيبُها … ونامت عيُونٌ كان نَزْراً هجوعها

أتتك وقد ثابت إليها حُلومها … وباعدها عما كرِهتَ نُزُوعُها

تعيد وتبدى من ثناء ، كأنه … سَبائبُ روضِ الحزنِ جاد ربيعها

تَصُدُّ حَياء أنْ تراك بأعيُنٍ … أتى الذنبَ عاصيها فَلِيمَ مطيعها

ولا عذرَ الا أنّ حلم حليمها … يُسَفّهُهُ فى شرِّ جَناهُ خليعها

بَقيتَ فكم أبقيْتَ بالعفو مُحْسِناً … على تغلبٍ حتى استمرّ ظليعها

وَمُشفِقةٍ تخشى حِماماً على ابنِهَا … لِأوّلِ هيجاء تلاقى جُمُوعُها

رَبَطْتَ بِصُلح القومِ نافرَ جأشها … فقرّ حَشاها واطمأنّتْ ضُلوعُها ! !

البحترى

أفي كل يوم فرقةٌ من جميعكمْ   تبيد، ودارٌ من مجامعكم تخلو

مصارعُ بغيٍ تابع الظلمُ بينها   بساعة عزٍّ كان آخره الذل

إذا ما التقوا يوم الهياج تحاجزوا   وللموت فيما بينهم قسمةٌ عدل

غدوا عصبتَيْ ورد، سجالُهما الردى   ففي هذه سَجل وفي هذه سجل

البحتري

الفصل الخامس

الثورات والقلاقل الداخلية

ظلت الحروب قائمة بين الدولة العباسية و بين الروم فى مختلف العهود لا تنقطع إلا لهدنة وقتية ثم تندلع من جديد .

وفى داخل الدولة كانت الفتن والمؤامرات تحاك وتدبر للانقضاض عليها و إبادة سلطانها .

فأولاً كانت الثورة الدينية التى يتصدرها العلويين باعتبارهم أقرب الناس لآل بيت الرسول .

وثانياً كانت الثورة الاجتماعية التى أثارها صاحب الزنج فى الجنوب.

وثالثاً كانت الثورة السياسية التى دب دبيبها فى بغداد أثناء نزاع المستعين والمعتز ، ثم ظهور يعقوب بن الليث الصفار وأخيه عمرو فى الشرق فكانا نذيراً بتقوض الدولة العظيمة وتفكك عراها .

ثورة العلويين

ولا شك أن أول صدع صدعت به الدولة العباسية كان فى خروج محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة حيث كان كثير من أهل خراسان يترقب قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط فى مصادره وموارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن صرامة المنصور وشدته وعنفه قضت على محمد بن عبدالله وعلى أخيه إبراهيم الذى ثار بالبصرة .

ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التى أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم أبى بكر وعمر على علىّ بن أبى طالب . واشتدت ريبتهم من بنى عمهم العلويين فضيقوا عليهم وأرصدوا الجواسيس لاستطلاع أخبارهم ومراقبتهم مما زاد الجفوة والنفور وحمل العلويين على التطلع لقلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذى نالهم .

وكان ما كان من استعار البغضاء بين العباسيين و بين العلويين وهى تخمد وتشتعل حتى أعلنها المتوكل حرباً عواناً لا هوادة فيها . وكان إمام العلويين على عهد المتوكل أبو الحسن على الهادى ، وقد سعى به إلى المتوكل فأقدمه إلى المدينة من سامرّا (سرّ من رأى) . وظلت السعايات ضده حتى زعموا أن فى منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته . فوجه إليه المتوكل من هجم عليه وهو غافل ، فوجد فى بيته مقيما على الرمل والحصى عليه مدرعة من شعر وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو يقرأ و يدعو . وحمل إلى المتوكل فى جوف الليل على حالته . فمثل بين يديه والمتوكل يشرب ، فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه .

ثم قال له المتوكل أنشدنى شعراً ، فأنشده :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال ، فما أغنتهمُ القلل
واستنزلوا بعد عزّ عن معاقلهم فأودعوا حفراً ، يا بئسما نزلوا
ناداهمُ صارخ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل ؟
أين الوجوه التى كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل ؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل !!
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين فانتقلوا

وطالما كنزوا الأموال وادخروا   فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة   وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب ، وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ، ورده إلى منزله مكرماً . وظل أبو الحسن مقيماً بسامرا عشرين عاماً .

وفى عهد المستعين خرج فى الكوفة يحيى بن عمر بن يحيى الطالبى المعروف بالطيار، يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه . فكان يرجع دائماً بالفشل . فاستثار جمعاً كثيراً من الأعراب وعسكر بهم فى ضواحى الكوفة .

ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر وجه إليه جيشاً يقاتله فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها وأقام بالكوفة يتأهب بجمع السلاح والمال والرجال ، وكان قد ذاع صيته وبايعه الشعب وبالأخص أهالى بغداد .

ولم يلبث أن تصدى له جيش الحكومة تحت قيادة الحسين بن إبراهيم بن مصعب . فلما وصل إلى ظاهر الكوفة أشار على يحيى جماعة من الزيدية وبعض أصحابه بمعاجلة الحسين والخروج له . فخرج بجنده من وراء الخندق ليلة الأثنين ١٣ رجب سنة ٢٥٠ هـ فهاجمهم الحسين فلم يكن بأسرع أن انهزم جند يحيى . وكان أكثر رجال الكوفة عزلا فداستهم الخيل ولما انكشف العسكر عن يحيى تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبدالله بن طاهر ، فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة فتذمر الناس فرد إلى بغداد لينصب فيها فتظاهر الشعب ثائراً فعدل عن تنصيبه ودفن .

ويقول المسعودى: « كان يحيى ديناً كثير التعطف والمعروف على عوام الناس باراً بخواصهم ، واصلاً لأهل بيته مؤثراً لهم على نفسه ، لم تظهر له زلة ولا عرفت عنه خزية . فلما قتل جزعت عليه نفوس الناس كثيراً ورثاه القريب والبعيد وحزن عليه الصغير والكبير » .

وأروع ما قيل فى رثائه ، رثاء الشاعر على بن أبى العباس المعروف بابن الرومى فى قصيدته الجيمية التى مطلعها :

أمامك ، فانظر أى نهجيك تنهج — طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهذا الناس طال ضريركم — بآل رسول الله فاخشوا أو ارتجوا

والتى منها :

أيحيى العلا لهفى لذكراك لهفة — يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة — فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة — عليك ، وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى أنت جاره — يرف عليه الأقحوان المفلج
ويا أسفى ألا ترد تحية — سوى أرج من طيب مسك يأرج
ألا إنما ناح الحمائم بعدما — ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج

وهى قصيدة طويلة مؤثرة أملاها الحزن والبكاء .

فتنة بغداد

وهى الفتنة التى شبت بين أنصار المستعين ببغداد وأنصار المعتز بسامرا سنة إحدى وخمسين ومائتين ولبثت سنة كاملة كان قطبها الدائر محمد بن عبد الله بن طاهر الذى كان من حزب الفريق الأول فلما أخذت أمور المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة عامة اتفق ابن طاهر مع أبى أحمد الموفق على خلع المستعين على أن له ولأهله وولده الأمان وكتب له المعتز على نفسه شروطاً بذلك .

بيد أن ابن طاهر والمعتز خذلاه بعد أن خلع المستعين نفسه من الخلافة . فأحدر إلى دار الحسن بن وهب ببغداد ثم حمل من بعدها إلى حيث لاقى مصرعه .

وأخمدت الفتنة بالحيلة والخداع .

ثورة الزنج

وهى الثورة التى قام بها عبد الله بن محمد مدعياً أنه من العلويين وأصله من عبد القيس من ربيعة . ورد البحرين سنة ٢٤٩ وادعى أنه عباسى ودعا الناس إلى طاعته للخلاص من حكم الدولة الاستبدادى والتحرر من سلطان الفرد والقضاء على سيطرة الأتراك والموالى .

وقد تبعه كثيرون ، فانتقل بهم إلى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبى وجبوا له الخراج وبرز منهم مولى أسود لبنى حنظله يقال له سليمان بن جامع فولاه قيادة جيشه . ومضى محمد بن عبد الله مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولاً يستميل إليه الناس سراً حتى إذا ما نظم جيشه قفل به إلى البصرة فى رمضان سنة ٢٥٥ﻫ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشى . وهناك استعانوا بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحى فى حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثيرو العدد . وقد لاقت الدعوة صدى فى نفوس هؤلاء العبيد الذين كانوا يشتهون الحرية والخلاص من الرق الذى يطوقهم . وبذلك تمكن بن عبد الله من ضمهم إليه واختار منهم غلاماً اسمه ريحان بن صالح قائداً عليهم فقوى جيشه بهم . ولهذا سمى « بصاحب الزنج » وعرفت الثورة بثورة الزنج .

وفى عيد الفطر من سنة ٢٥٥ﻫ صلى بأصحابه صلاة العيد وخطب خطبة بليغة ذكرهم فيها بما كانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استنقذهم به من هذا النير وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم من شئون الدولة كأناس لهم ما لغيرهم من الحقوق فى الحياة ، وناداهم بالجهاد . فساروا إلى البصرة واستولوا عليها وقتلوا من أهلها عدداً

عظيما وخرّبوا أكثر مبانيها ومن ثم سير عسكراً إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر إبراهيم بن المدبر عامل الخراج بها .

وجهز الخليفة جيشاً كبيراً على رأسه أبو أحمد الموفق فوقعت بين الطرفين معارك هائلة استمرت أربعة عشر عاماً انتهت بانهزام الزنج ، وظل صاحبهم يناضل ببطولة نادرة حتى قتل فى أواخر سنة ٢٧٠هـ .

ثورة الشرق

وهناك فى الشرق فى بلاد طبرستان ظهر الحسن وأخوه محمد ولدا الحسن بن زيد الطالبى يدعوان إلى الرضا من آل محمد فغلبا عليها وانضم إليهما الديلم وقامت بينهما وبين جيوش الخلافة حروب كثيرة وقتال شديد لم تنته بانتصار أحدهما .

وفى سجستان قامت دعوة الصفارية التى نادى بها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو وكانا يشتغلان فى حداثتهما بعمل الصُّفر (النحاس) . وكانا يظهران الزهد والورع فصحبا رجلاً من أهالى سجستان كان مشهوراً بالتطوع فى قتال الخوارج واسمه صالح بن النضر الكنانى فأحبهما وحظى بهما حتى جعل يعقوب مقام النائب عنه .

ولما توفى صالح ولى مكانه فى رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وصار قائداً لعسكره .

ولم يكن درهم ضابطاً لأموره على عكس ما كان يعقوب عليه من حزم و بصيرة ، فرأت المطوعة عزل الأول وتولية يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فقهرهم وظفر بهم .

واشتدت شوكته فغلب على سجستان وتخومها وانتصر على جيوشها من الأتراك وغيرهم ثم انتقل إلى بلاد فارس حيث قهر جيوشها سائراً من شيراز إلى نيسابور

(٢٥٥ – ٢٥٩ هـ) حيث ألقى بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مستسلمين فحبس محمد ابن عبدالله بن طاهر وآل بيته .

ولم يعلن ابن الليث أية رغبة فى الاستقلال عن الخلافة العباسية بل كان مطمحه أن يكون أميراً بعهد من خليفة بغداد (المعتز) والحلول محل آل طاهر فى خراسان . فراسل الخليفة حتى استتب له الأمر لإقراره إلا أن الموفق أجاب الرسل بأن الخليفة لا يقره على ما فعل ، وأنه يأمره بالانصراف عن البلاد التى استولى عليها إلى العمل الذى ولاه إياه فى بلاد سجستان و إلا فهو من الخارجين على الدولة .

ولم يعبأ ابن الليث بهذا الرد وسار متقدماً إلى سامرا فحشد له الموفق جيشاً لجباً تحت قيادة المعتمد . . وتقابل الجيشان عند دير العاقول وقامت بينهما معركة دموية كاد يتغلب فيها جيش الصفار لولا تمرد بعض جنده ورفضهم محاربة الخليفة وجهاً لوجه . فانهزم جيشه وعسكر بالأهواز . وفى هذه الهزيمة تمكن محمد بن طاهر من الفرار وقدم إلى الخليفة ببغداد فخلع عليه وأعاد إليه رتبته .

وتوفى يعقوب بن الليث سنة ٢٦٥ هـ وبايع الجند بعده أخاه عمرو بن الليث ، فكان خيراً من أخيه فى حسن التدبير و إحكام السياسة عاملاً على استرضاء الخليفة وحاشيته بإرسال الهدايا والتحف والأموال . فجعله الخليفة والياً على ما كان يليه أخوه من قبله .

ولم يزل عمرو بن الليث بين رضاء الخليفة حيناً وسخطه أحياناً بدوافع الاطمئنان والخوف فى حروب ووقائع إلى أن ولاه الخليفة بلاد ما وراء النهر حيث تصدى له السامانيون من قبائل فارس وكان على رأسهم الأخوان إسماعيل ونصر فقضيا عليه بالسجن الذى توفى فيه أيام المعتضد سنة ٢٨٠ هـ .

وهكذا فشلت هذه الثورات الجامحة و إن كانت حوادثها من العوامل التى عجلت

بتفكك الدولة الفتية التى تعـد من مفاخر الإسلام ، فزالت كما زال غيرها من الأمم والشعوب .

فشلت هذه الثورات إلا مؤامرة واحدة هى مؤامرة ابن طولون بمصر واستقلاله بها ، فإنه أحكم تدبيرها وعاونته الظروف على النجاح والفوز . وقد مرت بنا عرضاً فى سيرته على قدر ما يسعه المقام .

صريع الريح(١)

مع الدهر ظلمٌ ليس يقلعُ راتبُه ... وحكمٌ أبت إلا اعوجاجاً جوانبُه
أبيتُ وَلَيلِي فى « نَصيبين » ساهرٌ ... لهمّ عنانى فى « نصيبين » ناصبه
وإنّ اغترابَ المرء فى غير بُغْيَةٍ ... يطالبُها من حَيْفِ دهرٍ يطالبه
فليس بمعذور إذا ردَّ سِرْبُهُ ... عليه ، بأن تعيا عليه مذاهبه
ويعطيه مرجُوُّ العواقب مسرعاً ... إليه ركوبَ الأمر تُخشى عواقبه
وما خِلتَنى والحادثات من الحَصَى ... أُخيَّب من مالى ، ويَغنَمَ ناهبه
فلو أنه قِرنٌ تَرادَى صفاته ... لأحرزتُ حظى أو كَفِيٌّ أغالبه
أرجّى ، وما نفع الرجاء اذا التقت ... مَنَاحِسُ أمرٍ مُجحِفٍ ومَعاطِبه
ومما يُعَنّى النّفسَ كلَّ عنائها ... توقُّعها الصنعَ البطىء تقاربه
إذا لاقت الضراء طال عذابُها ... كمنتظِر السّراء طال ترَاقبُه
وما ملكٌ يخشى على كسب شاعرٍ ... بمُرْضِيَةٍ عند الملوك مكاسبه
لعلّ وليّ العهدِ يأخُذُ قادرًا ... بحَقّ معنّى مكدياتٌ مطالبه
فإن الذى بين المدائنِ قاطعًا ... الى الصّينِ عَرضاً سَيْبُهُ ومواهِبه
فلا أرضَ إلاّ ما أفاءت رماحُهُ ... ولا غنمَ إلّا ما أفادت مقانبه(٢)
وما كان يدرى صاحبُ الزّنج أنه ... اذا أبطرَتْهُ غفلةُ العَيشِ صاحبه
أقام بجانيه إلى الله حِقبةً ... وكل توَافى للقاء حلائبه
وكان صَريعَ الريح جِبْسٌ مُلعَّنٌ ... متى شاء يوماً قال ماشاء عائبه(٣)
تباعَد من شكل الأنيس بقسوة ... موهّمة أن السباع تناسبه
وما كادت الأيام عمراً بريبة ... ولا الدهر يبلى ما أجدّت عجائبه

---

(١) فى مدح الموفق وذكر انتصاره على صاحب الزنج (٢) المقانب : جمع مقنب ؛ جماعة من الخيل تجمع للغارة (٣) الجبس بكسر الجيم : الجبان اللئيم .

ولم أر كالملعون أثرى ذخيرة … وأبقى دماً ، والحادثات تجاذبه

إذا قلت بيضُ المشرفيّة أهمدَت … حشاشته ، كرّت تثوب نوائبه

يبث المنايا ، والمنايا بحَزنه … ويكمِن منه الحتف ، والحتف كاربه (١)

إذا ازداد شغباً كان والى قِراعِه … مليًّا له بالفضل حين يشاغبه

كما الليلُ إن تَزْدَدْ لعينك ظُلمةً … حَنادِسُهُ ، تزدد ضِياء كواكبه

يلوذ بِهَوْرِ البحر ، فالفوز عنده … من الدهر يومٌ تستقلّ جنائبه

إذا انحازَ ينوِي البعد حَثّت وراءه … عِتاقُ الشذا بالمرهفات تصاقبه (٢)

فإن لم تشفّ العين للعين أكثبت … مسامع مدعوٍّ لداعٍ يجاوبه

إذا ما تلاقوا حضرة الموت لم ترم … كتائبنا حتى تطيح كتائبه

ترى واشجَ الخرصان يهتك بينهم … نحورَ الأسود أو تروّى ثعالبه (٣)

يغالب طعم الماء في ملتقاهمُ … حسى الدم حتى يلفظ الماء شاربه

تنزّى قلوبُ السامعين تطلعًا … إلى خبر مستوقفات ركائبه

كأن الردى يسقى المضلّلَ صرفه … من السيف دين أرهق الوقت واجبه

إذا أتبعَ الرمح المركب رأسه … عليه بآمن ، قلت : إنّ وراكبه (٤)

ولم تلف عُضواً منه إلا ضريبة … لأبيض مأثور تهاب مضاربه

وكان شفاء صلبه لو تألفت … له جثة يرضى بها العين صالبه

تعجّل عنه رأسُهُ ، وتخلفت … لِطِيّتِها أوصالُهُ ومناكبه

فأصبح منصوباً على الناس يفتدى … بآباء من أمسى لينظر ناصبه

---

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض . وكاربه : وقع عليه ، قاربه (٢) تصاقبه : تلاحقه

(٣) الواشج: المشتبك: الخرصان بكسر الخاء وضمها جمع الخرص. وهو حلقة الذهب أو الفضة وغيرهما

(٤) إن وراكبه : عن عبث الوليد هنا بمعنى نعم، «وهي كثيرة في لغة كنانة ومن جاورهم في مكة ونواحيها . وإنما أخذ أبو عبادة هذا المعنى من حديث روى عن ابن الزبير، وذلك أن فضالة بن شريك الأسدي قدم عليه في طلب فلم يسمح به، فقال فضالة: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير! إن وراكبها : أي نعم وراكبها»

يُجَاهِمُ رائيه بأطْرَقِ عابس شهيّ إليهم سخطه وتغاضبه

ينكّب فى إشرافه وهو عاتبٌ كمثل الخليج ازورّ عمن يعاتبه

فلم يبقَ فى الآفاق خالعُ رِبقة من الدين إلا فادحات مصائبه

جبابرة الأرض استكانت لضربة أرت قائمَ النّهجِ الذى ذاق ناكبه

وكان على أشراف كل ثنيّة سَناً فِتنةٍ يدعو الى الغَيّ ناقبه

فعاد بنو العباس عمّ محمـد وشاهد عـزّ الناس فيهم وغائبه

يبيتون ، والسلطان شاكٍ سلاحه بعقوتهم ، والموتُ سودٌ ذوائبه

فياناصر الإسلام ، لو أن ناصراً يرافده فى حفظه وينـاوبه

كَفَيْتَ أمير المؤمنين وقبلها كفيتَ أخاه الصدع يعوز شاعبه

وما زلت مندوباً لرأس ضلالة تناصيه أو منحول ملك تحاربه

أخذت بوِترِ الدين إذ ظفرت به يداك ، فلم يُفْلِتْ عدوٌّ تطالبه

وقد يحْرِمُ الموتورُ إما تعذّرت قواه به ، أو فات فى الأرض هاربه

مشارقُ ملك صحّ بالسيف قطرها فلم يبق إلا أن تصح مغاربه

وإن أبا العباس من تم رأيه ومن شهرت أيامه ومناقبه

يريناك لا نرتاب فيك إذا بدا يؤديك نصحاً تجرُبُه وضرائبه

وقد شحَذَت منه حداثةُ سنّه تجاربُ غطريفٍ حدادٌ مخالبه

إذا المرء لم تُبْدِهْكَ بالحزم والحجا قريحتُه ، لم تغنِ عنك تجاربه

البحترى

خلق العيش فى المشيب ولو كا ن نضيراً ، وفى الشباب جديدُه

ليت أن الأيامَ قام عليهـــــا من إذا ما انقضى زمانٌ يعيده

ولو انَّ البقاء يُختارُ فينا كان ما تهدِمُ الليالى تشيده

لا تنقبْ عن الصبا ، فخليقٌ إنْ طلبناه أن يَعِزَّ وجوده

البحترى

الفصل السادس

الأدب والشعر

تطورت الآداب العربية فى العصر الذهبى — عصر الرشيد والمأمون — فتجردت من خشونة البداوة الجافة ، واكتست طراوة الحضارة الفتية . وتأطّرت فى شياتها الزاهية تختال بربيعها المونق الجميل . وتفنن الأدباء والشعراء فى الأسلوب والتعبير . فبدا فى نثرهم ونظمهم ما قرأناه من الجدة والحداثة . ورأينا طرافة المعنى فيما جاشت به العواطف ، وحلاوة التصوير فيما انطلقت به الأوصاف تمثل الحياة ومظاهرها . بل واستطاعت تومئ إلى أغراضها بالرمز والكناية فى اللفظ الجزل المختار والنبرة الرقيقة التى يترنم بها فى الشدو والغناء .

وتأثرت اللغة فى تطورها بآداب الأمم التى خضعت للفتح العربى فانشقت منها أذواق متباينة الفصول وطبائع متعارضة الميول ، وسجلتها الأضابير والأوراق . واكتظت المكتبة العربية بآلاف الكتب التى احتوت شتى المواضيع والدراسات . ولولا ما أتلفه الأعاجم فى حملاتهم وغاراتهم لكان لدينا الآن شحنة لا تنفد من عبقريات فذة لا نعلم عنها شيئاً .

واعتور عهد البحترى ما اعتوره من أزمات السياسة وتعدد العقائد ، وظل أفق اللغة يشع بما تفيض به القرائح من بقية صالحة انحدرت من دارة الرشيد والمأمون وامتد بها العمر إلى أيام المتوكل كالجاحظ والحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعى وأبى تمام وظهرت فى أثرها جماعة من النحويين والأدباء والشعراء كالمبرد وثعلب والبحترى وابن الرومى وغيرهم فمنهم من احتفى به العهد وعلا قدره ومنهم من عاش غريباً لم يجد المنبت الذى يلائم تربته ويوافق غريزته .

وكان النحو مادة الدراسة الأولى لكل متعلم . فكان الأدباء يتحلقون حلقتين

متعارضتين : الأولى فى مذهب البصريين يتصدرها محمد بن يزيد المعروف بالمبرد وهو صاحب كتاب (الكامل) ونسبه ينتهى إلى ثمالة والأزد . والثانية فى مذهب الكوفيين يتصدرها أحمد بن يحيي أبو العباس ثعلب . وكلاهما كان حجة فى الأدب واللغة عالماً بأصول الفقه . وكانت بينهما منافرات كثيرة أدت إلى عدم اجتماع أحدهما بالآخر . وقد سئل صهر ثعلب أبو عبد الله الدينورى وكان يتردد على المبرد: « لِمَ يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ فقال : لأن المبرد حسن العبارة حلو الأشارة فصيح اللسان ظاهر البيان ، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين . فإذا اجتمعا فى محفل حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن » .

وبلغت الخصومة أشدها حتى قال بعضهم فيها :

كفى حزَنًا أنا جميعاً ببلدةٍ	ويجمعنا فى أرضها شرُّ مشهدِ
وكلٌّ لكلٍّ مخلص الود وامق	ولكنه فى جانبٍ عنه مفردِ
نروح ونغـدو لا تزاور بيننـا	وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننـا فى بلدة ، والتقـاؤنا	عسـير كلقيا ثعلب والمبرد ! !

ولد المبرد بالبصرة عام عشر ومائتين من الهجرة وفى طبقات المفسرين سنة ستة عشرة ومائتين وأخذ عن أبى عمر الجرمىّ وأبى عثمان المازنىّ وقرأ عليهما كتاب سيبويه . ومات سنة خمس وثمانين ومائتين فى خلافة المعتضد ودفن بمقابر الكوفة .

وكان على ماروى الزجاج النحوى « لا يعلّم مجاناً ، ولا يعلّم بأجرة إلا على قدرها» قال الزجاج: « كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو ، فلزمت المبرد لتعلّمه فقال لى: أىّ شىء صناعتك ؟ قلت: أخرط الزجاج ، وكسبى فى كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ فى تعليمى ، وأنا أعطيك كل يوم درهماً ، وأشرط لك أن أعطيك إياه أبداً ، إلى أن يفرّق الموت بيننا ، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه ، قال : فلزمته ، وكنت أخدمه فى أموره مع ذلك وأعطيه الدرهم ، فينصحنى فى العلم ، حتى استقللت » .

وولد ثعلب سنة مائتين ومات سنة إحدى وتسعين ومائتين فى خلافة المكتفى ابن المعتضد . وكان رأى أحد عشرة خليفة أولهم المأمون وآخرهم المكتفى .

وكان لا يتكلف الإعراب فى كلامه ، إذا دخل المجلس فيقومون له فيقول أقعُدُوا ، أقعُدُوا ، بفتح الألف .

وكان بإزاء داره رجل قد غُلب على عقله فكان ربما خرج فجلس على باب بيته ينظر إلى الناس . فرأى يوماً غلام أبى العباس وقد أدخل إلى داره خبزاً أسود فقال له : يا أبا العباس ألا تشترى لك خبز حُوّارى ؟ ما معنى هذا الضيق والشؤم! فقال له : هذا أصلح من الحاجة وبذل الوجه إلى الناس . فضحك وقال : عجبتُ لك من هذا الـكلام ! أما لك هذا إلا من بذل الوجه والحاجه إلى الطلب منهم ؟! لا تقبل برّ أحد إن كنت صادقاً . فالتفت إليه وقال : قد قال قولاً ، ثم أنشدنى فى الزهد :

زماننا صعب وإخواننا ... أيديهمُ جامدة البذل
وقد مضى الناس ولم يبق فى ... عصرك ، إلا محكم البخل
ومالنا بلغـــةُ أقواتنا ... ما فيه للاسراف من فضل
فضمّ كفيك على ملـــكها ... وأطرش السمع عن العذل

ومات وقد خلف إحدى وعشرين ألف درهم ، وألفى دينار ، ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار ردّت كلها إلى ابنته .

ودرس عليهما الزجّاج والأخفش الصغير فسما الأول وصار مؤدباً لأبى القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب واندحر الثانى فمات مخذولاً معدماً .

الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ وينتهى نسبه إلى كنانة. وإنما سمى الجاحظ لجحوظ عينيه وكان قبيح المنظر مشوه الوجه .

والجاحظ غنى عن التعريف ليس فى حاجة إلى تقديم فهو أبلغ كاتب فى العربية بلا نزاع . وإنما جئنا به لما اقتضت الرواية من ذلك فى خصومة بعض من أتينا بهم من ممدوحى الشاعر . ولد سنة خمسين ومائة وكان يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) وسمع من أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأخذ النحو عن

الأخفش الكبير (أبى الحسن) (وكان صديقه) وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد .

ولم يكن أحب إليه من الكتب والعلوم . أكثر من التأليف فى مسائل كثيرة تزيد عن الحصر . ولم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر والكتابة .

وصدّر الجاحظ فى ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ولم يطق البقاء فاستعفى منه ولازم محمد بن عبد الملك الزيات وانحرف عن أحمد بن أبى دؤاد للعداوة التى كانت بينهما . فلما قبض المتوكل على الوزير الزيات هرب الجاحظ ، فقيل له : لم هربت؟ فقال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذهما فى التنور . وجىء بالجاحظ مقيدا إلى ابن أبى دؤاد — بعد مقتل الزيات — فلما نظر إليه قال له : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوى ، وما فتنى باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك . وتغالب طبعك ! فقال الجاحظ : خفض عليك — أيدك الله — فوالله لأن يكون لك الأمر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسىء ، وأن تعفوَ عنى فى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى ، فقال له ابن أبى دؤاد : قبحك الله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية « وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » ؟ قال : تلاوتها تأويلها — أعز الله القاضى ، فقال : جيئوا بحداد ، فقال الجاحظ : أعز الله القاضى ، ليفكّ عنى أو ليزيدنى ؟ فقال : ليفكّ عنك . فجىء بالحداد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، فلطمه الجاحظ وقال اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة! فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة [1] ! فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه . والتفت ابن أبى دؤاد لأحد الحضور وقال : أنا أثق بظرفه ولا أثق

(١) الساجة : تطلق على الخشبة المنحوتة المهيأة

بدينه ثم قال : يا غلام صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى ، واحمل إليه تخت ثياب وطويلة ثيابٍ تشبه العباءة) وخفا . فلبس ذلك ، ثم أتاه فتصدر فى مجلسه فأقبل عليه ابن أبى داؤد وقال هات الآن حديثك يا أبا عثمان ! ! . . .

وذكره الفتح بن خاقان للمتوكل فدعاه لتأديب بعض ولده . فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه .

وكان خفيف الروح ، سريع الخاطر . وله فكاهات تنم عن دقة الملاحظة وصفاء الذهن وطرافة النكتة .

وسئل الجاحظ عن ثروته فتبسم وأجاب: إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها وخادم وحمار . أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد !!

وكان الجاحظ يدين برأى المعتزلة .

وأصيب بالفالج فى شيخوخته . حدث المبرد قال : دخلت على الجاحظ وهو مريض فقلت له : كيف أنت ؟ فقال كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنقرِس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ　　كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب　　دريس ، كالجديد من الثياب

وقال لمتطبب يشكو إليه علته : اصطلحت الاضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلى ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسى .

ونعى إلى المعتز سنة خمس وخمسين ومائتين فالتفت الى يزيد بن محمد المهلبى وكان بجواره وقال له : يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ فقال : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء

على بن سليمان بن الفضل الأخفش

أبو الحسن ، وهو الأخفش الصغير أحد نحاة العناصر قرأ على ثعلب والمبرد وأبي العيناء واليزيدي ... وهو الذي هجاه ابن الرومي وأفحش في هجائه . وكان الأخفش يعلم طيرته وتشاؤمه فكان يباكره قبل كل أحد فيطارق الباب على ابن الرومي فيقول من بالباب فيقول الأخفش (حربُ بنُ مقاتل) وما أشبه ذلك فكان ابن الرومي يهجوه ويتهدده .

ولما سار هجاؤه في الأخفش ، جمع الأخفش جماعة من الرؤساء ، وكان كثير الصديق ، فسألوا ابن الرومي أن يكف عنه فأجابه إلى الصفح عنه . وسألوه أن يمدحه بما يزيل عنه عار هجائه فقال فيه قصيدته التي منها :

ذكر الأخفش القديم فقلنا　　إن للأخفش الحديث لفضلاَ

وحدّث الأخفش قال : استهدى إبراهيم بن المدبّر ، المبّرد جليساً يجمع إلى تأديب ولده ، الاستمتاع بإيناسه ومفاكهته ، فندبني إليه وكتب معي : قد أنفذت إليك — أعزك الله — فلاناً وجملة أمره :

إذا زرت الملوك فإن حسبي　　شفيعاً عندهم أن يَخبُرُوني

وقدم الأخفش هذا مصر في سنة سبع وثمانين ومائتين وخرج منها سنة ثلاثمائة إلى حلب مع عليّ بن أحمد بن بسطام صاحب الخراج فلم يَعُد إلى مصر . وضاقت به الحال في أواخر أيامه وكان مواصل المقام عند أبي علىّ بن مقلة فسأله أن يكلم أبا الحسن عليّ بن عيسى ، وهو يومئذ وزير ، في أمره ، وسأله إجراء رزق عليه في جملة من يرتزق من أمثاله . فخاطبه أبو عليّ وسأل أن يجرى عليه رزقاً في جملة الفقهاء . فانتهره عليّ بن عيسى انتهاراً شديداً وأجابه جواباً غليظاً ، وكان ذلك مجلس حافل ، فشقّ على أبي عليّ ما عامله به الوزير وقام من مجلسه وقد اسودّت الدنيا في عينيه وصار إلى منزله لائماً نفسه على سؤال من ليس أهلاً للسؤال ، وحلف أنه يجرد في السعى عليه . ووقف الأخفش على الصورة ، واغتم وانتهت به الحال إلى أن أكل الشلجم (اللفت) النيئ ، وقيل أنه قبض على قلبه فمات فجأة وكان موته في سنة خمس عشرة وثلاثمائة .

محمد بن بسام

أحد سراة بغداد وعلمائها ، عاش بعيداً عن التحزب غير متشيع لأحد . وكان موسراً حسن الزىّ ينفق عن سعة يخف إلى مجالس المجون والمنادمة . وهو والد الشاعر على بن بسام الذى لم يسلم من لسانه أحد من أهل زمانه حتى إنه هجا أباه . ومن قوله فيه :

هبك عمرت عمر عشرين نسراً ... أترى أننى أموت وتبقى
فلئن عشت بعد يومك يوماً ... لأشقنّ جيب مالك شقاً

وكان يختلف إلى مجلس ولده علىّ وولد عبد الله بن إسحاق إبن إبرهيم أبو الفضل بن محمد اليزيدى من علماء العصر ليقرءوا عليه الأشعار . ومما يروى أنه دخل يوماً أبو الفضل فوجد الستارة مضروبة ومحمد بن بسام وعبد الله بن إسحاق يشربان وأولادهما بين أيديهما ، وكانوا قد تأدبوا وفهموا ، فغنى بشعر جرير :

ألا حىّ الديار بسعدَ إنى ... أحب لحبّ فاطمة الديارا

فقال عبد الله بن إسحاق : لولا جهل العرب ما كان ذكر لسعدَ ههنا ! فقال محمد بن بسام : لا تفعل يا أخى ، فإنه يقوى معدهم ويصلح أسنانهم !! فقال علىّ ابن بسام لأبى الفضل اليزيدى : بالله يا أبا الفضل اصفعهما وابدأ بأبى !!

وإنما أراد الشاعر بسعدَ هنا اسم موضع معروف لقرية وماء ونخل من جانب اليمامة الغربى ، وقصد ابن بسام منافع السعد توضيحاً لمعنى عبد الله بن إسحاق .

والرواية هنا فيهـا التواء ، فهى إن دلت على شىء فإنما تدل على مناظرة المترفين الوادعين أو فراغ الفارغين لا مناظرة الخبراء الباحثين . وقد سقناها فى معرض السيرة ، وكان أولى بنا تركها لولا أن الصلة كانت محكمة بين ابن بسام والبحترى فى أيام احتجابه وانزوائه لدرجة الملازمة ، ولعلها كانت فى فترة يأس وسلوان .

الشعراء

الحسين بن الضحاك

باهلى بصرى المولد والنشأة وأحد ندماء الخلفاء من بنى هاشم ويقال إنه أول من جالس منهم محمدا الأمين . شاعر أديب ظريف حسن التصرف فى الشعر . ولقصائده رونق صاف . وكان يلقب بالخليع والأشقر .

روى عن نفسه فقال : كنت أنا وأبو نواس تربين نشأنا فى مكان واحد وتأدبنا بالبصرة وكنا نجلس مجالس الأدباء متصاحبين ثم خرج قبلى عن البصرة وأقام مدة واتصل بى ما آل إليه أمره وبلغنى إيثار السلطان وخاصته له فخرجت عن البصرة إلى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت فى الشعراء . وهذا كله فى أيام الرشيد .

وسئل عن سنه فقال : إنه يذكر وهو بالبصرة موت شعبة بن الحجاج سنة ستين ومائة .

وكان كثير التعلق بالأمين والموالاة له لكثرة أفضاله عليه وميله إليه وتقديمه إياه وبلغ من جزعه عليه لما قتل أنه خولط فكان ينكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول : إنه مستتر وأنه قد وقف على تفرق دعاته فى الأمصار يدعون إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعته ضناً به وشفقة عليه . وله فيه مراثٍ كثيرة منها :

هلاّ بقيت لسدّ فاقتنا ... أبداً ، وكان بغيرك التلف

فلقد خلفت خلائفاً سلفوا ... ولسوف يعوز بعدك الخلف

وفى قصيدة أخرى يهجو المأمون :

أطل حزناً وابك الإمام محمداً ... بحزن ، وإن خفت الحسام المهندا

فلا تمت الأشياء بعد محمد ... ولا زال شمل الملك منها مبددا

ولا فرح المأمون بالملك بعده ... ولا زال فى الدنيا طريداً مشردا

وغضب المأمون عليه واحتجب عنه ، وشفع له الحسن بن سهل فأبى . وانحدر الحسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

ومدح المعتصم والواثق فقرباه بين ندمائهما وأجزلا له العطايا والهبات . ونادم المتوكل وتغزل فى خادمه (شفيع) وهو فى شيبه فتغاضب عليه المتوكل فقال له : ضربنى الرشيد فى خلافته لصحبتى ولده ، وضربنى الأمين لممايلة ابنه عبدالله وضربنى المأمون لميلى إلى محمد وضربنى المعتصم لمودة كانت بينى و بين العباس بن المأمون وضربنى الواثق لشىء بلغه من ذهابى إلى المتوكل ، وكل ذلك يجرى مجرى الولع بى والتحذير لى ، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد أن تضربنى كما ضربنى آباؤك فاعلم أن آخر ضرب ضربته بسببك ! فضحك المتوكل وقال : بل أحسن إليك يا حسين وأصونك وأكرمك .

ودخل عليه أحد أصدقائه وقد ضعف فقال له : كيف أنت جعلنى الله فداءك ؟ فبكى ثم أنشأ يقول :

أصبحت من أسراء الله محتبساً ... فى الأرض نحو قضاء الله والقدر

إن الثمانين إذا وفيت عدتها ... لم تبق باقية منى ولم تذرِ

ومات فى خلافة المنتصر وقيل فى خلافة المستعين .

ومن رواته من معاصريه أبو العيناء وابن الرومى وجحظة .

دعبل بن على الخزاعى

أصله من الكوفة وعن مصدر آخر من (قرقيسيا) بلدة على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق . ولد سنة ثمان وأربعين ومائة وتوفى سنة ست وأربعين ومائتين . وكان أكثر مقامه ببغداد وسافر إلى غيرها من البلاد فدخل دمشق ومصر . وكان هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا من أولادهم .

وكان من مشاهير الشيعة وله قصيدة طويلة فى مدح أهل البيت . وكان بين دعبل ومسلم بن الوليد الأنصارى اتحاد كثير وعليه تخرج دعبل فى الشعر . فاتفق أن ولى الفضل بن سهل مسلماً جهة فى بعض بلاد خراسان (ويقال جرجان بفارس) فقصده دعبل لما يعلمه من الصحبة التى بينهما فلم يلتفت مسلم إليه فقال دعبل :

غششت الهوى حتى تداعت أصوله بنا ، وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت ما بين الجوانح والحشا ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تعذلنّى ليس لى فيك مطمع تخرقت حتى لم أجد لك مرقعا

وأدركه البحترى فى آخر سنيه ولازمه وصاحبه .

رزين العروضى

كان من أصحاب دعبل الخزاعى . حدث دعبل أنه نزل هو ورزين بقوم من بنى مخزوم فلم يقروهما ولا أحسنوا ضيافتهما ، قال دعبل : فقلت فيهم :

عصابة من بنى مخزوم بت بهم بحيث لا تطمع المسحاة[1] فى الطين

ثم قلت لرزين ، أجز : فقال :

فى مضغ أعراضهم من خبزهم عوض بنى النفاق وأبناء الملاعين

توفى رزين العروضى سنة سبع وأربعين ومائتين .

أبو تمام

ولد عام ١٨٠ هـ بقرية جاسم شمال حوارن من أعمال دمشق وينتهى نسبه إلى طىء . وفد على مصر وأقام بها سنوات . ولما نبه ذكره حاول أن يتصل بالمأمون فلم يوفق . ثم سار شعره وبلغ المعتصم فحمله إليه وقربه منه وقدمه على الشعراء . ومر فى طريقه بالشام فمدح ولاتها وسراتها .

(١) المسحاة : ما يسحى به كالمجرفة .

كان كثير التنقل بين كبراء عصره من الولاة والسراة . ذهب إلى خراسان ومدح عبد الله بن طاهر والى أرمينية و بلاد الجبل والموصل وغيرها .

واستقر به المقام بالموصل حيث ولاه الحسن بن وهب على بريدها فأقام بها أقل من سنتين وتوفى عام ٢٣١ هـ

وكان أبو تمام أسمر اللون فيه تمتمة يسيرة حلو الكلام فصيحاً فطناً حاضر البديهة . ومما يدل على سرعة خاطره أنه لما مدح المعتصم فى مجلسه بقصيدته التى مطلعها :

ما فى وقوفك ساعة من باس نقضى ذمام الأربع الأدراس

إلى أن قال يصف المعتصم :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم فى حلم أحنف ، فى ذكاء إياس

قال له الكندى وقد كان حاضراً : الأمير فوق ما وصفت ، فأطرق أبو تمام هنيهة ثم قال :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وهو فى طليعة شعراء العربية . وقد اختلفت الموازنة بينه و بين تلميذه البحترى فمن الناس من فضله على البحترى ومنهم من يفضل البحترى عليه .

عاش أبو تمام محل الترحيب والإكبار من ولاة العهد فى زمانه وكانت أشعاره تهزهم هزاً . وما به من حاجة إلى التعريف لولا الصلة التى كانت بينه و بين تلميذه البحترى صاحب هذه السيرة والتى استوجبت التنويه باسمه لمجرد التنويه لا للدراسة والتدليل ، فإن لهذين مجالاً آخر خليقاً بالشاعر الضخم .

وقد جاءت سيرته موزعة فى بعض الفصول ونكتفى هنا بهذا القدر استكمالاً للبحث الذى قد لا يستحب فيه الإسهاب فى غير ما طائل .

على بن الجهم

شاعر فصيح مطبوع ولد فى عهد الأمين وظهر فى عهد الواثق وانحرف عنه الوزير بن الزيات والقاضى أحمد بن أبى دؤاد فهجاهما . ثم خص بالمتوكل وصار من ندمائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه والوشاية بهم عنده . فإذا خلا به ذكر له أنهم يعيبونه ويثلبونه وينتقصونه فيكشف عن حقيقة قوله فلا يجد لها نصيباً من الصحة ، فنفاه بعد أن حبسه مدة إلى خراسان، وكتب إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بصلبه ليلاً . فلما وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر ثم أخرجه فصلب يوماً مجرّداً إلى الليل ثم أنزل . وعفا عنه المتوكل فمدح ابن طاهر وشيّد بنفسه فى قصائد رائعة وعاد إلى بغداد فانضم إلى فتيانها ، وكانوا يلزمون منزل مغنٍّ بالكرخ يقال له المفضل وفى مجالسه يقول ابن الجهم :

فبادر بأيام الشباب فإنهـــــا تقضّى ، وتفنى ، والغواية تنجلى
ودع عنك قول الناس أتلف ماله (فلان) فأضحى مدبراً غير مقبل
هل الدهر إلا ليلة طرحت بنـا أواخرهـا فى يوم لهـوٍ معجّل
سقى الله باب الكرخ من متنزَّهٍ إلى قصر وضـاحٍ فبركة زلزلِ

وكان ينحو نحو أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب وذمّهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة .

خرج إلى الشام فى قافلة فطلعت عليهم الأعراب فى (حُسَاف) فهرب من كان فى القافلة وثبت على بن الجهم فقاتلهم قتالاً شديداً وثاب الناس إليه فدفعهم ولم يحظ بشىء وفى ذلك يقول:

ولما رأيت الموت تهفو بنوده وبانت علامات له ليس تنكرُ
وأقبلت الأعراب من كل جانب وثار عجاج أسود الليل أكدر
بكل مشيح مستميتٍ مشمِّر يجول به طرف أقبّ مشمّر

بأرض (حساف) حين لم يك دافع ولا مانع إلا الصفيح المذكّر
فما صنت وجهى عن ظباة سيوفهم ولا انحزتُ عنهم ، والقنا تتكسّر
ولم أك فى صدّ الكريهة محجماً إذا لم يكن فى الحرب والورد مصدر
منعتهمُ من أن ينالوا قلامة وكينت شجاهم والأسنّة تقطر

وأرسل مع على بن يحيى المنجم قصيدة يمدح المتوكل وطلب منه عرضها عليه فعرضها فلما سمع قوله :

وقبّة ملك كأن النجو م تصغى إليه بأسرارها
تخر الوفود له سجّداً إذا ما تجلّت لأبصارها
وفوارة ثارها فى السما ء فليست تقصر عن ثارها
ترد على المزن ما أنزلت إلى الأرض من صوب مدرارها

تهلل وجهه واستحسنها فلما انتهى إلى قوله :

تبوأت بعدك قعر السجو ن ، وقد كنت أرثى لزوّارها

غضب وتربد وجهه وقال : هذا بما كسبت يداه ، ولم يسمع تمام القصيدة .

وشاع فى الناس مذهب علىّ بن الجهم وشره ، وذكره كل أحد بسوء من صديقه وعدوّه وتحاماه الناس فخرج عن بغداد الى الشام مرة ثانية فقطع عليه الأعراب الطريق فخرج فيهم فقاتل قتالاً شديداً فأصابته طعنة قاتلة فحمله رجال القافلة ودمه ينزف فلما رأى الحسن بن موسى بكى وجعل يوصيه بما يريد فما أمسى إلا وقلق قلقاً شديداً وأحسّ بالموت فجعل يقول :

أزيد فى الليل ليل أم سال بالصبح سيل ؟!
ذكرت أهل دُجيل[1] وأين منى دجيل ؟!

فأبكى كل من كان بالقافلة ، ومات مع السحر فدفن على مرحلة من حلب .

---

(١) دجيل اسم الشارع الذى كان يقيم فيه ببغداد .

إبراهيم بن العباس الصولى

وإبراهيم الصولى وأخوه عبد الله من صنائع الفضل بن سهل (ذى الرئاستين) . وكان عبد الله أسنّ الأخوين وأشدهما تقدماً ، وكان إبراهيم آدبهما وأحسنهما شعراً ، وإذا نظم عنّ إلى الاختيار فأثبت نخبته وأسقط رذله .

وهو صاحب البيتين المشهورين :

أولى البرية طرًّا أن تواسيه　　عند السرور، الذى واساك فى الحزَن
إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا　　من كان يألفهم فى المنزلِ الخشن

ومن قوله فى أخيه عبد الله :

ولكن عبد الله لما حوى الغنى　　وصار له من بين إخوانه مالُ
رأى خلة منهم تُسَدّ بماله　　فساهمهم حتى استوت بهم الحالُ

ويعدّ إبراهيم كاتبا حاذقاً بليغاً ، تنقّل فى الأعمال الجليلة إلى أن مات وهو يتولى ديوان الضياع والنفقات بسرّ من رأى سنة ثلاث وأربعين ومائتين للنصف من شعبان .

ويروى عن دعبل أنه قال : « لو تكسب إبراهيم بالشعر لتركنا فى غير شىء » ، وتعجب من قوله :

إن امرءا ضنّ بمعروفه　　عنّى لمبذول له عذرى
ما أنا بالراغب فى خيره　　إن كان لا يرغب فى شكرى

وكان إبراهيم صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيات فولّى محمد الوزارة وإبراهيم على الأهواز فقصده ووجه إليه بأبى الجهمِ أحمد بن سيف وأمره بكشفه[1] فتحامل عليه تحاملا شديداً ، فكتب ابراهيم إلى محمد بن عبد الملك :

وإنى لأرجو بعد هذا محمداً　　لأفضلِ ما يُرجَى أخ ووزيرُ

---

(١) أى البحث فى شئون عمله حتى يكشف أمره .

فأقام محمد على أمره ، ولجَّ أبو الجهم فى التحامل عليه . فكتب إبراهيم إلى ابن الزيات يشكو اليه أبا الجهم ويقول : هو كافر لا يبالى ماعمل ، وهو القائل لما مات غلامه يخاطب ملك الموت :

تركت عبيد بنى طاهرٍ وقد ملأوا الأرض عرضًا وطولا
وأقبلت تسعى إلى واحدِى ضرارًا كأنْ قد قتلتَ الرسولا
فسوف أدين بترك الصَّلا ةِ وأصطبح الخمرَ صِرفًا شمولا

فكأن محمداً لتعصبه وقصده كشف إبراهيم ، يقول ليس هـذا الشعر لأبى الجهم وإنما إبراهيم قاله ونسبه إلى أبى الجهم .

وتحامل عليه ابن الزيات واشتد فأرسل إليه الأبيات الآتية من كتاب :

وكنت أخى بإخاء الزمـ ـان فلما نبَا ، صرتَ حربًا عوانا
وكنت أذمُّ إليك الزمـ ـانَ ، فأصبحت منك أذمُّ الزمانا
وكنت أعـــدُّكَ للنائبا ت ، فها أنا أطلب منك الأمانا

ووقف الواثق على تحامل الوزير عليه ، فرفع يده عنه وأمره أن يقبل منه ما رفعه ويُردُّ إلى الحضرة مصونًا. فلما أحس إبراهيم بذلك بَسَط لسانه فى ابن الزيات وهجاه هجاء كثيراً . منه :

قدرت فلم تضرر عدوا بقدرة وَسُمت بها إخوانك الذلَّ والرغما
وكنتَ مليًا بالتى قد يعافها من الناس من يأبى الدنيّـة والذمّا

وله أيضاً فيه :

أبا جعفر خف خفضةً بعد رفعةٍ وقصّر قليلاً عن مدى غلوائكا
فإن كنت قد أوتيت عزًا ورفعة فإن رجائى فى غدٍ كرجائــكا

وقال أيضاً فيه :

دعوتك فى بلوى ألمّت صروفها فأوقدت من ضغن علىّ سعيرها
وإنى إذ أدعوك عنـد ملمّـة كداعية بين القبور نصيرها

ولما مات ابن الزيات قال إبراهيم :

لما أتانى خبر الزيات
وأنه قد عد فى الأموات
أيقنت أن موته حياتى !! . . .

وكان له ابن قد ينع وترعرع ، وكان به معجباً فاعتل علة لم تطل حتى مات . فرثاه مراثى كثيرة وجزع عليه جزعاً شديداً .

وحدث بينه و بين أحمد بن المدبر تباعد ، وكان أحمد مقدماً فى الكتابة فقال ذات يوم للمتوكل : قلدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع وهو متخلف ، لا يحسن قليلاً ولا كثيراً . وطعن عليه طعناً قبيحاً فقال له المتوكل : « فى غد أجمع بينكما » ، واتصل الخبر بإبراهيم فأيقن بحلول المكروه ، وعلم أنه لا يفى بأحمد بن المدبر فى صناعته ، فغدا إلى دار السلطان آيساً من نفسه ومن نعمته . وحضر أحمد فقال له المتوكل : قد حضر إبراهيم وحضرت ومن أجلكما قعدت ، فهات اذكر ما قلت فيه أمس ، فقال أحمد : أى شئ أذكر عنه ؟ فإنه لا يعرف أسماء عماله فى النواحى ، ولا يعلم ما فى دساتيرهم[1] من تقديراتهم وكيولهم ، وحمل من حمل منهم ومن لم يحمل ، ولا يعرف أسماء النواحى التى تقلدها ، وقد اقتطع صاحبه بناحية كذا الآفاً ، واختلت ناحية كذا فى العمارة . . وأطال فى ذكر هذه الأمور ، فالتفت المتوكل إلى إبراهيم فقال : ما سكوتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين جوابى فى بيتى شعر قلتهما فإن أذنت أنشدتهما ، فقال : هات :

رد قولى وصدق الأقوالا	وأطاع الوشاة والعذالا
أتراه يكون شهر صدود	وعلى وجهه رأيت الهلالا

فقال المتوكل : « زه ، زه ، أحسنت ، ايتونى بمن يعمل فى هذا الحنا ، وهاتوا ما نأكل . . . ودعونا من فضول ابن المدبر ، واخلعوا على إبراهيم بن العباس » . فخلع عليه . وانصرف إلى منزله .

---

(١) دفاتر الحسابات الخاصة بالجيش والضياع .

ومكث يومه مغموماً ، فسأله سائل : هذا يوم سرور وجذل بما جدّد الله لك من الانتصار على خصمك ! فقال : يا بنى الحق أولى بمثلى وأشبه ، إنى لم أدفع أحمد بحجة ، ولا كذب فى شىء مما ذكر ، ولا أنا ممن يعشُرُه[١] فى الخراج ، كما أنه لا يعشرنى فى البلاغة ، وإنما فلجت بركازة ومخرقة[٢] ، أفلا أبكى فضلا عن أن أغتم من زمان يدفع ذلك كله ؟ !

وحبسه موسى بن عبد الملك فقال يصف ثقل الحديد وما هو فيه من الضيق :

كم ترى يبقى على ذا بدنى   قد بكى من طول همّى وفنى
أنا فى أسر وأسباب ردًى   وحديد فادح يَكْلِمُنى
وأبو عمران موسى حنق   حاقد يطلبنى بالإحن
ليس يشفيه سوى سفك دمى   أو يرانى مدرجاً فى كفن

فكتب عليها أحمد بن المدبر ، وقد كانت فى دفتر شعره المخطوط بيده :

أبا إسحق إن تكن الليالى   عطفن عليك بالخطب الجسيم
فلم أرَ صرف الدهر يجرى   بمكروه على غير الكريم

البلاذرى

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن دواد البلاذرى ، ولد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، ونشأ فى بغداد ، وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز ، وعهد إليه هذا بتثقيف ابنه عبد الله الشاعر المشهور . وكان شاعراً وكاتباً ومترجماً ينقل من الفارسية إلى العربية . وذكر صاحب الفهرست أنه وسوس فى آخر أيامه ، فأخذ إلى البيمارستان لأنه شرب تمر (البلاذر على غير معرفة ، ومنه اسمه . ويقول الجهشيارى أن الذى شرب (البلاذر) هو جدُّه .

---

(١) يعشره : يبلغ عشره فى معرفته .
(٢) فلجت بركازة ومخرقة : غلب واستظهر بخرافة وكذب.

ومات على الأغلب ، سنة تسع وسبعين ومائتين فى أول خلافة المعتضد .

ومما رواه عن نفسه : كانت بينى و بين عبيد الله بن يحيى بن خاقان حرمة منذ أيام المتوكل ، وما كنت أكلفه حاجة لاستغنائى عنه ، فنالتنى فى أيام المعتمد على الله إضاقة (ضاق معاشه وافتقر) ، فدخلت إليه وهو جالس للمظالم فشكوت تأخر رزقى وثقل دينى : وقلت ، إن عيباً على الوزير — أعزه الله — حاجة مثلى فى أيامه ، وغض طرفه عنى . فوقع لى ببعض ما أردت وقال : أين حياؤك المانع لك من الشكوى على الاستبطاء ؟ فقلت : غرس البلوى ، يثمر ثمر الشكوى ، وانصرفت وكتبت إليه :

لحانى الوزير المرتضى فى شكايتى ... زماناً أحلت للجدوب محارمه

وقال لقد جاهرتنى بملامة ... ومن لى بدهر كنت فيه أكاتمه

فقلت حياء المرء ذى الدين والتقى ... يقلّ إذا قلّت لديه دراهمه ! !

وروى أيضاً : قال لى محمود الوراق : قل من الشعر ما يبقى ذكره ويزول إثمه فقلتُ :

استعدّى يا نفس للموت واسعَىْ ... لنجاةٍ ، فالحازم المستعدُّ

قد تثبَّتِّ أنه ليس للحـ ... ـىّ خلود ، ولا من الموت بدُّ

إنما أنتِ مستعيرة ما سو ... فَ تَرُدّين ، والعوارى تُرَدُّ

أنتِ تسهين ، والحوادث لا تسـ ... ـهو ، وتلهين ، والمنايا تجِدُّ

لا ترجّى البقاء فى معدِن المو ... تِ ودارٍ حقوقها لك وِردُ

أىُّ ملكٍ فى الأرض أم أىُّ حظّ ... لامرئٍ حظه من الأرض لَحْدُ

كيف يهوى امرؤٌ لذاذة أيّا ... مٍ عليه الأنفاس فيها تعدُّ

ومن شعره :

يا من رَوَى أدبًا ، ولم يعمل به ... فيكفَّ عادية الهوى بأديبِ

ولقلّما تجدى إصابة صائبٍ ... أعماله أعمال غير مصيب

حتى يكونَ بما تعلّم عاملاً ... من صالح فيكون غير معيب

أبو العنبس الصيمرى

وهو محمد بن إسحاق ، أحد الشعراء المجيدين ، وكان من أهل الفكاهة والمزاح. وأصله من الكوفة ، وشغل قاضى (الصيمرة) زمناً .

اشتهر عنه معرفته بعلم النجوم وله فيها كتاب يمدحه المنجمون . أدخله المتوكل فى ندمائه وخص به . وله مؤلفات فى مواضيع شتى .

ومن جيد شعره :

كم مريضٍ قد عاش من بعد يأس بعد موت الطبيب والعُوّاد
قد يصاد القطا فينجو سليماً ويحل القضاء بالصيّادِ !!

وفى رواية لجحظة عن أبى العنبس نفسه قال: كنت عند المتوكل والبحترى ينشده :

عن أى ثغر تبتسم وبأى طرف تحتكم

حتى بلغ قوله :

قل للخليفة جعفر الـ متوكل بن المعتصم
والمجتدى بن المجتدى والمنعم بن المنتقم
اِسْلَم لدين محمد وإذا سلمت فقد سلم

قال ، وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً ، يتشدق ويتزاور فى مشيه مرة جانباً ومرة القهقرى ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ويشير بكمّه ويقول أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنتَ ؟! هذا والله مالا يُحسنُ أحدٌ أن يقولَ مثله !! فضجر المتوكلُ من ذلك وأقبلَ علىّ فقال : أما تسمع ياصيمرىُّ مايقولُ ، فقلتُ : بلى ياسيدى ، فمُرْ فيه بما أحببتَ ؟ فقال : بحياتى أهجُه على هذا الروىّ الذى أنشدنيه ، فقلت :

أدخلتَ رأسَكَ فى الحُرَم وعلمتَ أنك تنهزم
يا بُحترىُّ حذارِ ويلك من قُضاقضةٍ ضَغِمْ

فلقد أسلت لوالديك من الهجا سيل العرِمْ
واللهِ حلفة صادقٍ وبقبر أحمد والحَرَم
وبحق جعفرٍ الإمامِ ابن الأمامِ المعتصم
لأصيِّرنَّك شهرةً بين المسيل إلى العلم

ومنها :

يا ابن الثقيلةِ والثقيل على قلوب ذوى النعم
وعلى الصغير مع الكبير مع الموالى والحشم
فى أىِّ سلح تلتطم وبأىِّ كفٍّ تلتقم

قال : وخرج البحترىّ مغضباً يعدوا وجعلت أصيح خلفه : أدخلت رأسك فى الحرم ، البيت ! والمتوكل يضحك و يصفق حتى غاب عنه .

هذه رواية جحظة عن أبى العنبس نفسه . وفى رواية ياقوت أن الذى يتعارفه الناس أن أبا العنبس كان واقفاً خلف السّرير والبحترى ينشد أبياته فقال أبو العنبس ارتجالاً :

فى أىِّ سَلحٍ ترتطم وبأىِّ كفٍّ تلتقم
أدخلتَ رأسكَ فى الحُرَم وعلمتَ أنك تنهزِم

فغضب البحترى وخرج لساعته وضحك المتوكل حتى أكثر .

ابن الرومى

موقفنا من سيرة الرومى كموقفنا من سيرة أبى تمام نلخصها إلمامة يسيرة فى سطور ، وماله علاقة أو بحث بصلة بالشاعر البحترى أشرنا إليه فى موضعه من فصول الكتاب .

ولد ابن الرومى ببغداد سنة ٢٢٠ أو ٢٢١ هـ ، وكان فى مستهلّ حياته يختلف

إلى أبي جعفر محمد بن حبيب صديق أبيه العباس بن جورجس الرومى وكان أبو جعفر أحد علماء اللغة والشعر والأخبار وله مكتب يعلم الصبيان فيه .

وخص أبو جعفر ابن الرومى برعايته لما رآه من ذكائه وحدة ذهنه . وحدث ابن الرومى عنه أنه « كان إذا مرّ به شيء يستغربه ويستجيده ، يقول له يا أبا الحسن ضع هذا فى تامورك » . ومات ابن حبيب هذا فى أيام المتوكل ، وانتقل ابن الرومى إلى مجالس ثعلب إمام الكوفيين فدرس عليه النحو واللغة .

واشتهر ابن الرومى بالتطير والهجاء القاذع وامتاز بعبقرية فذة ربما انفرد بها عن سائر شعراء العربية . فقد كان رحب الخيال مشبوب العاطفة ، تمكنت منه الشاعرية المطبوعة وامتزجت بدمه وروحه . ولولا الأحداث وما لابس العصر من ثورات وإحن ومشايعته فى الوقت نفسه للعلويين لبلغ مكانة سامية بين قومه ولكنه مات طريداً مقفراً إلا من تراثه الشعرى الذى خلفه .

وفى كتاب محمد بن الأزهر فى عقلاء المجانين فصل عن شذوذ ابن الرومى نصه :

حدثنى علىّ بن إبراهيم بن موسى الكاتب قال :

كنت يوماً جالساً فى صحن دارى ، إذا حجارة قد سقطت على بالقرب منى . فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود إلى السطوح والنظر من أين أتتنا الحجارة . فرجع إلىّ وقال لى : يا مولاى ، امرأة من دار ابن الرومى الشاعر تقول : الله الله فينا ، أسقونا ماء وإلا متنا عطشاً ، فإن الباب علينا مقفل منذ ثلاثة أيام بسبب تطير صاحبنا ، فإنه يلبس ثيابه فى كل يوم ويتعوّذ ويقرأ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على خلل من الباب فتقع على جار له نازل بإزائه ، وكان أعور ، فإذا بصر به رجع وخلع ثيابه وترك الباب على حاله سائر يومه وليلته . فدفع إليها ما طلبته . فلما كان من غد وجهت بخادم لى اسمه طاهر ، وكان ابن الرومىّ يعرفه وأمرته أن يجلس على بابه . وتقدمتُ إلى بعض الغلمان فى المصير إلى الأعور برسالتى وسألته المصير إلىّ . فلما زال الرجل عن موضعه دق الخادم الباب على ابن الرومى وخاطبه وسأله المصير إلىّ

أيضاً . قال الخادم فخرج فوضع عينه على ذلك الموضع فوقعت عينه عليّ ولم يرَ جاره ففتح الباب وخرج لا تُقلع عينه عن النظر إليّ ، ولا يصرف كلامه إلا إلى ناحيتى .

قال علىّ بن إبراهيم ، فإنى لجالس أنتظره ، وقد انصرف الأعور ، إذ وافانى أبو خديجة الطَّرسوسى وكان فى ناحية إسماعيل بن إسحاق القاضى وقد دفع إليه المعتضد (برذعة) الموسوس ليوصّله إلى الحسن ابنه ليتولى تسليمه . فنحن نتحدث إذ دخل ابن الرومى مع الخادم علينا فلما تخطى عتبة باب الصحن عَثَر . فانقطع شسعُ نعله . فأخذها بيده ودخل مذعوراً فقلت له : أيكون شيء يا أبا الحسن أحسن من خروجك من منزلك على وجه خادمى ؟ فقال : لقد لحقنى ما رأيت من العثرة لأنى أفكَرتُ أنّ بى عاهةً ، قلتُ وما هى : قال : هو مجبوب فقال برذعةُ الموسوس وشيخنا يتطيّر قلت : نعم ، ويُفرط ؟ قال : ومن هو ؟ قلت : هذا علىّ بن الرومىّ الكاتب قال : الشاعر ؟ قلت : نعم ، فأقبل عليه فقال :

ولما رأيتُ الدهرَ يؤذن صرفهُ	بتفريق ما بينى وبين الحبائب
رجعتُ إلى نفسى فوطنتُها على	ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها	فأيامـه محفوفة بالمصـائب
فخذ خُلسة من كل يوم تعيشه	وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطّرح	تطيّرَ جارٍ أو تفاؤلَ صاحب

فرأيتُ ابنَ الرومىّ شبيهاً بالباهت ولم أدر أنه قد شَغل قلبه بحفظ الأبيات ثم نهض (برذعةُ) وأبو خديجة معه فقال له ابن الرومىّ : والله لا تطيّرتُ بعد هذا فأقام عندى وكتبتُ هذه الأبيات من حفظه وزالت عنه الطيرة .

وفى رأينا أن الطيرة لم تفارقه إلى أن جنت عليه فى خاتمته الأليمة .

ومما يروى عن نهايته ما ذكره علىّ بن عبدالله بن وصيف أحد الشيعة وأحد معاصرى

المتنبي المولود سنة إحدى وسبعين ومائتين والمتوفى سنة خمس وستين وثلاثمائة: «كان جدى وصيف مملوكاً ، وكان عبدالله أبي عطاراً فى الحضرة بالجانب الشرقى ، وكنت أعمل معه فى دكانه ، وكان ابن الرومى يجلس عندنا وأنا لا أعرفه يلبس درّاعة وثياباً وسخة[1]. وانقطع عنا مدة فسألت أبى عنه وقلت : ما فعل ذلك الشيخ الوسخ الثياب الذى كان يجلس إلينا ؟ فقال : ويحك ، ذاك ابن الرومى وقد مات . فندمت أن لم أكن أخذت عنه شيئاً ولا عرفته فى حال حضوره .

(١) ثوب من الكتان كان يلبسه كبار القوم وخيارهم :

بركة البساتين

ميلوا إلى الدّارِ من لَيْلَى نُحَيِّيهَا ... نَعَمْ ، وَنَسْأَلُهَا عن بعضِ أَهْلِيهَا
يَا دِمْنَةً جَاذَبَتها الريحُ بهجتها ... تبيتُ تَنْشُرُها طَوْرًا وتطويها
لا زِلتِ فى حُلَلٍ للغيثِ ضَافِيَةٍ ... يُنيرُها البَرْقُ أحيانًا وَيُسدِيها
تروح بالوابِلِ الدانى رَوَائِحُها ... على رُبُوعِك أو تغدو غواديها
إن النَّحِيلةَ لم تَنْعَمْ لِسَائِلِها ... يومَ الكثيبِ ولم تَسْمَعْ لداعيها
مَرَّتْ تَأَوَّدُ فِى قُرْبٍ وفى بعد ... فالهَجْرُ يُبعِدُها ، والدار تدنيها
لولا سوادُ عِذارٍ ليس يُسْلِمُنى ... إلى النهى ، لَعَدَتْ نفسى عواديها
قد أطرق الغادة البيضاء مقتدراً ... على الشباب فتُصْبِينى وأُصبيها
فى ليلةٍ ما ينال الصبحُ آخرها ... عَلِقْتُ بالراحِ أُسقاها وأَسقيها
عاطيتُها غضَّةَ الأطرافِ مُرْهَفَةً ... شَرِبْتُ من يدِها خمْراً ومن فيها
يا من رأى البركةَ الحسناء رؤيتَها ... والآنساتُ إذا لاحت مغانيها
بِحسْبِهَا أنها فى فضل رُتْبَتِهَا ... تُعَدُّ واحِدَةً والبَحْرُ ثانيها
ما بَالُ دِجْلَةَ كالغَيْرَى تُنافِسُها ... فى الحُسن طوراً ، وأطوارا تباهيها
أمَا رأَتْ كالئُ الإسلامِ يَكْلَؤُهَا ... من أن تُعَاب ، وبانى المجد يبنيها
كأن جنَّ سليمان الذين وَلُوا ... إبْدَاعَهَا ، فأدقوا فى معانيها
فلو تَمُرُّ بها بَلقيسُ عن عُرُضٍ ... قالت هى الصَّرحُ تمثيلاً وتشبيها
تَنْصَبُّ فيها وُفُودُ الماء مُعْجَلَةً ... كالخيلِ خارجةً من حَبْلِ مُجريها
كأنما الفِضَّةُ البيضاء سائلةً ... من السَّبائكِ تجرى فى مجاريها
إذا عَلَتْهَا الصَّبَا أبدت لها حُبُكاً ... مثل الجَوَاشِنِ مَصْقُولاً حواشيها[1]
فَحَاجِبُ الشمس أحياناً يضاحكها ... ورَيِّقُ الغيث أحياناً يباكيها

---

(١) الجوشن جمع جوشن وهى الدرع .

إذا النُّجُومُ تراءت في جوانبها ليلا حَسِبْتَ سماء ركبت فيها
لا يبلغ السَّمكُ المَخصُورُ غايتَهَا لِبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مُجَنَّحَةٍ كالطير تنفضُ في جوٍّ خوافيها
لهنَّ صَحْنٌ رَحِيبٌ في أسافِلِها إذا انحططن ، وبَهْو في أعاليها
صُورٌ إلى صُورَةِ الدَّافِينَ يؤنسها منه انزواء بعينيه يوازيها
تغنى بساتينُها القُصْوَى برؤيتها عن السحائب مُنْحَلاً عزاليها
كأنها حين لجَّتْ في تدَفُّقِها يدُ الخليفة لما سال واديها
وزادها رتبة من بعد رتبتها أن اسمَهُ يوم يدعى من أساميها
محفوفةٌ برياض لا تزال ترى ريشَ الطواويسِ تحكيه وتحكيها
ودكَّتَيْنِ كمثل الشِّعرتين غدَتْ إحداهما بإزَا الأخرى تساميها
إذا مساعي أمير المؤمنين بدت للواصفين فلا وَصْفٌ يدانيها
إنَّ الخلافَةَ لما اهتزَّ مِنبرُها بجعفر أُعطِيَتْ أقصى أمانيها
أبدى التواضع لما نالها دعة عنها ، ونالته فاختالت به تيها
إذا تحلَّت له الدنيا بحِلْيتها رأت محاسِنها الدنيا مساويها
يا ابنَ الأباطح من أرضٍ أباطِحُها في ذِرْوَةِ المجد أعلى من روابيها
ما ضيَّعَ اللهُ في بدو ولا حضرٍ رعيَّةً أنتَ بالإحسان راعيها
وأُمَّةٍ كان قُبْحِ الجَوْرِ يُسْخِطُهَا دَهرًا ، فأصبح حُسْنُ العدل يرضيها
بَثَثْتَ فيها عَطاء زاد في عَدَدِ الـ عُليا ، ونوَّهت باسْمِ المجد تنويها
ما زِلْتَ بحرًا لِعافِينَا فكيف وقد قابلتنا ، ولك الدنيا بما فيها
أعطاكَهَا اللهُ عن حقٍّ رآك له أهْلاً ، وأنت بحقِّ الله تعطيها

البحترى

وفى القهوةِ أشكال من الساقى ، وألوانُ
حَبَابٌ مثلَ ما يضـ حكُ عنه وهو جذلاَن
وسُكر مثل ما أسـكر طرفٌ منه وسْنَان
وَطَعْمُ الرّيقِ إذ جا دَ به والصبُّ هيمان
لنا من كفِّه راحٌ ومن ريّاه ريحانُ !

البحترى

الفصل السابع

الغناء والقصف

المغنون والجوارى

شغل عصر المعتصم بالحرب والقتال، فقد كانت ثورة الخرّمية بزعامة بابك، وكان قتال الروم وفتح (عمورية) فلم يفرغ المتعصم فى عهده إلى راحة. وظل من صراع إلى صراع، ومن جهاد إلى جهاد.

أما ابنه الواثق فكان من أعلم الناس بفنون الغناء بل أحذق من غنى على ضرب العود وقيل أن صنعته بلغت مائة صوت، وساعده على البراعة فى الفن أن عهده كان أقرب إلى الأستقرار منه إل الطعن والنزال.

ونادم أبو دلف الواثق. فوصف للمعتصم فأحب أن يسمعه وسأل الواثق عنه فقال له: يا أمير المؤمنين أنا على نيّة الفصد غدا، وهو عندى. وفصد الواثق فأتاه أبودلف وأتته رسل الخليفة بالهدايا. فأعلمهم الواثق حصول أبى دلف عنده. فلم يلبث أن أقبل الخدم يقولون بمجىء الخليفة. فقام الواثق وكل من كان عنده يتلقونه. وجلس الخليفة وأمر بندماء الواثق فردوا إلى مجالسهم، وأقبل الواثق على أبى دلف فقال: يا قاسم غنّ أمير المؤمنين. فقال: صوتاً بعينه أو ما اخترتُ؟ قال: بل من صنعتك فى شعر جرير. فغنى

بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما اعتزموا لبين تجزع ؟!
كيف العزاء، ولم أجد مذ غبتمُ قلبا يقر ولا شراباً ينقع ؟!

فقال المعتصم: أحسن، أحسن — ثلاثاً — وشرب رطلاً، ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة أرطال. ثم دعا بحمار فركبه وأمر أبا دلف أن ينصرف معه فخرج فى صحبته وثبت فى ندمائه. وأمر له بعشرين ألف دينار...

وأنكر القاضى أحمد بن أبى دؤاد أمر الغناء إنكاراً شديداً . وعن الرواة أن المعتصم أعلم القاضى أن أبا دلف صديقه يغنى فقال : ما أراه مع عقله يفعل ذلك ! — فستر المعتصم أحمد بن أبى دؤاد فى موضع ، وأحضر أبا دلف وأمره أن يغنى ففعل ذلك وأطال، ثم أخرج القاضى عليه ، فخرج والكراهة ظاهرة فى وجهه ، وقال لأبى دلف: سوءة لهذا من فعل ! ! . . أبعد هذه السنّ، وهذا المحل تصنع بنفسك ما أرى ؟

فخجل أبو دلف وتشوّر[1] ، وقال : إنهم ليكرهوننى على ذلك . فقال : هبهم أكرهوك على الغناء ، أهم أكرهوك على الأحسان فيه والإصابة ؟ ! . . .

وعنى عبد الله بن طاهر بالغناء وصنعته ويقول ولده عبيد الله : لم يحب أبى أن يُسمع عنه شىء من الغناء ولا أن ينسب إليه ، لأنه كان يترفع عن ذلك ، وما جسّ بيده وتراً قط ولا تعاطاه . . . ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدربة وحسن الثقافة مالا يعرفه كثير . قال ولده : وبلغ من علمه بالغناء أن صنع فى أبيات أصواتاً كثيرة فألقاها على جواريه ، فأخذنها عنه وغنين بها ، وسمعها الناس منهن .

واشتهر من المغنين فى ذاك العصر ، إسحاق بن إبراهيم الموصلى . قال عنه أبو الفرج الأصبهانى : إنه كان إمام أهل صناعته وقدوتهم ورأسهم ومعلمهم ، على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدهم بغضاً له لئلا يدعى إليه ويسمى به . وكان مع كراهته للغناء أضن خلق الله به وأشدهم بخلا على كل طالب حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسباً إليه ومتعصباً له . قال : وهو مصحح أجناس الغناء وطرائقه وقد ميزها تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله .

قال الواثق عنه : « ما غنانى إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد فى ملكى، ولا سمعته قط يغنى غناء ابن سريج إلا ظننت أن ابن سريج قد نشر ، وإنى ليحضرنى غيره إذا لم يكن حاضراً ، فيتقدمه عندى بطيب الصوت حتى إذا اجتمعا عندى رأيت إسحاق يعلو ورأيت من ظننت أنه يتقدمه ينقص ، وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التى لم يحظ أحد بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى » ! ! .

---

(١) من الخجل

ومنهم (علُّويه) وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف أحد موالى الوليد بن عثمان بن عفّان . كان الواثق يقول عنه إنه أصح الناس صنعة بعد إسحاق وأطيب الناس صوتاً بعد مخارق وأضرب الناس بعد زلزل وملاحظ . . . فهو مصلّى كل سابق نادر وثانى كل أول، وأصل كل متقدم » . وكان يقول : غناء علّويه مثل نقر الطست يبقى ساعة فى السمع بعد سكوته .

وقال عبد الله بن طاهر : « لو اقتصرت على رجل واحد يغنينى لما اخترت سوى علّويه، لأنه إن حدثنى ألهانى، و إن غنّانى أشجانى، و إن رجعت إلى رأيه كفانى !»

ومنهم أبو المهنأ مخارق بن يحيى بن ناووس الجزار مولى الرشيد . وكان مخارق مولى لعاتكة بنت شهدة وهى من المغنيات المحسنات المتقدمات فى الضرب . وكان أبوه جزاراً مملوكا . وكان مخارق وهو صبىّ ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم . فلما بان صوته علّمته مولاته طرفاً من الغناء . ثم أرادت بيعه فاشتراه إبراهيم الموصلىّ وأهداه للفضل بن يحيى فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه .

وغضب عليه المعتصم فأمر أن يجعل فى المؤذنين ويلزمهم . ففعل ذلك ، وأمهل حتى علم أن المعتصم يشرب . فأذّنت العصر ، فدخل إلى الستر حيث يقف المؤذن للسلام ثم رفع صوته جهده وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله ! ! . فبكى حتى جرت دموعه و بكى كل من حضر ثم قال: أدخلوه علىّ ثم قال : سمعتم هكذا قط ! هـذا الشيطان لا يترك أحداً يغضب عليه ! فدخل عليه فقبلّ الأرض بين يديه فدعاه المعتصم إليه وأعطاه يده فقبلها وأمره بإحضار عوده فأحضره وأعاده إلى مرتبته .

وروى محمد بن عبد الملك الزيات ، عن الواثق : «ما غنانى مخارق قط إلا قدّرت أنه من قلبى خلق» . وكان يقول : أتريدون أن تنظروا فضل مخارق على جميع أصحابه ؟ أنظروا إلى هؤلاء الغلمان الذى يقفون فى السماط . فكانوا يتفقدونهم وهم وقوف فكلهم يسمع الغناء من المغنين جميعاً وهو واقف مكانه ضابط لنفسه . فإذا تغنى مخارق خرجوا عن صورهم فتحركت أرجلهم ومناكبهم و بانت أسباب الطرب فيهم وازدحموا على الحبل الذى يقفون من ورائه .

ومن المغنيات « قلم الصالحية » . وهى مولدة صفراء حسنة الصورة حاذقة فى الضرب والغناء .

اشتراها الواثق من مولاها صالح بن عبد الوهاب (أخى أحمد بن عبد الوهاب أحد ممدوحى البحترى) كاتب صالح بن الرشيد ، فى قصة طويلة لا محل لسردها هنا .

ومنهن (عَريب المأمونية) . ويقال فى نسبها وسنها أنها ابنة جعفر بن يحيى . تزوج أمها ولم يكن يعرف لها أم ولا أب . فعيب عليه زواجها ، فأخرجها جعفر وأسكنها فى دار فى ناحية باب الأنبار سراً من أبيه . ووكل بها من يحفظها ، وكان يتردد إليها ، فولدت عريب فى سنة إحدى وثمانين ومائة .

وماتت أم عريب فى حياة جعفر ، فدفعها إلى امرأة نصرانية وجعلها داية لها . فلما حدثت بالبرامكة تلك الحادثة ونهبت دورهم سرقت عريب وهى صغيرة فبيعت . وخرج بها من ملكها إلى البصرة فأدّبها وخرّجها وعلمها الخط والنحو والشعر والغناء فبرعت فى ذلك أجمع ، وتزايدت حتى قالت الشعر .

ويروى أبو الفرج الأصبهانى أنها كانت مغنية محسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، مليحة الخط والمذهب فى الكلام نهاية فى الحسن والجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر . لم يتعلق بها أحد من نظرائها ، ولا رئى فى النساء بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزة الميلاء نظير لها . قال : وكان فيها من الفضائل ما ليس لهن مما يكون فى مثلها من جوارى الخلفاء ومن نشأ فى قصور الخلفاء وغذى برقيق العيش الذى لا يدانيه عيش الحجاز والمنشأ بين العامة والعرب الجفاة .

سمعها الأمين والمأمون ولها معهما حديث طويل وسمعها المعتصم والواثق . وتقلبت فى الحب من مولاها (إسماعيل المراكبى) إلى محمد بن حامد الخاقانى المعروف بالخشين أحد قواد خراسان ، وكان أشقر أصهب أزرق العين . وفيه تقول عريب ولها فيه غناء :

بأبي كل أصهب أزرق العين أشقر
جنّ قلبي به وليس جنوني بمنكر

وأحبت أبا عيسى بن الرشيد أخا المأمون وكان المثل يضرب بحسنه وحسن غنائه وكانت تزعم أنها ما عشقت أحداً من بني هاشم وأصفته من الخلفاء وأولادهم سواه.

ولم تزل عريب مبجلة عند الخلفاء محبوبة إليهم مكرمة لديهم إلى أن غضب عليها المعتصم والواثق وانحرفا عنها للعثور على كتاب بخطها إلى العباس بن المأمون ببلد الروم تقول فيه: اقتل أنت العلج حتى اقتل أنا الأعور الليلي ها هنا ـ تعني الواثق وهو مستخلف ببغداد

وأحبت «عريب» إبراهيم بن المدبر ولها معه أخبار ونوادر و بينهما أشعار وفكاهات. ولها الفضل في إطلاقه من الحبس الذي نكبه به عبيدالله بن يحيى بن خاقان ومن شعره إليها:

كيف السرور، وأنت نازحة عني، وكيف يسوغ لي الطرب
إن غبت، غاب العيش وانقطعت أسبابه، وألحت الكرب!!

ويقال إنها لم تضرب بالعود إلا في أيام المتوكل وانتقلت إلى مغنيات ابنه المعتز بعد موته.

ومنهن «فضل» جارية المتوكل، وهي من مولدات اليمامة ولم يكن في زمانها امرأة أفصح ولا أشعر منها. كانت تهاجي الشعراء وكانت دارها ندوة الأدباء والسمار. ولها مدائح في الخلفاء والوزراء.

عشقت سعيد بن حميد وكان من أشد الناس تنصباً وانحرافاً عن أهل البيت فظاهرته وانتقلت إلى مذهبه بعد أن كانت تتشيع. توفيت سنة ستين ومائتين.

ومنهن «شارية» جارية إبراهيم بن المهدي وهي مولدة من مولدات البصرة. اشترتها امرأة من بني هاشم وباعتها له، وفي رواية إنه تزوجها. وأخذها المعتصم بعد وفاة عمه.

وانضمت شارية لصالح بن وصيف. فلما بلغ صالح رحيل موسى بن بغا من الجبل للانتقام منه بسبب قتل المعتز، أودع شارية جوهره. فلما أوقع موسى بصالح هربت شارية إلى أحد السراة بسامرا.

وانتقلت إلى جوارى المعتمد فنالت حظوة لديه حتى إنه لم يكن يأكل إلا معها. وكانت دائماً تغنى شعر مولاها إبراهيم بن المهدى.

وتحزّب الناس (بسامرّا). فقوم مع شارية، وقوم مع عريب. لا يدخل أصحاب هذه فى هؤلاء. ويروى عن الوزير إسماعيل بن بلبل أنه كان «عريبياً».

ومنهن عبيدة الطنبورية. وكانت حسنة الصورة لدنة الصوت ولم يعرف فى ذاك الوقت امرأة أعظم صنعة منها فى عزف الطنبور!!.

الندماء والمحدثون

على بن يحيى المنجم

أبو الحسن، كان أبوه يحيى أول من خدم من آل المنجم، وأول من خَدَم المأمون ونادم ابنه علىّ هذا المتوكل، وكان من خواصّه وندمائه والمتقدمين عنده، وخصّ به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد على الله. وكان شاعراً رواية علاّمة أخبارياً. وأخذ عن جماعة من العلماء، منهم إسحق بن إبراهيم وشاهَدَهُ، وكان يجلس بين يدى الخلفاء ويأمنونه على أسرارهم. وكان حسن المروءة ممدّحاً. اتصل بمحمد بن إسحاق بن إبراهيم المُصعبىّ. ثم اتصل بعد موت محمد بن إسحاق بالفتح بن خاقان. وعمل للفتح خِزانة نقل إليها من كتبه ومما استكتبه للفتح أكثر مما نقل.

ووصفه الفتح بن خاقان للمتوكل فقربه وجعله أول أمنائه حتى قيل أنه غلب على المتوكل والفتح معاً بخدمته وأدبه وافتنانه وتصرفه فى كل ما تشتهيه الملوك.

وعن يزيد بن محمد المهلبى قال: كنتُ أرى علىّ بن يحيى المنجِّم فأرى صورته وصغر خِلقتِه ودقّة وجهه وصغر عينيه وأسمع بمحلّه من الواثق والمتوكل فأعجب من ذلك وأقول: بأى سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظى عنده؟ والقرد أملح منه قباحة! فلما جالستُ المتوكل رأيتُ علىّ بن يحيى قد دخل على المتوكل فى غداةٍ من

الغَدَوات التى قد سهر فى ليلتها بالشُّرب وهو مخمور بفورُ حرارة ويستثقل لكلّ أمرٍ
مخفٍ دون ما يثقُلُ فوقف بين يديه وقال : يا مولاى أما ترى إقبالَ هذا اليوم
وحسنه ، و إطباق الغيم على شمسه ، وخضرة هذا البستان ورونقه !! .. وهو يوم
تعظّمه الفرس وتشرب فيه لأنّه « هرمزُ رَوْزِ » وتعظّمه غلمانك وأكرتك مثلى
من الدهاقين ، ووافق ذلك يا سيدى أن القمر مع الزهرة ، فهو يوم شرب وسرور
وتجلٍّ بالفرح . فهش إليه وقال: ويلك يا علىّ، ما أقدِرُ أن أفتح عينى خُماراً، فقال:
إن دعَا سيدى بالسِّواك فاستعمله ، وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربةً من رُبِّ
الحصرم (عصيره) أو من مَتنةٍ (دلو) مطيّبة مبرّداً ذلك بالثلج ، انحلّ كل ما يجد .
فأمر باحضار كل ما أشار به فقال علىّ : يا سيدى ، و إلى أن تفعل ذاك تحضر
عجلانيّتين بين يديك (طعـام منسوب إلى بلدٍ بمرو) مما يلائم الخُمارَ ويفيق
الشهوة ويُعين على تخفيفه ، فقال : أحضروا علياً كلّ ما يريد . فأحضرت
العجلانيتان بين يديه وفراريج كسكر قد صفّفت على أطباق الخلاف وطبخ حُماضية
حضرميّة ومطجنة لها مُرَيقة . فلما فاحت روائح القُدُور هشّ لها المتوكلُ فقال له
يا علىّ أذِقنى ، فجعل يذيقَهُ من كلّ قِدرٍ بجرفٍ يشرب بها . فهشّ إلى الطعام
وأمَرَ باحضاره . فالتفت علىّ إلى صاحب الشراب فقال له : ينبغى أن يُختارَ
لأمير المؤمنين شراب ريحانىّ ويزاد فى مِزاجه إلى أن يدخلَ فى الشربِ فيهنئَه الله
إياه إن شاء الله .

قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعُدنا إلى مجالسنا وغني
المغنون . فجعل علىٌّ يقول : هذا الصوت لفلان والشعر لفلان . وجعل يغنِّى معهم
و بعدهم غناء حسناً إلى أن قرب الزّوال. فقال المتوكل : أين نحن من وقت الصلاة ؟
فأخرج علىٌّ إسطرْلاباً من فِضّةٍ (آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب) فى
خفِّه ، فقاس الشمسَ وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت فلم يزل يعظمُ فى
عينى حتى صار كالجبل ، وصارت مقابح وجهه محاسنَ . فقلت لأمرٍ ما قدّمتَ !! فيك
ألفُ خَصلةٍ ، طبيبٌ ومضحكٌ وأديبٌ وجليس وحذقُ طباخ ، وتصرّف مغنٍّ
وفكرُ منجم وفطنةُ شاعر ، ما تركتَ شيئاً مما يحتاج إليه الملوك إلا ملكته ! !

وخدم عليُّ بن يحيي المنتصر بن المتوكل فغلب عليه أيضاً . وقدمه المنتصر على جماعة جلسائه وقلده أعمال الحضرة كلها (العمارات والمستغلات والمرمّات والحظائر وكلّ ما على شاطىء دِجْلَةَ إلى البطيحة من القرى) ثمّ خدم المستعين بالله فقدّمه وأحبّه وأحلّه محله من الخلفاء ممن كان قبلَهُ . وأقرّه المستعين على ما تقلّده من أعمال الحضرة .

وحدثت الفتنة ، وانحدر مع المستعين إلى مدينة السلام . فلم يزل معه إلى أن خُلع المستعينُ . فأقام عليُّ بن يحيي يغدو ويروحُ إليه بعد الخلع إلى أن حلّه من البيعة التى كانت فى عنقه . ولم يكن المستعين قبل الخلع بسنة يأكل إلا ما يحمل إليه من منزل عليّ بن يحيي فى الجَوْن إلى دار أبى العبّاس محمد بن عبد الله بن طاهر فيُفطِرُ عليه . وكان يصوم فى تلك الأيام .

ثم خلص الأمر للمعتز فكان أول من طلبه للمنادمة عليُّ بن يحيي فشخص إلى سُرّ من رأى . فتلقاه أمير المؤمنين المعتز حين قدم عليه أجمل لقاء ، وخلع عليه ووصله ، وقلده الأسواقَ والعماراتِ وما كان يتقلّده قبل خلافته ، وخصّ به وغلب عليه حتى تقدم عنده على الناس كلهم .

أما المهتَدِى ، فإنه حقد عليه أشياء كانت تجرى بينه و بينه فى مجالس الخلفاء . فانحرف عنه المهتدى لميله إلى المتوكل . فكان المهتدى يقول لست أدرى كيف يسلمُ منى عليُّ بن يحيي ؟ إنى لأهمُّ بِهِ فكأنى أصرَفَ عنه ، وَوَهَبَ الله له السلامة من المهتدى إلى أن مضى لسبيله .

وأفضى الأمر إلى المعتمد على الله فحلّ منه محلّه ممن كان قبله من الخلفاء وقدّمه على الناس جميعاً ، ووصله وقلده ما كان يتقلد من أعمال الحضرة ، وقلده بناء قصر المعشوق فبنى له أكثره .

وكان الموفق من محبته وتقديمه وجميل الذكر له فى مجلسه إذا ذكر على أفضل ما يكون ولىُّ نعمة ، وكان يذكره كثيراً فى مجالسه ، ويصف أيامه مع أمير المؤمنين المتوكل وأحاديثه ويحكيها لجلسائه ويعجّبهم من ذكائه ومعرفته وفضله .

وكانت لعليُّ بن يحيي بنواحى (القفص) ضيعة نفيسة وقصر جليل فيه خِزانة

كتب عظيمة يسميها خزانة (الحكمة) يقصدها الناسُ من كلّ بلدٍ فيقيمون فيها ، ويتعلمون منها صنوف العلم . والكتب مبذولة لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال علىّ بن يحيى .

وكان منزله مألفاً للأُدباء والعلماء ، وكان يوصل كثيراً منهم إلى الخلفاء والأمراء . ويستخرج لهم منهم الصّلات وإن جرَى على أحدٍ منهم حِرمان وَصَله من مالِه .

وكان يبلغ من عنايته بهم ورغبته فى نفعهم أنه كان ربما أهدى إلى الخلفاء والأمراء عنهم الهدايا الطريفة المليحة ليستخرج لهم بذلك ما يحبُّون .

وتوفّى فى أواخر أيام المعتمد سنة خمسٍ وسبعين ومائتين ودفن بسامرّا (سرّ من رأى) .

أحمد بن جعفر (جحظة)

أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك المعروف بجحظة البرمكى النديم . وجحظة لقبه به عبد الله بن المعتز . وكانت ولادته فى شعبان سنة أربع وعشرين ومائتين وتوفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة بواسط .

كان كثير الرواية للأخبار ، متصرفاً فى فنون من العلم ، كالنحو واللغة والنجوم مليح الشعر ، مقبول الألفاظ ، حاضر النادرة . وكان طنبورياً (يدير آلة الطنبور) حاذقاً فيه فائقاً . وله ديوان شعر أكثره جيد .

كان قبيح المنظر مشوه الخلقة رث الهيئة ، دنىّ النفس ، فى دينه قِلّة قال فيه ابن الرومى :

نبئت جحظة يستعير جحوظه ... من فيل شطرنج ومن سرطان

وارحمتا لمنادميه تحملوا ... ألم العيون للذة الآذان ! !

ومن شعر جحظة :

لى صديق مغرى بقربى وشدوى ... وله عند ذاك وجه صفيقُ

قوله، إن شدوتُ، أحسنتَ زدنى ... وبأحسنتَ لايباع الدقيق ! !

وأنشد لنفسه :

أنفق ولا تخش إقلالا ، فقد قسمت   بين العباد مع الآجال أرزاق
لاينفع البخل معْ دنيا مولية   ولا يضر مع الإقبال إنفاقُ

وقوله :

وقلت لاتعجبي منى ومن زمنٍ   ألحى على بتضييق وتقتير
بل فاعجبي من كلاب قد خدمتهمُ   تسعين عاماً بأشعارى وطنبورى
ولم يكن فى تناهى حالهم بهمُ   حرٌ يعود على حالى بتغيير

وله فى أماليه روايات كثيرة عن عصره وما وقع له من حوادث وقصص . ومما رواه : دخلت على عريب المأمونية مع شروين وأبى العبيس المغنيين وأنا يومئذ غلام علىّ قباء ومنطقة، فأنكرتنى وسألت عنى فأخبرها شروين وقال لها: هذا فتى من أهلك هذا ابن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكى ، وهو يغنى بالطنبور فأدنتنى وقربت مجلسى . ودعت بطنبور ؛ وأمرتنى أن أغنى . فغنيت أصواتاً . فقالت: أحسنت يابنى ولتكونن مغنياً ، ولكن إذا حضرت بين هذين الأسدين ، ضعت أنت وطنبورك . تعنى بين عوديهما . وأمرت لى بمائة دينار .

وله مع الشاعر عبد الله بن المعتز والوزير الحسن بن مخلد مداعبات طويلة وكان كثير التهكم قاذع الهجاء .

بنو حمدون

وأولهم إبراهيم بن حمدون ، نادم المعتصم ثم الواثق بعده .

حدث أحمد بن أبى طاهر ، أن الواثق بالله بسط جلاسه ، وأمرهم ألا ينقبضوا فى مجلسه ، وأن يجرْوا النادرة على ما اتفقَتْ عليه غير محتشمين ، وإن اتفق وقوعها عليه احتمل . ومرت على ذلك مدة ، وكان على إحدى عينى الواثق نكتة بياض فلما كان فى بعض الأيام ، أنشد الواثق بيت أبى حية النميرى .

نظرت كأنى من ورا زجاجة   إلى الدار ، من ماء الصبابة أنظرُ

فقال ابن حمدون ! و إلى غير الدار يا أمير المؤمنين : فتبسم ثم قال لوزيره : قد قابلني هذا الرجل بما لا أطيق أن أنظر إليه بعدها . فانظر كم مبلغ جاريه وجرايته وأرزاقه وصلاته فاجمعها وأقطعه بها إقطاعاً بالأهواز وأخرجه إليها .

وكان إبراهيم يعابث المتوكل فى أيام أخيه الواثق . وجاءه مرة بلحية وأخرج رأسها من كمه تعريضاً بأنه شجاع . وكان ذلك يعجب الواثق .

ولما مات الواثق نادم إبراهيم المتوكل . فلما كان فى بعض الأيام أمر المتوكل باحضار جارية أخيه الواثق . فأحضرت مكرهة . ودفع إليها عوداً . فغنت غناء كالندبة . فغضب المتوكل وأمرها أن تغنى غناء . فغنت بتحزن وشجى . فزاد ذلك فى طيب غنائها . فوجم حمدون للرقة التى تداخلته فغضب المتوكل ورأى أنه فعل ذلك بسبب أخيه الواثق حزناً عليه . وكان يبغض كل من مال إليه . فأمر بنفيه إلى السند وضربه ثلثمائة سوط فسأل أن يكون الضرب من فوق الثياب لضعفه عن ذلك فأجيب إلى ذلك . وأقام منفياً ثلاث سنين .

وتزوج المتوكل هذه الجارية ، فولدت له ابنه أبا الحسن .

وأبو عبد الله ابنه كان خصيصاً بالمتوكل ونديماً له وأنكر منه المتوكل تدخله فى شأن أحد غلمانه مما أوجب نفيه من بغداد ، ثم قطع أذنه .

والسبب فى ذلك أن الفتح بن خاقان كان يعشق (شلهيك) خادم المتوكل واشتهر الأمر فيه حتى بلغه وله فيه أشعار ، وكان أبو عبد الله يسعى فيما يحبه الفتح ونمى الخبر إلى المتوكل فاستدعى أبا عبد الله وقال له إنما أردتك لتنادمنى ليس لتقود على غلمانى . فأنكر ذلك وحلف يميناً حنث فيها . فطلق من كانت حرّة من نسائه وأعتق من كان مملوكاً ولزمه حجّ ثلاثين سنة . فكان يحج فى كل عام .

وأمر المتوكل بنفيه إلى (تكريت) وهى (بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ولها قلعة حصينة) فأقام فيها أياماً . ثم جاءه زرافة (سياف المتوكل) فى الليل على البريد . فبلغه ذلك . فظن أن المتوكل لما شرب بالليل وسكر أمر بقتله . فاستسلم لأمر الله . فلما دخل إليه قال له قد جئتك فى شىء ما كنت أحب أن أخرج فى مثله قال وما هو قال أمير المؤمنين أمر بقطع أذنك . وقال قل له لست أعاملك إلا كما يعامل الفتيان .

فرأى ذلك هيناً فى جنب ما كان توهمه من إذهاب مهجته . فقطع غضروف أذنه من خارج ، ولم يستقصه وجعله فى كافور كان معه وانصرف به .

و بقى منفيا ثم حدر إلى بغداد فأقام بمنزله مدة .

قال أبو عبد الله بن حمدون : فلقيت إسحاق بن إبراهيم الموصلى ثم لما كف بصره فسألنى عن أخبار الناس والسلطان فأخبرته ، ثم شكوت إليه غمى بقطع أذنى فجعل يسلينى و يعزينى ثم قال لى : من المتقدم اليوم عند أمير المؤمنين، الخاص من ندمائه؟ قلت: محمد بن عمر البازَيار ، قال : من هذا الرجل وما مقدار علمه وأدبه؟ فقلت: أما أدبه فلا أدرى ولكنى أخبرك بما سمعت منه منذ قريب . حضرنا الدار يوم عقد المتوكل لأولاده الثلاثة . فدخل مروان بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

بيضاء فى وجناتها ورد ، فكيف لنا بشمه

فسُرّ المتوكل بذلك سروراً كثيراً شديداً وأمر فنثر عليه بَدْرَةُ دنانير ، وأن تلقَطَ وتطرح فى حجره وأمره بالجلوس، وعقد له على اليمامة والبحرين! فقال : يا أمير المؤمنين ما رأيتُ كاليوم ولا أرى – أبقاك الله – ما دامت السمواتُ والأرضُ فقال محمد بنُ عمر : هذا بعد طول إن شاء الله وقبلُ . قال له : فما تقول فى أدبه ؟ فقال : أأكثر من أن يقول للخليفة – أبقاك الله – يا أميرَ المؤمنين إلى يوم القيامة و بعد القيامة بشىء كثير : فقال إسحق ! ويلك جزعت على أذنيك ، وغمك قطعها حتى لا تسمع مثلَ هذا الكلام : ثم قالَ ! لو أنّ لك مَكوكَ[1] آذان إيش[2] كان ينفعك معَ هؤلاء ؟

وأعاده المتوكل إلى خدمته وكان إذا دعاه قال له : يا عبيد ، على جهة المزاح .

وقال له يوماً : هل لك فى جارية أهَبُها إليك ؟ فأكبر ذلك وأنكره فوهب له

---

(١) مكيال يسع صاعاً ونصف صاع .

(٢) أى شىء .

جارية يقال لها صاحب ، من جواريه حسنة كاملة ، إلا أن بعض الخدم ردّ بيده على فمها ، وقد أرادت أن تدميه ، فصدع ثنِيَّتها فاسودّت . فشانها ذلك عنده . وحمل كلّ ما كان لها، وكان شيئاً كثيراً عظيماً .

فلما مات أبو عبد الله ، تزوجت (صاحبُ) بعضَ العلويِّين. قال على بن يحيي ابن المنَجِّم : فرأيتُه فى النوم وهو يقول :

أبا على ، ما ترى العجائبا   أصبح جسمى فى التراب غائبا
واستبدلت (صاحبُ) بعدى صاحبا !!

ومن شعر أبى عبيد الله ، يكاتب فيه علىّ بن يحيى :

من عذيرى من أبى حسن   حين يجفونى ويصرمنى
كان لى خلا وكنتُ له   كامتزاج الروح بالبدن
فوشى واش فغيَّره   وعليه كان يحسدنى
إنما يزداد معرفة   بودادى حين يفقدنى

وتحدث جحظة فى أماليه قال: قال لى أبو عبد الله بنُ حمدون : حسبتُ ما وصلنى به المتوكل فى مدّة خلافته وهى أربع عشرة سنة وشهور فوجدته ستين ألفاً وثلاثمائة ألف دينار ، ونظرتُ فيما وصلنى به المستعين فى مدة خلافته وهى ثلاث سنين ونيِّفٌ وكان أكثر مما وصلنى به المتوكل . ثم خُلع المستعين وحدر إلى واسط ، ومُنع من كل شيء إلا القوت . فاشتهى نبيذاً فخرجت دايتهُ إلى أهل واسط فتشكت ذلك إليهم . فقال لها رجل من التجار . له عندى كلّ يوم خمسة أرطال نبيذ وشاب . فكانت تمضى إليه فى كل يوم فتجيئهُ به سرًا إلى أن حمل من واسط فقتل بالقاطول.

وأما أبو محمد بن حمدون فذكر جحظة أن مولده فى سنة سبع وثلاثين ومائتين وتوفى ببغداد فى رمضان سنة تسع وثلاثمائة ونادمَ المعتمد وخص به ، وكان من ثقاته المتقدمين عنده ، وله معه أخبار .

وأما أبو العبيس بن أبى عبد الله بن حمدون فهو أحد المشهورين بجودة الغناء والصنعة فيه ، وابنه إبراهيم بن أبى العبيس أيضاً من المجيدين فى الغناء وإشجاء الصوت .

وأنشد جحظة فى أماليه لنفسه يرثى ابن حمدون النديم ، كذا قال ، ولم يعيّنه :

أيَعذبُ من بعد ابنِ حمدونَ مشربُ ... لقد كدِرت بعد الصفاء المشاربُ
أصبنا به فاستأسد الضبعُ بعده ... ودبَّ إلينا من أناس عقاربُ
وقطّب وجه الدهر ، بعد وفاته ... فمن أى وجه جئته فهو قاطبُ
بمن ألج البابَ الشديدَ حجابه ... إذا ازدحمت يوماً عليه المواكب
بمن أبلغ الغايات ، أم من بجاهه ... أنال وأحوِى كلَّ ما أنا طالبُ

أبو العبر

وهو محمد بن أحمد بن عبد الله الهاشمىّ وكان أبوه أحمد يلقّب حمدون الحامض ، ولد لمضى خمس سنين من خلافة الرشيد ، وعاش إلى أيام المستعين .

وكان أول أمره يسلك فى شعره الجد ثم عدل إلى الهزل والحماقة واختلاق الكلام فنفق بذلك نفاقاً كثيراً ، وجمع به ما لم يجمعه أحد من شعراء عصره المجيدين .
ويقول جحظة : لم أر قط أحفظ منه لكل عين ولا أجود شعراً ولم يكن فى الدنيا صناعة إلا وهو يعملها بيده حتى لقد رأيته يعجن و يخبز .

اجتمعت جماعة من الشعراء فى مجلس تتناظر وتتناشد وتتساءل وتعد شعراء زمانهم ، فمرّ بهم أبو العبر فقالوا : وهذا أيضاً يعد نفسه من الشعراء ؟! فمال إليهم وقال : والله أشعر منكم وأعلم : فقالوا ، قد اختلفنا فى بيت فاشتبه علينا فهل نسألك عنه ؟ فقال : نعم فسألوه عن معنى هذا البيت :

عافتِ الماءَ فى الشتاء فقلنا ... برِّديهِ تصادفيه سخينا

كيف تصادفه سخيناً إذا بردته ؟! فقال :أخَفِيَ عليكم ؟ قلنا: نعم ، فقال :هو ليس من التبريد و إنما هو حرفٌ مُدغم ومعناه بل رديه من الورود ، فأدغموا اللام فى الراء كما قال الله تعالى (كلاّ بل ران على قلوبهم) وقوله (وقيل من راقٍ) .

فاستحسنوا ما فسّره وأقروا له بالفضل فقال لهم إنى أسألكم بيتاً كما سألتمونى أما ترون إلى قول دغفل

إن على سائلنا أن نسأله ... والعبء لا تعرفه أو تحمله

فقالوا : سل ، فقال : ما معنى قول القائل :

يامن رأى رجلا واقفاً أحرقه الحر من البرد ! !

كيف يحرقه الحر من البرد ؟ فاضطربوا فى معناه فلم يخرّجوه فسألوه عنه فقال : هذا قولى ، وذلك أننى مررت بحداد يبرد حديداً فمسست تلك البرادة فأحرقت يدى وإنما البرد مصدر برد الحديد برداً ، وليس هو من الشىء البارد ! ! فأقروا له القول.

وكان ماجناً ظريفاً ، واتخذه المتوكل مضحكاً له . فإذا طرب المتوكل أمر بأبى العبر أن يرمى به فى المنجنيق إلى الماء وعليه قميص من حرير فإذا علا فى الهواء صاح : الطريق ، الطريق . ثم وقع فى الماء فيخرجه السبّاح . وكان يجلس أحياناً إلى الزلاقة فينحدر منها حتى يقع فى البركة ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك . . .

وروى له ابن الرومى البيتين :

لو كنت من شىء خلافك لم تكن لتكون إلا مِشْجَباً فى مِشجب
لو أن لى من جلد وجهك رقعة لجعلت منها حافراً للأشهب

وكان يظهر الميل على العلويين والهجاء لهم وجرت منيته على يد رجل من أهل الكوفة من رماة الجلاهق (البندق) ، وخرج معه من بغداد إلى آجام الكوفة للرمى . فسمع الرامى منه كلاماً استحل به دمه فقتله فى سنة خمسين ومائتين

وفى رواية جحظة أن قوماً من الشيعة سمعوه ينتقص علياً عليه السلام فرموا به من فوق سطح كان بائتاً عليه فمات .

أبو العيناء

هو محمد بن القاسم بن خلّاد من بنى حنيفة أهل اليمامة وأسر فى سباء فى خلافة المنصور . فلما صار فى يد المنصور أعتقه . فهم موالى بنى هاشم .

وولد أبو العيناء بالأهواز سنة إحدى وتسعين ومائة .

وكان ضرير البصر . وهو ممن اشتهر بالمجون . وله نوادر وحكايات مستطرفة

ومراسلات عجيبة . وكان شاعراً فصيحاً بليغاً آية فى الظرف والذكاء وسرعة الجواب .

وقال المبرّد إنما صار أبو العيناء أعمى بعد أن نيف على الأربعين . وخرج من البصرة واعتلت عيناه فرمى فيهما بما رمى .

بلغ أبا العيناء أن المتوكل يقول :لولا عمى أبى العيناء لاستكثرت منه ،فقال: قولوا لأمير المؤمنين : إن كان يريدنى لرؤية الأهلّة ونظم اللآلئ واليواقيت وقراءة نقوش الخواتيم فأنا لا أصلح لذلك! وإن كان يريدنى للمحاضرة والمنادمة والمذاكرة والمسامرة فناهيك بى . فانتهى ذلك إلى المتوكل فضحك منه وأمر بإحضاره فحضر ونادمه .

ودخل على المتوكل فسأله : ما أشدُّ ما عليك فى ذهاب بصرك ؟ قال : ما حرمته يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .

ودخل عليه فى قصره المعروف بالجعفرىّ سنة ست وأربعين ومائتين فقال له : ما تقولُ فى دارنا هذه ؟ فقال : إن الناس بنوا الدور فى الدنيا وأنتَ بنيتَ الدنيا فى دارك . فاستحسن كلامه ثم قال له ؟ كيف شربك للخمر : قال : أعجز عن قليله وأفتضح عند كثيره، فقال له : دع هذا عنك ونادمنا، فقال: أنا رجل مكفوف، وكل من فى مجلسك يخدمك وأنا محتاج أن أخدم ، ولست آمن من أن تنظر إلىّ بعين راض وقلبك علىّ غضبان أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلكتُ . فأختار العافية على التعرض للبلاء . فقال: بلغنى عنك بذاء فى لسانك؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد مدح الله تعالى وذم فقال « نعم العبد إنه أوّابٌ » وقال عز وجل « هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم » . وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقاً ولم أشتم النِّكس اللئيم المذمَّما

ففيم عرفت الخير والشرّ باسمه وشقّ لى الله المسامع والفما ؟ !

قال : فمن أين أنت ؟ قال من البصرة قال فما تقول فيها قال ماؤها أجاج، وحرّها عذاب ، وتطيب فى الوقت الذى تطيب فيه جهنم !! ...

وقال له المتوكل يوماً إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك فقال : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

ووضع أبو العيناء كتاباً فى ذم أحمد بن الخصيب حكى فيه أن جماعة من الفضلاء

اجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره ابن الخصيب لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل. فتجاذبوا أطراف الملح فقال أحدهم: كان جهله غامراً لعقله وسفهه قاهراً لحلمه، وقال آخر: لو كان دابة لتقاعس فى عنانه وحرن فى ميدانه، وقال آخر: كنت إذا وقع لفظه فى سمعى أحسست النقصان فى عقلى...

ومن لطائفه: أنه شكا تأخر أرزاقه إلى عبيدالله بن سليمان فقال له: ألم نكن كتبنا لك إلى ابن المدبر، فما فعل فى أمرك؟ فقال: جرّنى على شوك المطال، وحرمنى ثمرة الوعد، فقال: أنت اخترته، فقال: وما علىّ وقد (اختار موسى قومه سبعين رجلاً) فما كان منهم رشيد... (فأخذتهم الرجفة)، واختار النبىّ صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتباً فلحق بالمشركين مرتدًا، واختار علىّ بن أبى طالب أبا موسى الأشعرىّ حكماً، فحكم عليه...

وقال له عبيدالله بن سليمان اعذرنى فإنى مشغول عنك فقال له: إذا فرغت لم أحتج إليك. (يعنى إذا عزل).

ولما استوزر صاعد عقب إسلامه صار أبو العيناء إلى بابه فقيل له: يصلّى، فعاد فقيل له: يصلّى، فقال معذور، لكل جديد لذة !!...

ودخل على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير فقال له: ما الذى أخّرك عنا يا أبا العيناء؟ فقال: سرق حمارى، فقال: وكيف سرق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك !!. فقال: فهلا أتيتنا على غيره، قال: قعد بى عن الشراء قلّةُ يسارى، وكرهتُ ذلّ المُكارى ومنّة العوارى !!...

ودخل على ابن ثوابة عقب كلام جرى بينه وبين الوزير أبى الصقر بن بلبل وكان ابن ثوابة تطاول على الوزير فقال له أبو العيناء: بلغنى ما جرى بينك وبين الوزير، وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم يجد فيك عزًّا فيضعه، ولا مجداً فينقصه. وبعد فإنه عاف لحمك أن يأكله، واستقلّ دمك أن يسفكه! فقال ابن ثوابة: وما أنت والدخول بينى وبين هؤلاء يا مُكدى! فقال: لا تنكر على ابن ثمانين قد ذهب بصره وجفاه سلطانه أن يعوّل على إخوانه فيأخذ من أموالهم، ولكن أشدُّ من هذا من يستنزل الماء من أصلاب الرجال فيستفرغه فى جوفه، فيقطعُ نسلهم ويُعظِم أوزارهم !!

فقال ابن ثوابة : ما تسابَّ اثنان إلا غلب ألأمهما، فقال أبو العيناء : وبذا غلبتَ أبا الصقر بالأمس . فأفحمه !! . . .

وقيل له : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم؟ فقال: ما دام المحسن يحسن والمسيء يسيء، وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلسعُ النبيَّ والذميَّ !! . . .

وقال له ابن الجهم يوماً : يا مخنّث! فقال: «وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه» . ولقيه بعض الكتّاب فى السحر فقال متعجّباً من بكوره : يا أبا عبدالله ، أتبكّر فى مثل هذا الوقت ؟ فقال له أبو العيناء : أتشاركنى فى الفعل وتنفرد بالتعجّب ! ووقف عليه رجل من العامة فلما أحسَّ به قال من هذا ؟ قال: رجل من بنى آدم قال أبو العيناء مرحباً بك — وأطال الله بقاءك — كنتُ أظنُّ أن هذا النسلَ قد انقطع !! . . .

وكتب إلى بعض الرؤساء وقد وعده بشيء فلم ينجزه :

« ثقتى بك تمنعنى من استبطائك ، وعلمى بشغلك يدعونى إلى تذكيرك ، ولست آمنُ — مع استحكام ثقتى بطولك والمعرفة بعلوّ همتك — اخترام الأجل ، فإن الآجال آفاتُ الآمال . فسح الله فى أجلك ، وبلغك منتهى أملك . والسلام » .

ومن شعره :

إن يأخذ اللهُ من عينيَّ نورهما ... ففى لسانى وسمعى منهما نورُ
قلب ذكيّ وعقل غير ذى خطل ... وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

وقال فى الوزير أحمد بن الخصيب

قل للخليفة يا ابن عمّ محمدٍ ... أشكلْ وزيرك إنه ركّال
قد أحجم المتظلمون مخافة ... منه ، وقالوا ما نرومُ مُحال
ما دام مطلقة علينا رجله ... أو دام للنزق الجهول مقال
قد نال من أعراضنا بلسانه ... ولرجله بين الصدور مجال
اِمنعه من ركل الرجال ، وإن ترد ... مالاً فعند وزيرك الأموال

ومن قوله فى الغنى والفقر

إن الدراهم فى المواطن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالا

وقال يهجو أسد بن جوهر (الكاتب)

تعس الزمانُ لقد أتى بعُجاب ومحا رسوم الظَّرف والآداب
وافى بكتَّاب لو انبسطت يدى فيهم رددتهمُ إلى (الكتَّاب) !!
جيل من الأنعام إلاَّ أنهم من بينها خلقوا بلا أذناب
أو ما ترى أسد بن جوهر قد غدا متشبهاً بأجلَّة الكتَّاب
فإذا أتاه مسائلٌ فى حاجة ردّ الجواب له بغير جواب
وسمعت من غثّ الكلام ورثه وقبيحه باللحن والإعراب

وقال :

توات بهجةُ الدنيا فكلٌ جديدها خلق
وخان الناسُ كلهمُ فما أدرى بمن أثق
رأيتُ معالم الخيرا ت ، سدّت دونها الطرقُ
فلا حسبٌ ولا أدبٌ ولا دين ولا خُلق

وقال :

الحمد لله ليس لى فرَسُ ولا على باب منزلى حَرَسُ
ولا غُلام إذا هتفتُ به بادَر نحوى كأنه قبس
ابنى غلامى وزوجتى أمتى ملكنيها الملاك والعُرس
غنيتُ باليأس واعتصمتُ به عن كلّ فرد بوجهه عبَس
فما يرانى ببابه أبداً طلق المحيَّا سمحٌ ولا شرِسُ

وتوفى أبو العيناء ببغداد فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

وزارة أبي الصقر

مِن رُقبةٍ أَدَعُ الزيارةَ عَامِدًا وَأَصُدُّ عنك وعن دِيَارِك حائدًا
حتى أخال من الصَّبابةِ بارئًا خلواً ، وأن كنت المعنى الواجدا
وكأنما كان الشبابُ ذريعةً كنزًا غَنيتُ به فأصبح نافدا
لم ألق مقـدوراً على استحقاقهِ فى الحظ إما ناقصاً أو زائدا
وعجبتُ للمحدودِ يُحرَمُ ناصباً كَلِفًا ، وللمجدودِ يَغْنَمُ قاعدا
وتفاوتُ الأرزاقِ فيما بينهم لا يأتلين نوازلاً وصواعِدا
ما خَطْبُ من حُرِمَ الإرادةَ وادعاً خَطْبَ الذى حُرِمَ الإرادةَ جاهدا
أغشاهُمُ خلسًا فأذهبُ راغباً تلقـاء حيث هُمُ ، وأرجعُ زاهدا
قد قلتُ للراجى المكارمَ مخطئاً إذ كان يكتسِبُ الملاومَ عامدا
لا تلحقنَّ إلى الإساءةِ أختها شرُّ الإساءةِ أن تسيء مُعاوِدا
وارفَعْ يديكَ إلى السَّماحِ مفضلاً إن العُلاَ فى القومِ للأعلى يدا
شَرْوَى أبى الصَّقرِ الذى مدت له شَيبانُ فى الحسناتِ أبعدَها مَدَى
ويَسرُّنِى أنْ ليس يكرُمُ شِيمةً مِن معشرٍ من ليسَ يكرم والدا
والفاضلاتُ خلائقاً وضرائباً للفاضلين مناصِباً ومحامِدا
ومتى سألت عن امرئٍ أخلاقَهُ صَدَقتْ عليـه أدلَّةٌ وشواهدا
وَلِىَ الوزارةَ مُبْقِياً فى أُمّةٍ قد كان شارف هلكها أن يأفدا
يَئِسَت من الإنصافِ حتى وُهِمت باليأسِ أن اللهَ تاركُها سدى
يَسرونَ من بغدادَ تحت قِبابه يغشون آثاراً لهـا ومعاهدا
لولا تكاثرهُن فى عَرَصاتِهِ لصبغن نوراً أو بنين مساجدا
أرْضَاهُ موفوداً إليه ، وحَسْبُهُ بى حين أتبعتُ القـوافى وافدا
شُكراً لِأنعُمِه الجِسامِ ، ولم تَضَعْ نِعَمٌ ملأنَ له البـلادَ محامدا

كيف التأخرُ عنه وهو بطَوْلِهِ ... ليس الوحيد يداً ولستُ الجاحدا

يُوليك صدرَ اليوم قاصيةَ الغِنى ... بعوائدٍ قد كنَّ أمس مواعدا

سَوْمَ السَّحائبِ ما بَدَأْنَ بوارقاً ... في عارضٍ إلا ثَنَيْنَ رواعدا

ومتى رجعت إليه شاكرَ نَيْلِهِ ... رَجَعَتْ مصادرُ ما أنال مواردا

يذكى عزائمَ لو عَنَيْنَ بسبكِهِ ... لسبكن هضبَ (شروريين) الجامدا

إنَّ المناكبَ ليس تعرف أيْداً ... منها ، ولم تجشَّمه عبئاً أيدا

أغرى الخيولَ (بأصبهان) فلا تَسَلْ ... عن رأيه والجيش حين تساندا

وكأنما (الصفّارُ) كان (بفارس) ... فرعونَ مِصر إذا أضلَّ وما هدى[1]

أتبعتَهُ (العِجْليَّ) ثم رَفَدْتَهُ ... (بالكوتكين) مُكانِفاً ومُعاضِدا[2]

فالخوفُ من خلف العليج ودُونَهُ ... مِن مُوبِقاتِ الحرب أوْحاها ردى

تدبيرُ أغلبَ ما يُنَهْنِهُ غالباً ... لمشايحيه مُبادِياً ومكايدا

صَغُرَتْ مقاديرُ الرجالِ وقاربوا ... في السَّعْيِ حتى ما نرى لك حاسدا

لو نافسوكَ لخالَسُوكَ من الندى ... ما يُصْلِحُونَ بهِ الزمانَ الفاسدا

قعدوا ، وأين قيام من قد طُلْتَهُ ... شرفات ما تبني ذُرًى وقواعدا

لم تخلُ من فئةٍ تحفّك رغبةً ... وخلائقٍ يبرزن شخصَك فاردا

وأحقُّ ما عجبتُ منه ضرورةٌ ... تغري المقودَ بأنْ يُطيعَ القائدا ! !

تأبى الألوفُ على الألوف ترى لها ... تبعاً ، وتتبعُ الألوفُ الواحدا ! !

ولقد برعْتَ على الرجال محلّةً ... عُلواً وأفنيةً يرُقْنَ الرائدا

ومددتَ تطلّبُ الذى لم يطلبوا ... كفاً تناولك السماءَ وساعدا

أسهرتَ ليلَ عواذلٍ لولا اللُّهى ... تصغى كرائمها لبتنَ هواجدا

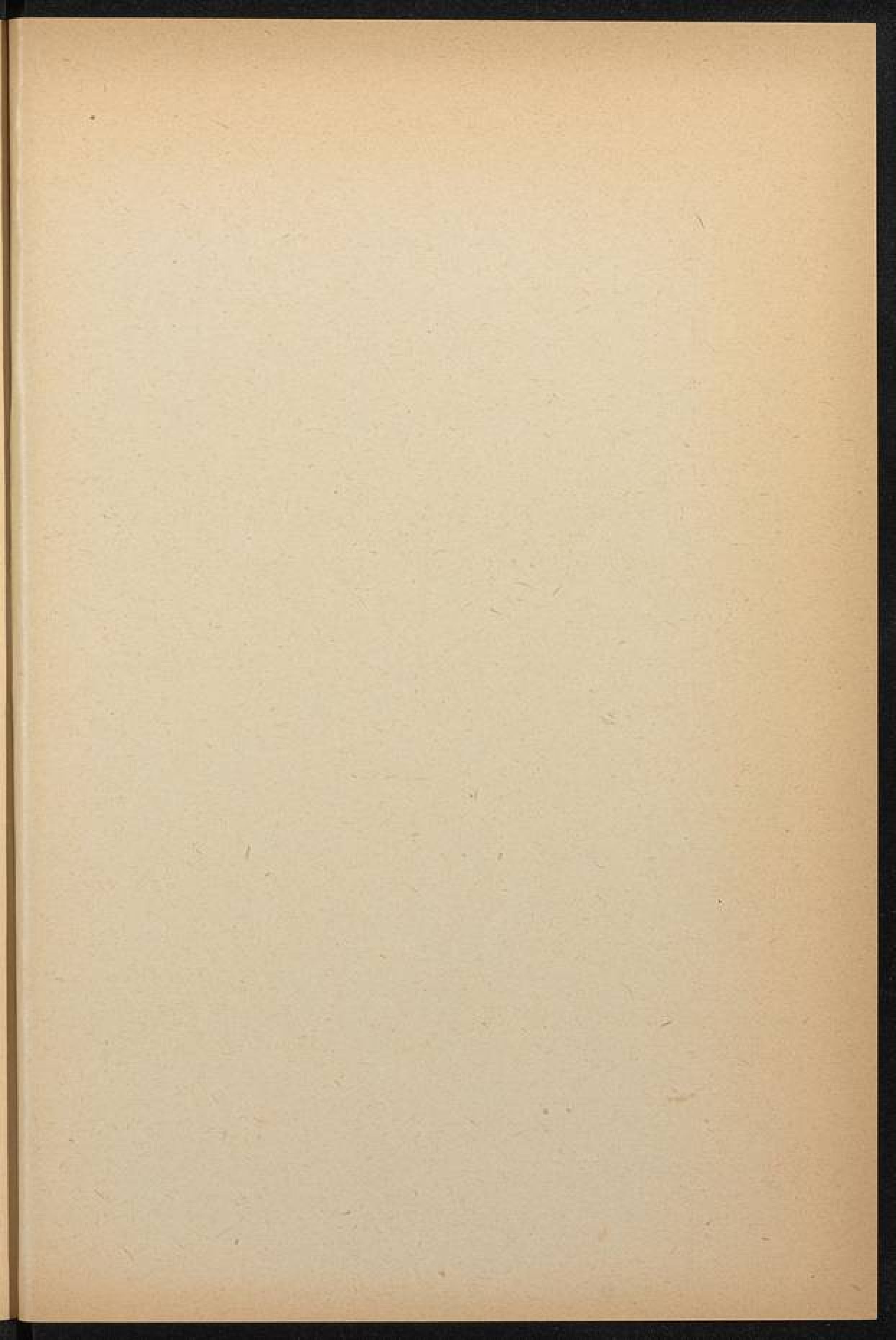
يَشْفينَ منك الغيظَ دونَ معاشرٍ ... يُسقَوْنَ بالذمِّ الزلالَ الباردا

---

(١) الصفار : يعقوب بن الليث الذى أغار على الأهواز . (٢) العجلى : عبد العزيز بن أبي دلف ، والكوتكين أحد قواد الأتراك .

وإذا وَسمْنَكَ والبَخيلَ بِنَبْزَةٍ كنتَ المضلِّلَ والبَخيلَ الراشدا
ولقد عَلِمتَ بأن همَّكَ يَعْتَلى فى (صَاعِدٍ) حتى تنفذ صاعدا
بالنصرِ يمتثل المعادُ المبتدا والمالِ يتبع الطريفُ التالدا
مجدٌ ، وما انفكَّ الزَّمانُ موَكَّلاً بالمجدِ يلحقه الأغر الماجدا
هذى نوَافِلُكَ التى خوَّلتها رجعت غرائبُها إليكَ قصائدا
تعطيكَ شهرتُها النجومَ طوَالعاً وتُريكَ أنْفُسُها الجبال خوالدا
مُتَعسِّفاتٍ مَا تزَالُ رُواتها تأْبَى عليها أن تَسِيرَ قواصدا
وهى القوَافى ما تقرُّ ثَوابتاً لِمُمدَّحٍ حتى تَصِيرَ شواردا
عَلَقٌ لِأنواء الذخائرِ كلما جُلِبَتْ على مُلْكٍ أباح التالدا
والبحرُ لولا أن تَسِيرَ سَفِينهُ بالريح ما برحت عليه رواكدا ! !

البحترى



تُزَيِّدُنِي الأَيَّامُ مَغْبُوطَ عِيشَةٍ   فَيُنْقِصُنِي نقص الليالى مُرُورُها
وأَلحَقَنِي بالشَّيبِ فى عُقْرِ داره   مَنَاقِلُ فى عرض الشَّبابِ أَسِيرُها
مَضَتْ فى شباب الرأسِ أُولَى بطالَتى   فَدَعْنِي يُصَاحِبْ وَخْطَ شيبى أخيرُها
وما صرَعَتْنِي الكأسُ لكنْ أَعَانَهَا   عَلَيَّ بعينيه الغَدَاةَ مُدِيرُها !!

البحترى

الفصل الثامن

ظهـــــور البحترى

ولقبه أبو عبيدة الوليد بن عبيد بن يحيى البحترى ، ولد عام ٢٠٦ هـ فى خلافة المأمون ببلدة منبج وهى قرية من قرى الشام .

وفى تقويم البلدان أن بعض الأكاسرة الذى غلب على الشام بنى منبج وسماها (مَنْبَه) ، وبنى بها بيت نار، ووكل به رجلا يسمى ابن دينار من ولد أردشير بن بابك فعربت منبه وقيل منبج .

ويقال إنما سمى بيت النار منبه فغلب على اسم البلدة . قال ابن حوقل : هى فى برّية الغالب على مزارعها الأعذاء(١) وهى خصبة كثيرة القنى السارحة والبساتين، وغالب شجرها التوت لأجل القزّ . ودور سورها متسع كبير . وغالب السور والبلد خراب .

وبرز البحترى وأبو تمام فى الذروة ، نال إمارة الشعر وفتحت له أبواب القصر ودور الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة الرسميين وغير الرسميين من الوجوه والسراة:

قال صالح بن الأصبغ التنوخى المنبجى :

رأيت البحترى ههنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق ، يجتاز بنا فى الجامع من هذا الباب ، وأومأ إلى جنبتى المسجد ، يمدح أصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر فى ذهابه ومجيئه ! !

وذكر يحيى بن البحترى بأن أول شعر قاله أبوه قاله فى غلام يقال له (شقران) من أهل منبج ، قال ابن البحترى : وخرج أبى فى سفر فلما عاد ورأى شقران وقد نبتت لحيته قال فيه :

نبتت لحية شقرا ن شقيق النفس بعدى
حلقت ، كيف أتته قبل أن ينجز وعدى ! !

---

(١) الأعذاء ج العذى — الزرع لا يسقيه إلا المطر .

وحدّث على بن العباس النوبختى عن البحترى قال :

أول ما رأيت أبا تمام ، أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :

« أأفاق صب من هوى فأفيقا أو خان عهداً أو أطاع شفيقا »

فسر بها أبو سعيد وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت .

(قال) : وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع ، المجلس منه فوق كل من حضر عنده ، تكاد تمس ركبته ركبته . فأقبل على ثم قال: يا فتى أما تستحى منى؟ هذا شعر لى تنتحله وتنشده بحضرتى !! . فقال له أبو سعيد : أحقاً تقول ؟ قال نعم ، و إنما علقه منى فسبقنى به إليك وزاد فيه . ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى و بقيت متحيراً ، فأقبل علىّ أبو سعيد وقال : يا فتى قد كان فى قرابتك لنا وودك لنا ما يغنيك عن هذا . فجعلت أحلف له بكل محرجة من الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته . فلم ينفع ذلك شيئاً . وأطرق أبو سعيد وقطع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض .

فقمت منكسر البال أجر رجلى فخرجت .

فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردونى . فأقبل علىّ الرجل فقال : الشعر لك يا بنى ، والله ما قلته قط ولا سمعته إلا منك ، ولكننى ظننت أنك تهاونت موضعى ، فأقدمت على الإنشاد بحضرتى من غير معرفة كانت بيننا ، تريد بذلك مضاهاتى ومكاثرتى ، حتى عرفنى الأمير نسبك وموضعك ، ولوددت أن لا تلد طائية إلا مثلك !

وجعل أبو سعيد يضحك .

ودعانى أبو تمام وضمنى إليه وعانقنى وأقبل يقرظنى . ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه ، واقتديت به .

وكان أول أمره فى الشعر — كما روى عن نفسه — « أننى صرت إلى أبى تمام وهو بحمص، فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم . فأقبل علىّ وترك سائر الناس . فلما تفرقوا قال أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك ؟ فشكوت

إليه خلة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان ، وشهد لى بالخدمة وشفع بى إليهم وقال : امتدحهم ، فصرت إليهم بكتابه ، يقدمنى طالباً إكرامى ، فأكرمونى ووظفوا لى أربعة آلاف درهم . »

وقال البحترى ، أنشدت أبا تمام شعراً لى فى بعض بنى حميد وصلت به إلى مال له خطر فقال أحسنت أنت أمير الشعراء بعدى . فكان قوله هذا أحب إلىّ من جميع ما حويته .

وأحكمت الصلة بينهما وتوطدت آصرة الود وصارت شبيهة برابطة الأب بالابن . ويقول ابن خلكان إن أبا تمام راسل أم البحترى فى التزوج بها فأجابته وقالت له اجمع الناس للإملاك فقال الله أجل من أن يذكر بيننا ولكن نتصافح ونتسامح ! !

فتنـــــــة الغرام

توهجت حرارة الشباب فى بدن الفتى اليافع ، فإذا به يذرع طرقات حلب يتطلع بروح الهائم القلق إلى أسراب العذارى الهيف ، باحثاً بينهن عن فتاة غرامه . وعلق (بعلوة) بنت زريقة الحلبية وكانت إحدى مغنيات الشام ، فتردد على دارها يستقى من غنائها ما فيه رى الشاعر الغريد

كم ليلة فيك بت أسهرها ولوعة من هواك أضمرها
وحرقة ، والدموع تطفئها ثم يعود الجوى فيسعرها
يا علو علّ الزمان يعقبنا أيام وصل نظل نشكرها
بيضاء رود الشباب قد غمست فى خجل دائباً يعصفرها
مجدولة هزها الصبا فشجا قلبك مسموعها ومنظرها
لا تبعث العود تستعين به ولا تبيت الأوتار تخفرها
الله جار لها فما امتلأت عينى إلا من حيث أبصرها

وجرى الوصل والصدود لتعود الصلة بينهما ثم تنقطع من جديد فيخاصمها ويهجوها

أيكم سائل زريـــــقة عن حال بنتها
هى رتقاء يعجز الو صف عن قبح نعتها

ويشد رحاله إلى العراق حيث عاصمة الدولة ودار السلام ويودع العيش الناعم الغرير، فيذكر وداعه لها فى قصيدته التى نظمها لأمير البحر عبد الله بن دينار عند إبحاره بالسفن لمحاربة الروم

بنفسى ما أبدت لنا حين ودعت ... وما كتمت فى الأنجمىّ المسيّر
أنى دونها نأى البلاد ونصنا ... سَوَاهِمَ خيل كالأعنة ضمّر
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى ... فلم يبق إلا لفتة المتذكر
وخاطر شوق ما يزال يهيجنا ... لباديه من أهل الشآم وحضر

أجل، انصرم الهوى ولم يبق إلا لفتة المتذكر!!

يذكرها فى قصائده فيقول:

أخيال (علوة) كيف زرت وعندنا ... أرق يشرّد بالخيال الزائر

أو يقول:

وحرض شوق خاطر الريح إذ سرى ... وبرق بدا من جانب الغرب لامع
وما ذاك أن الشوق يدنو بنازح ... ولا أننى فى وصل (علوة) طامع

أو يقول:

أرى خلقا حبى (لعلوة) دائما ... إذا لم يدم بالعاشقين التخلق

أو يقول:

قل للسحاب إذا حدته الشمأل ... وسرى بليل ركبه المتحمل
عرج على حلبٍ لحىّ محلة ... مأنوسة فيها (لعلوة) منزل

ويتقلب فى الحب بين ما أهدى إليه من الجوارى والغلمان فيهوى غلاماً اسمه نسيم، فاشتراه حين اشتد به بلاؤه فلما اشتهر حاله، مازحه إبراهيم بن الحسن بن سهل (أبو الفضل) وقال: هل تبيعه قال: لا قال أبو الفضل: خذ فيه ألف دينار، فأبى. وكان لا يساوى أكثر من مائة فقال: خذ ألفين فقال البحترى أحضرهما، فأحضرهما واشتراه ومضى به. فلم يلبث البحترى أكثر من يوم حتى ذهب عقله. وأكثر التردد إلى أبى الفضل فلم يجبه. وزاد به الوجد فكتب إليه قصيدة منها:

أبا الفضل فى تسع وتسعين نعجة غنى لك عن ظبى بساحتنا فرد !!
أتأخذه منى وقد أخذ الجوى مآخذه مما أسر وما أبدى
وتخطو إليه صبوتى وصبابتى ولم يخطه بى ولم يعده وجدى
وقلت اسل عنه والجوانح حوله وكيف سلو ابن المفرغ عن برد ؟!.

فلما وصلته الرقعة ضحك وقال له : أبيعكه بجميع ما تملك فى سائر البلاد فقال البحترى: أفعل ، فباعه بذلك . فلما أصبح أقاله وقال: إياك وهجر الأحرار فإن لهم مكائد.

وله فى نسيم هذا جملة قصائد بعد بيعه ، منها القصيدة التى مطلعها :

قل للجنوب إذا غدوت فبلغى كبدى نسيما من جناب نسيم

والقصيدة التى مطلعها :

إذا شئت فاندبنى إلى الراح وانعنى إلى الشرب من ذى خلة ونديم
أميلوا الزجاج الصفو عنى فاننى أفقت ، وما شخصى لكم بمقيم

وتموت له جارية بدمشق فيتوجع لموتها و يعادى بلاده من أجلها

خليلىّ إنى ذاكر عهد خلة تولت ، ولم أذمم حميد ودادها
فواعجبى ما كان أنضر عودها لدى ، وأدنى قربها من بعادها
وكنت أرى أن الردى قبل بينها وأن افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسى من عاديت من أجل فقده بلادى ، ولولا فقده لم أعادها
فلا سقيت غيثا دمشق ولا غدت عليها غوادى مزنة بعهادها ! !

ويموت غلامه (قيصر) و يرثيه بقصيدة مرة يشكو ما آلت إليه حاله وقد احتكم فيه المشيب :

نصيبى كان من دنياى ولى فلا الدنيا تحس ولا النصيب
تولى العيش إذ ولى التصابى ومات الحب إذ مات الحبيب

كل هذا وما فتئت ذكرى (علوة) تعاوده

وإذا هممت بوصل غيرك ردنى وله إليك ، وشافع لك أول

عهد (لعلوة) باللوى قد أشكلا   ما كان أحسن مبتداه وأجملا

تناءت دار (علوة) بعد قرب   فهل ركب يبلغها السلاما ؟ !

وأى حب كان حب البحترى ؟ ! . .

لم يكن حب الفنان الباحث وراء المثل العليا ، يعشق الروح ويهيم بالذاتية فى صور الجمال المشرقة بل كان فى هواه :

لا أريد النظير يخرجه الشتم إلى الاحتجاج والافتخار

وإذا رعته بناحية السو   ط على الذنب ، راعنى بالفرار

ما بأرض العراق يا قوم حر   يفتدينى من خدمة الأحرار

هل جوادٌ بأبيض من بنى الأصفر ضخم الجدود ، محضِ النجار

لم تَرُع قومه السرايا ولم يغـزهمُ غير جحفلٍ جرار

أو خميس كأنما طرقوا منه بليل أو صبحوا بنهار

فوق ضعف الصغار أن وكل الأمر إليه ، ودون كيد الكبار

رشأٌ تخبرُ القراطقُ منه   عن كنار يضىء تحت الكنار

لك من ثغره وخديه ما شئـت من الأقحوان والجلنار

أعجمى إلا عجالة لفظ عربىٍّ ، تفتح النوار

وكأن الذكاء يبعث منه   فى سواد الأمور شعلة نار

ويرى المرأة مطلباً من مطالب الجسد والمتعة شأنه شأن رجال العهد إلا فيما ندر، يتنافسون فى اقتناء الجوارى والغلمان يتهادى بهم الأصدقاء علامة المودة وإشارة الولاء .

فما المرأة فى نظره إلا عار يلد الأعداء ويورّث الأقاصى البعداء، وما كان وأدها فى الجاهلية إلا حميّة وإباء !!

وعلى غيرهن أحزن يعقو   ب وقد جاءه بنوه عشاء

وشعيب من أجلهن رأى الوحـدة ضعفاً ، فاستأجر الأنبياء

واستزل الشيطان آدم فى الجنـة لما أغرى به حواء

وتلفتْ إلى القبـائل وانظر   أمهـات ينسبن أم آباء

ولعمرى ما العجز عنـدى إلا   أن تبيت الرجال تبكى النساء !!..

فى العراق

نظم البحترى الشعر وهو دون العشرين .

وقدم أبو تمام فى رحلاته إلى الشام فاستقبله البحترى وأعجب به أبو تمام وتوطدت الصداقة بينهما ، وانتفع البحترى بهذه الصداقة ونال تقريظ أبى تمام وأخذعنه ولزمه .

ورحل أبو تمام إلى العراق .

وفى سنة ٢٢٦ هـ ، فى أواخر حكم المعتصم فكر البحترى فى النزوح إلى العراق واللحاق بأستاذه ، ولعل رحيله كان بدعوة من أبى تمام .

وكان إذ ذاك فى أوائل العقد الثالث ، شاباً ممتلئ الأمل موفور القوة يزدهى بصرامته وعضبه .

ففى هذا العام وثب علىّ بن إسحاق بن يحيى بن معاذ ، وكان على المعونة بدمشق ، على رجاء بن أبى الضحاك ، وكان على الخراج ، فقتله . وقبض على علىّ هذا فأظهر الوسواس . وتدخل القاضى أحمد بن أبى دؤاد فى أمره فأطلق من محبسه ، وأقام بسامرّا .

ورجاء بن أبى الضحاك هذا والد الحسن بن رجاء ، أحد كتاب ديوان المأمون ، وكان أديباً شاعراً وتولى فى أيام المتوكل خراج الأهواز .

والظاهر أن البحترى حامت حوله شبهة بنى الضحاك فى التآمر على قتل شيخهم ، أو كان على خصومة معهم ، فساعده ذلك على شد الرحيل إلى العراق عن طريق الجزيرة حيث وفد على واليها « مالك بن طوق » زعيم بنى تغلب فمدحه . وفى مسراه لقيه الذئب فوصف حكايته معه فى « داليته » التى ختمها بالإشارة إلى خصومة « بنى الضحاك » بالأبيات التالية :

إذا جزت صحراء الغوير مغربا ... وجازتك بطحاء السواجير يا سعدُ
فقل لبنى الضحاك مهلا فاننى ... أنا الأفعوان الصلّ والضيغم الورد
بنى ناهلٍ ، مهلاً فإن ابن أختكم ... له عزمات ، هزل آرائها جدُّ
متى هجتموه ، لا تهيجوا سوى الردى ... وإن كان خرقاً ما يحل له عقد
مهيباً كنصل السيف لو ضربت به ... ذرى أجإٍ ظلت وأعلامها وهد
يودّ رجال أننى كنت بعض من ... طوته الليالى ، لا أروح ولا أغدو
ولولا احتمالى ثقل كلّ ملمـة ... تسوء الأعادى ، لم يودوا الذى ودوا
ذرينى وإياهم فحسبى صرامتى ... إذا الحرب لم يقدح لمخمدها زند

ووصل البحترى بغداد وهناك رأى الحسن بن رجاء فقال يعيره بمقتل أبيه وعدم ثأره له ويهجوه :

عفّى علىّ بن إسحاق بفتكته ... على غرائب تيه كنّ فى الحسن
أنسته تفقيعه فى اللفظ نازلةٌ ... لم تبق منه سوى التسليم للزمن
أبا علىٍّ عليك الفوت أو ذكر الإ ... دراك من طالبى الأوتار والأحن
لما رثيت رجاء خلت أنك قد ... ثأرته ببكا القمرى فى الفنن
فنمت عنه ، ولم تحفل بمصرعه ... لا متع الله تلك العين بالوسن
بل ما يسرك ملء الدار من ذهب ... وأن ما كان يوم الدار لم يكن
حرصاً على إرث شيخ ظلّ مضطهداً ... بالشام ، يكبو على العرنين والذقن
دعاك والسيف يغشاه ، فمن بدنٍ ... بغير رأسٍ ، ومن رأسٍ بلا بدنِ
فلم تكن كابن حجرٍ يوم ذاك ولا ... أخى كليب ولا سيف ابن ذى يزن
ولم يقل لك فى وتر طلبت به ... تلك المكارم ، لا قعبان من لبن !!

وليس فى شعر البحترى مدائح فى المعتصم والواثق اللهم إلا قصيدته التى يمدح فيها محمد ابن يوسف الثغرى ويعزّيه عن المعتصم .

وإنما نجده فى خطوات أبى تمام يمدح الوزير ابن الزيات والطاهريين وأولاد حميد بن عبد الحميد الطوسى وأولاد الحسن بن سهل . ولم يمدح القاضى ابن أبى دؤاد وربما نصحه أبو تمام بتجنبه والابتعاد عنه.

مدح الوزير ابن الزيات بقصيدة واحدة لم يقل فيه غيرها ، يذكر له بلاغته وحسن أسلوبه ، منها هذه الأبيات :

لتفننت فى الكتابة حتى عطل الناس عصر (عبد الحميد)
فى نظام من البلاغة ما شكّ امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس ، وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى عن أغانى (مخارقٍ) (وعقيد)
حجج تخرس الألدّ بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعانٍ لو فصلتها القوافى هجنت شعر (جرولٍ) و (لبيد)
حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل البيض إذا رحن فى الخطوط السودِ

والظاهر أنه أدرك بفطنته الخصومة المشبوبة بين الوزير والقاضى فتحاشاهما خشية أن يتهم من أحدهما . فأمن واستراح .

وأقام البحترى فى هذه السنين الواقعة بين سنة ٢٢٦ هـ وسنة ٢٣١ هـ أى إلى بدء خلافة المتوكل يتردد فى صحبة أبى تمام على دور العلية والكبراء من رجال الدولة ويغشى مجالسهم ومجالس الأدباء والندمان وينظم قصائده فيهم . فاهتزوا لشعره وفتحوا له أبواب قصورهم وأدنوه من مغانيهم الفياضة الممتعة .

وفى مجلس من مجالس أبى تمام أنشد البحترى أبا تمام شيئاً من شعره[١]، فأجابه أبو تمام بيت أوس بن حجر .

إذا مقرمٌ منا ذرى حدّ نابه تخمط فينا ناب آخر مقرم[٢]

ثم قال : نعيت إلى نفسى ، فقال له البحترى : أعيذك بالله من هذا فقال : إن عمرى ليس يطول وقد نشأ لطىء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان المنقرى رأى شبيب ابن شبة وهو من رهطه ، يتكلم فقال : يا بنى ، نعى نفسى إلىّ إحسانك فى كلامك لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله .

ومات أبو تمام بعد سنة من هذا الحديث ، وهى سنة إحدى وثلاثين ومائتين وكان وقتئذ على بريد الموصل ودفن بها . وبعده بقليل مات دعبل الخزاعى بالأهواز. فرثاهما البحترى معاً فى أبيات قليلة لم ترو فى ديوانه ، وإنما أنشدها أحد أبنائه « أبو الغوث » ، وذكرها الصولى فى أخبار أبى تمام . وهى :

قد زاد فى كلفى وأوقد لوعتى مثوى حبيب يوم مات ودعبل

وبقاء ضرب « الخثعمى » وشبهه من كل مضطرب العزيمة مهمل

أهل المعانى المستحيلة إن هم طلبوا البراعة فى الكلام المفصل

أخوىّ ، لا تزل السماء مخيلة تغشاكما بحياً مقيم مسبل

جدث على الأهواز يبعد دونه مسرى النعى ، ورمّة بالموصل

ولا ندرى هل اقتطعت هذه الأبيات من قصيدة طويلة أم اكتفى بها البحترى حيث خانته القريحة ، أو لم يساعده الحزن على أتمامها ؟

---

(١) عن رواية البحترى نفسه .

(٢) المقرم — السيد الجليل .

قصر حميد

اعتز المعتصم بالأتراك وجعل منهم حرسه وحاشيته ، ونفر منهم الدهماء لشراستهم وخشونة طباعهم ، فانتقل بهم إلى الفضاء الواقع من شرق نهر دجلة بين تكريت فى الشمال وبغداد فى الجنوب ، و بنى مدينة سامرا أو (سر من رأى) ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار . وجعل للأتراك قطائع متميزة وجاورهم بالفراغنة والأشروسية وغيرهم من أهالى خراسان . وظلت مقر الخلافة ودار الحكم .

و بقيت بغداد مثوى البقية الباقية من الهاشميين وفلول الفرس والعشائر التى استوطنتها منذ شيدها المنصور ، فلا حسن فيها يستوقف البصر إلا دجلة يختال بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة أو كما وصفها أبو تمام .

مثل العجوز التى دالت شبيبتها وبان عنها جمال كان يحظيها

وفى الجانب الغربى من نهر دجلة يتفرع جعفران عرفا بالصراة وأبى عيسى و بينهما شيد حميد بن عبد الحميد الطوسى القائد الفارسى قصره المنيف تكتنفه الأدواح والمروج.

وفى جوانب هذا القصر كانت تعقد مجالس السمر والأحاديث وتقام حفلات الترحيب بالقادمين من رجال الجيش والكتاب والأدباء والشعراء والمغنين والمغنيات . فإذا أهاب داعى النزال ، أوصدت أبواب القصر وهرع صاحبه وأولاده من ورائه ، يخوضون رهج الحرب و يقتحمون شواجر الرماح فى بسالة الكماة الصناديد إلى أن يدبر العداة وتغمد السيوف ، فتفتح أبواب القصر من جديد و يعج بالزوار وتتلألأ أنواره ساطعة من نوافذه منبئة بإياب الغائبين .

وقضى البحترى زهاء سبع سنوات ببغداد بين آل طاهر و بنى حميد وآل سهل يسير فى كنف أستاذه أبى تمام يمدحهم كما مدحهم أستاذه و يتردد على دورهم كما يتردد .

وأحبه آل حميد فرعى لهم هذا الحب وحفظ لهم هذا الوفاء حتى فى مجال العتاب وأسباب الخصومة .

لآل حميد مذهبٌ فيّ لم أكن ... لأذهبه فيهم ولو جدعوا أنفى
وإن الذى أبدى لهم من مودتى ... على عدواء الهجر دون الذى أخفى
وكنت إذا وليت بالود عنهمُ ... دعونى فألقونى لهم ليّن العطف
جعلت لسانى دونهم ولو انهم ... أهابوا بسيفى ، كان أسرع من طرفى !!

طاف البحترى بالقصر ونزل فيه وغاب عنه بغياب أصحابه وعاد إليه بعودتهم :

ألا تريان الربع راجع أنسه ... وعادت إلى العهد القديم معاهده
كقصر حميد بعد ما غاض حسنه ... ورقت حواشيه وأجدب رائده
تلافاه سيب الصامتى محمد ... فعادت له أيامه ومشاهده
فقد جمعت أشتات قوم ، وأصلحت ... جوانب أمر بعد ما التاث فاسده

ويقول لأبى مسلم بن حميد :

أأنت ديار الحى أيتها الربى الأ ... نيقة أم دار المها والنعائم ؟!
وسرب ظباء الوحش هذا الذى أرى ... أمامك أم سرب الظباء النواعم ؟!
وأدمعنا اللاتى عفاك انسجامها ... وأبلاك أم صوب الغيوث السواجم ؟!
وأيامنا فيك اللواتى تصرمت ... مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم ؟!
لقد حكم البين المشتت بالبلى ... عليك ، وصرف الدهر أجور حاكم
لعلّ الليالى يكتسين بشاشة ... فيجمعن من شمل النوى المتقادم

ومنها يخاطبه :

قواعد هذا البيت من مجد طىء ... وأركان هذا البيت من ملك هاشم
أسود يفر الموت منهم مهابة ... إذا فر منه كل أروع صارم
مصارعهم حول العلى ، وقبورهم ... مجامع أوصال النسور الحوائم
أبا مسلم إن كان عرضك سالماً ... فمالك من عافيك ليس بسالم
إذا ارتد يوم الحرب ليلا رددته ... نهاراً بلألاء السيوف الصوارم
وإن غلت الأرواح أرخصت سومها ... هنالك فى سوق من الموت قائم

بضرب يشيد المجد أبيض مشرقا بوجه من الهيجاء أسود قاتم

وتوثقت الألفة بينه و بين أكبرهم محمد بن حميد المعروف بأبى نهشل وكثرت فيه قصائد البحترى إلى حد المداعبة والعتاب كما يداعب الصديق صديقه و يعاتب الأخ أخاه .

وكانوا أربعة إخوة ، سقط منهم ثلاثة فى ميدان القتال هم محمد وقحطبة وأبو مسلم. مات الثلاثة ، و بقى بعدهم أخوهم أبو سعيد وكان كما قدمنا يتولى ديوان الرسائل أيام المستعين . ولم تكن صلة البحترى به أكيدة موطدة كما كانت مع إخوته الأبطال .

ورثاهم أبو تمام بقصائده التى استهلها بالمطالع التالية :

فمنها قصيدته التى أولها :

كفَّى ، فقتل محمد لى شاهد أن العزيز مع القضاء ذليل

وأخرى فى أبى نهشل :

أصَمَّ بك الناعى وإن كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وثالثة ، منها :

بنى حميد ، بنفسى أعظم لكمُ مهجورة ، ودماء منكمُ دفع

ورابعة ، قصيدته الذائعة :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقال يرثيهم جميعاً :

لعمرك ما كانوا ثلاثة أخوة ولكنهم كانوا ثلاث قبائل

وأغلقت منافذ القصر إلى الأبد ، وأقفر ربعه وصارت لياليه كأضغاث أحلام .

ووقف البحترى يبكيهم بهذا الرثاء الموجع :

رثاء بنى حميد

أقصرَ حميدَ ، لا عزاء لمغرمِ ولا قَصر من دمع و إن كان من دم
أفى كل عامٍ لا تزال مروّعاً بفذّ نعيّ تارة أو بتوأم ؟ !
مضى أهلك الأخيارُ إلاّ أقلهم وبادُوا كما بَادت أوائلُ جُرهم
فَصِرْتَ كعش خَلّفتهُ فِراخُهُ بِعَلْياءَ فَرْعِ الأثْلةِ المُتهشّم
أحبّ بنوكَ المكْرُماتِ ، ففرّقتْ جماعتهم فى كل دَهْياءَ صَيْلَم
تدانت مناياهم بهم ، وتباعدت مَضاجعُهُم عن تُرْبكَ المُتنسّمِ
فكلٌّ لهُ قبرٌ غريبٌ ببَلْدَةٍ فمن مُنْجِدٍ نائى الضريح ومُتْهِم
قبُورٌ بأطرافِ الثغور كأنما مواقعها منهـا مواقع أنجم
بشاهقةِ البـذّيْن قبرُ محمد بعيد عن الباكين فى كل مأتم
تَشُق عليه الريحُ كلّ عشيّةٍ جُيُوبَ الغمام بين بكرٍ وأيّمِ
وقبران فى أعلى النباج سقتهما بُرُوقُ سيوف الفوث غيثاً من الدم
أقبرا أبى نصر وقحطبة هما بحيث هما ، أم يذبل ويرمرم
وبالموصل الزوراء مَلْحَدُ أحمـد وبين ربى القاطولِ مَضْجَعُ أصرم
وكم طلبتهم من سوابق عَبْرَةٍ متى ما تنهنه بالملامة تسجم
نوادبُ فى أقصى خراسانَ جاوَبَتْ نوائحَ فى بغدادَ بُحّ الترنّمِ
لهن عليهم حَنّةٌ بعد أنّةٍ ووَجدٍ كدفّاع الحريق المضرّم
أبا غانمٍ أوْدَى بنيك اعتقادُهُم بأنّ الردى فى الحرب أكبرُ مغنم
مَضَوْا يَسْتَلِذُّونَ المنايا حَفيظَةً وحفظاً لذلك السؤدد المتقدم
وما طعنوا إلا برمح موصلٍ ولا ضربوا إلا بسيف مثلَّم

ولما رأوا بعض الحياة مَذَلّةً ... عليهم ، وَعز الموت غير محرم
أبوا أن يذوقوا العيش والذم واقع ... عليه ، وماتوا ميتةً لم تذمم
وكلُّهمُ أفضى إليه حِمامه ... أميراً على تدبير جيش عرمرم
تولى الردى منهم بهبَّةِ صارمٍ ... ومَجّةِ ثعبان ، وعَدْوَةِ ضَيْغَم
حُتُوفٌ أصابتها الحتوفُ ، وَأسْهمٌ ... من الموت كرَّ الموت فيها بأسهم
ترى البيضَ لم تعرفهمُ حين واجهت ... وجوههم فى المأزق المتجهم
ولم تتذكرْ ريَّهَا بأكفهم ... إذا أوردوها تحت أغبرَ أقتم
بلى، غير أنَّ السيْفَ أغْدَرُ صاحبٍ ... وأكفر من نالته نعمة منعم
بنفسى نفوسٌ لم تكن جملة العدى ... أشدَّ عليها من وقوف التكرم
ولو أنصفت نَبْهَانُ ما طلبت بها ... سوى المجد ، إن المجد خُطّةُ مُغرم
دعاها الرَّدى بعد الردى فتتابعت ... تتابع منبتٍّ الفريدِ المنظم
سلامٌ على تلك الخلائقِ إنَّها ... مسلّمةٌ من كل عارٍ ومأثم
مَساعٍ عِظامٌ ليس يَبْلى جَدِيدُهَا ... وإن بَليتْ منها رِمَامٌ أعْظم
ولا عَجَبٌ للأسْدِ أنْ ظَفِرَتْ بها ... كِلابُ الأعادى من فَصِيح وأعجم
فحَرْبةُ وَحشىٍّ سقتْ حمزةَ الرَّدى ... ومَوتُ علىٍّ من حُسَام ابن ملجم
أبا مسلمٍ ، لا زلت من مُودع لنا ... من المُزْنِ مسكوب الحيا ومُسلِم
مَدامعُ باكٍ من بنى الغيثِ وَالِهٍ ... أعارَكَها أم ضاحكٍ متبسم
لَئن لم تمت نهبَ السيوف ولم تقم ... بواكيك أطراف الوشيج المقوم
لبالركض فى آل المنيَّة معلما ... إلى كل قِرْمٍ بالمنية معلم
وحملك ثِقْلَ الدِّرْعِ يحمى حَديدَها ... على حَرِّ جسمٍ بالحديد مهدم
وَمَا حدثٌ فيه ابتسامُكَ للندى ... إذا أظلمتْ أحداثُ قومٍ ، بمظلم !!

شاعر البلاط

من ٢٣١ — ٢٤٧ هـ

خلا الجو للبحترى بموت أبى تمام ودعبل الخزاعى ، فانفرد بإمارة الشعر ولم يبق أمامه من يزاحمه إلا إذا ذكرنا الحسين بن الضحاك وعلى بن الجهم .

فالأول كان فى أواخره قد هدمته الشيخوخة ، ومات ولده الوحيد وأصبح على حد قوله لأحد زواره :

أصبحت من أسراء الله محتبساً   فى الأرض ، نحو قضاء الله والقدر
إن الثمانين إذا وفيت عدتها   لم تبق باقية منى ولم تذر

فهو تعدى زمانه ولم يكن فى وجوده خطر على البحترى يخشاه أو يهابه .

والثانى أسقطته السعاية والوشاية بين معاصريه ، فنفى وحبس . وخرج من الحبس وماله من صديق لشيوع هجائه فى الطالبيين وذمهم والحملة عليهم ، وتحاماه الناس كرهاً . فهجر بغداد نازحاً إلى الشام ، حيث قتله الأعراب فى طريقه .

وتطلع البحترى إلى ثلاثة سجراء ، جمعهم الأدب وألفتهم الميول والأهواء . هم الوزير الفتح بن خاقان ، وعلى بن يحيى المنجم ، ومحمد بن يزيد الثمالى (المبرد) . وكل منهم كانت له الرئاسة والمكانة الملحوظة .

فالفتح بن خاقان ربيب القصر ، عنى به المعتصم ورعاه الواثق وقربه المتوكل وجعله وزيره ونجيّه .

وعلى بن يحيى المنجم غدا ظل الخليفة فى سمره ، ونديمه فى أنسه ولهوه بما حصل عليه من علم ورواية وبما أتقنه من (بروتوكول) أو رعاية لجانب الأصول والعرف .

والمبرد صار إمام البصريين وأمين الفتح لا يسير إلا به ولا يقرأ إلا عليه . وفيهما يقول الشاعر للمبرد :

رأيتك والفتح بن خاقان راكباً فأنت عديل الفتح فى كل موكب
وكان أمير المؤمنين إذا رنا إليك ، يطيل الفكر بعد التعجب!!

ورقى البحترى إلى مكان الفتح عن طريق على بن يحيى المنجم . فهو يقول له ويستنجزه وعده ويطلب منه تذكير الأمير بمكانته ومنزلته .

ما أنصفت بغدادُ حين توحشت لنزيلها وهى المحل الآنس
لم يرع لى حق القرابة طىء فيها ، ولا حق الصداقة فارس.
أعلىَّ من يأملك بعد مودة ضيعتها منى ، فإنى آيس
أوعدتنى يوم الخميس ، وقد مضى من بعد موعدك الخميس الخامس
قلْ للأمير فإنه القمر الذى ضحكت به الأيام وهى عوابس
قدمت قدامى رجالا كلهم متخلف عن غايتى متقاعس
وأذلتنى حتى لقد أشمتَّ بى من كان يحسد منهمُ وينافس
وأنا الذى أوضحت غير مدافع نهج القوافى وهى رسم دارس
وشهرت فى شرق البلاد وغربها وكأننى فى كل نادٍ جالس

وأقبل عليه الفتح بكليته فكانت بسمة الأيام للبحترى ، وصار رابع الثلاثة لا يجتمعون إلا بحضوره ولا ينشدون إلا شعره . وكثرت قصائد البحترى فى الفتح ونال من بره ورفده ما دفع الحساد للنيل منه و إقصائه ، فادعوا للفتح أنه هجاه وثلبه فلوى وجهه عنه .

واستبطأ البحترى رفد الفتح ، وثارت فيه حميته العربية فأنشده قصيدته الميمية فى شمم الأبى النافر واستعطاف الصاحب المدلل ، ويخاطبه :

عذيرى من الأيام رنقن مشربى ولقيننى نحساً من الطير أشأما
وأكسبننى سخط امرئ بت موهنا أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما
تبلج عن بعض الرضى، وانطوى على بقية عتب شارفت أن تصرما
إذا قلت يوماً قد تجاوز حدها تلبث فى أعقابها وتلوما

وأصيد إن نازعته اللحظ رده ... كليلا ، وإن راجعته القول جمجما
ثناه العدى عنى ، فأصبح معرضاً ... وأوهمه الواشون حتى توهما
وقد كان سهلا واضحاً فتوعرت ... رباه ، وطلقا ضاحكا فتجهما

ومنها :

أعيذك أن أخشاك من غير حادث ... تبين أو جرم لديك تقدما
ألست الموالى فيك غر قصائد ... هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء تخال الروض منه منورا ... ضحى ، وكأن الوشى فيه مسهما
ولو أننى وقرت شعرى وقاره ... وأجللت مدحى فيك أن يتهضما
لأ كبرت أن أومى إليك بأصبع ... تضرع أو أدنى لمعذرة فما
وكان الذى يأتى به الدهر هيناً ... علىّ ، ولو كان الحِمَامَ المقدّما
ولكننى أعلى محلاك أن أرى ... مُدلاً ، وأستحييك أن أتعظما
أعدْ نظراً فيما تسخطت هل ترى ... مثالا دنيًّا أو فعالا مذمما
رأيت العراق ناكرتنى ، وأقسمت ... علىّ صروف الدهر أن أتشأما

ورضى عنه الفتح وصفح . وعادت المودة بينهما على أحسن ما كانت عليه من صفاء ونقاء .

وقامت خلافة المتوكل ووزرله الفتح .

وعمل البحترى على أن يظفر من رضى الخليفة بنصيب فينال عطاءه وجدواه . وأصبح طموحه معلقاً بركاب الفتح يستحثه ويلحف عليه بتقديمه لمولاه

لما لقيت بك الزمان تصدعت ... عن ساحتى أحداثُه وصروفُه
وأمنته ، ولو ان غيرك ضامن ... يوميه ، لم يؤمن عليه مخوفه
فلئن جحدت عظيم ما أوليتنى ... إنى إذن واهى الوفاء ضعيفه
لم يأت جودك سابقاً فى سؤدد ... إلا وجاهك فى العفاة رديفه
غيثان إن جدب تتابع ، أقبلا ... وهما ربيع مؤمل وخريفه[1]

---

(١) أقبلا — يعنى الجود والجاه فى البيت السابق .

فهلمّ وعدك فى الإمام فإنه　　فضل إلى جدوى يديك تضيفه
وهو الخليفة إن أسر، وعطاؤه　　خلق ، فإن نقيصة تخليفه

وحقق الفتح له مبتغاه ، وقدمه للمتوكل فدخل عليه وأنشده قصيدته التى مطلعها

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله　　وأبدى الجواب الربع عما تسائله

وفيها يصف دخوله إليه وسلامه عليه

ولما حضرنا سدّة الإذن أخّرت　　رجالٌ عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيتُ من قُرب إلى ذى مهابة　　أقابل بدر الأفق حين أقابله
فسلمت واعتاقتْ جنانى هيبةٌ　　تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة ، وانثنى　　إلىّ ببشر آنستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرىء　　جميل محياه ، سباط أنامله

وبذلك تم للبحترى ما أراد ، ونال مبتغاه . أضافه الخليفة ووزيره ولحق بالحاشية وأصبحت مكانته من القصر مكانة رجل منه عرف دخائله وخفاياه ، وعرف رجاله وذراريه ، لا يمنعه آذن ولا يقصيه حاجب . فهو شاعر القصر ينشد فى كل مناسبة وفى كل حفل . وهو البارز المقدم فى الإنشاد .

اصطفاه المتوكل وضمه إلى ندمائه وخاصته ، يجلس معه إلى الشراب ويكيل له العطايا بغير حساب .

حدث البحترى : دخلت على المتوكل يوماً فرأيت فى يديه درتين ما رأيت أشرق من نورهما ، ولا أنقى بياضاً ولا أكبر ، فأدمت النظر إليهما ، ولم أصرف طرفى عنهما . ورآنى المتوكل فرمى إلى التى كانت فى يده اليمنى . فقبلت الأرض وجعلت أفكر فيما يضحكه طمعاً فى الأخرى ، فعن لى أن قلت :

بسرّ مرّا لنا إمام　　تغرف من كفه البحار
خليفة يرتجى ويخشى　　كأنه جنة ونار
الملك فيه ، وفى بنيه　　ما اختلف الليل والنهار

يداه فى الجود ضرتان هذى على هـذه تغار
وليس تأتى اليمين شيئاً إلا أتت مثله اليسار !

فرمى بالدرة التى كانت فى يساره وقال ، خذها يا عيار !

واجتازت يوماً جارية للمتوكل ومعها كوز ماء فقال لها : ما اسمك قالت : برهان قال : ولمن هذا الماء قالت : لستى (قبيحة) قال : صبيه فى حلقى فشرب على آخره ثم قال للبحترى : قل فى هذا شيئاً فقال البحترى :

ما شربة من رحيق كأسها ذهب جاءت بها الحور من جنات رضوان
يوماً بأطيب من ماء بلا عطش شربته عبثاً من كف (برهان)

وهما بيتان على البديهة جاءا عفو الخاطر بلا قياس ، ونالا من سرور المتوكل منتهاه .

وعلى هذا الغرار سجل البحترى للخليفة كل أثر . وإن القارئ ليجد فى ديوانه صفحات لأعمال المتوكل وخطواته ، وأخرى للياليه المشرقة فمن بناء القصور إلى الاحتفاء بالأعياد إلى تحيات بالسفر والإقامة بالشام وعودته منها إلى وصف البركة الحسناء إلى سباق الخيل فى الحلبة ، وكلها قصائد رائعة لا يتسع الكتاب لتدوينها ونقلها ، وإنما نومئ إليها من بعيد . وكلها شاملة للرقة والعذوبة والسهولة الصافية التى برع فيها البحترى .

وكانت أيام حكم المتوكل وتبلغ نحو خمسة عشر عاماً هى عمر البحترى كله مضمخة بترف القصور وأبهة الملك .

وما انتهت حياة المتوكل بعدها على تلك الصورة الشنعاء حتى ارتج على البحترى ووقف مذهولا حائراً من هول الصدمة ، ينظر إلى الدنيا أمامه فإذا الحوادث تترى تباعاً ، وإذا به يجد الكتلة المتجمعة من الصحاب قد تفرقت أيدى سبا . فلا يرى إلا شيعاً وأحزاباً . ويتلفت من حوله فيجد العيون ترقبه والجاسوسية متآمرة من أضداد راصدين للكيد والاغتيال .

دموع الوفاء

جاءت فجيعة المتوكل شديدة على البحترى ، فهزته هزًّا وهو فى أسعد أيام حياته . وتعاقبت الحوادث وشيكا على أثرها . ففى أعوام سبعة تداول خمسة خلفاء كلهم أضداد وأعداء ، ولكل فريق منهم حاشية وحجاب . وكثر فى عهدهم الفتك والانتقام ، الفريق القائم بالحكم ينكل بالفريق الآخر المعادى له فإذا تغلب الثانى سعى بالأول وأراق دماء أنصاره واستصفى أموال كتابه .

اضطرب العهد، ولم يعد أى شخص يأمن لنفسه و يطمئن لمقامه.فإذا قال المرزبانى فى الموشح : إن البحترى هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم ، منهم خليفتان ، هما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم «وإن حاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطريقة » — إذا قال المرزبانى ذلك وجب علينا أن نتحرى الأسباب والدوافع .

يروى صاحب الأغانى عن ابن البحترى أبى الغوث أنه «لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كل شىء قلته فى الهجاء، ففعل . فأمره بإحراقه ثم قال له: يا بنى هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحاً فعل بى وقد انقضى أربى فى ذلك ، و إن بقى روى. وللناس أعقاب يؤرثونهم العداوة والمودة، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه . قال (أبو الغوث) : فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته » .

وللقارئ أن يحكم من قصص الحوادث التى سردناها فى فصولها كيف انقلبت الدولة إلى ثورات تدبر ومؤامرات تحاك . ومثل البحترى لم يكن له مفر من مجاراة الحوادث وقبولها على علاتها برجالها وأناسها .

فالذى يأخذ على البحترى تقلبه بين ممدوحيه ، وقد كان بعضهم لبعض عدوا ، ويظهره بأنه كان ممثلا فى صناعته ، يمثل العواطف المختلفة تمثيلا متقناً تغلب عليه

الصناعة اللفظية حتى يحسبها بعض القراء عاطفة حسية ، إنما يظلم الرجل فى وفائه وصدق عاطفته . فهذه الصورة قد تبدو ظاهرة فى شعر البحترى لمن يقرأه بعيداً عن الظروف والملابسات التى أحاطت بالشاعر فى عصره .

قتل المتوكل أمام عينى البحترى فهل حال هذا عن وفاء البحترى له ؟ ! وهل حقيقة أن البحترى نسى المتوكل ولم يذكره ؟ ! . .

لقد رثى البحترى المتوكل بقصيدة من غرر المراثى ، وظل على ذكراه حتى اللحظة الأخيرة .

وإنما عاش بعده شاعر الدولة يكلف بوضع القصيدة فى مدح الخلفاء والأمراء القواد ؛ ونقول يكلف لأنه لم يكن مخيراً فيما نظمه من الشعر كما قال فى هجاء القائد على بن يحيى الأرمنى وهو يذكر المتوكل والفتح بن خاقان :

أمن بعد وجد الفتح بى وغرامه ومنزلتى من جعفر ومكانى
«أكلف» مدح الأرمنى على الذى لديه من البغضاء والشنآن ؟!
ومن خلق يستنكف الكلب أن يرى له جار بيت أو رضيع لبان
نديمىّ لا زال السحاب موكلا يجودكما بالسح والهطلان
فلو كان صرف الدهر حرًّا عداكما إلىّ ، وما ناصاكما وعدانى

عاش على هذه الوظيفة ، وما حالت دون إعلان عاطفته نحو وليبه . وإنك لتجد أثر ذلك فى نفسه الكئيب حين رحل ميمماً شطر إيوان كسرى فى الجنوب يبثه أشجانه ويتسلى عن الحظوظ . وهو فى هذا الموقف والدنيا موصدة فى وجهه والأرصاد منبثة من حوله ، لا يستطيع الفكاك فيقفل راجعاً على مضض .

ويستشفع له محمد بن طاهر فيشكر له شفاعته ويخاطبه :

ودافعت عنى حين لا الفتح يرتجى لدفع الذى أخشى ولا المتوكل

ويدخل على أحمد بن الخصيب كاتب المنتصر ، ويقف قائماً ينشده مدحاً له فيحلف عليه ابن الخصيب ليجلسن فيجلس .

وبعد ذلك يقربه ويسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه ، فينال رفده ورضاه .

وكلما مرت عليه السنون اهتاجته الذكرى وعاوده الحنين، فيخاطب غلامه المفقود وينشج نشيج الواله يندب المتوكل والفتح :

عسى آيس من رجعة البين يوصل ودهر تولى بالأحبة يقبل

. . . .

بكرهى رضا العذال عنى وإنه مضى زمن قد كنت فيه أعذل

فلا تعجبن إن لم يغل جسمى الضنى ولم يخترم نفسى الحمام المعجل

فقبلك بان (الفتح) عنى مودعا وفارقنى شفعا له المتوكل

فما بلغ الدمع الذى كنت أرتجى ولا فعل الوجد الذى خلت يفعل

وما كل نيران الجوى تحرق الحشى ولا كل أدواء الصبابة يقتل

ويسر إلى خلصائه بما فى نفسه فيقول لإبراهيم بن المدبر من قصيدة :

وكيف تعاطى اللهو والرأس مخلس مشيبا، وشرب الراح من بعد جعفر؟!

قنعت وجانبت المطامع لابسا لباس محب للنزاهة مؤثر

وآنسنى علمى بأن لا تقدمى مفيدى، ولا مزرٍ بحظى تأخرى

ولو فاتنى المقدور مما أرومه بسعى، لأدركت الذى لم يقدر!!

فالحسرة كانت لا تفارقه والماضى دائم المثال لعينيه .

وأقام فى مسقط رأسه بمنبج حتى أدركته الشيخوخة، وهو دائب الذكرى للمتوكل وأيامه الحسان . يرى الدنيا تتضاءل وتنحسر عنه، فيجزع ولا يتمالك أن يتجالد وهو موهون القوى . ويتلفت فلا يرى الناس ناسه ولا سيطرة الحكم التى ينعم بفيئها فيستسلم لليأس ويركن إلى هذه الليالى السود . وفى ذلك يقول من قصيدة كتبها للمبرد سنة خمس وسبعين ومائتين، أى بعد ما يقرب من ثلاثين سنة من حكم المتوكل يمدح فيها الوزير إسماعيل بن بلبل (أبا الصقر) :

فمن مُبلغ عنى (الثمالى) إنه مكان اشتكائى خالياً وتفرجى

أرانا وقيدى كبرة وتكاوس على مملق من مطلب الحاج أعرج

بعيدين لا ندنى لأنس فنجتبى عليه، ولا ندعى لخطب فننتجى

مضى جعفر والفتح ، بين مرمل ... وبين صبيغ بالدماء مضرج

أأطلب أنصاراً على الدهر بعد ما ... ثوى منهما فى التراب أوسى وخزرجى

أولئك ساداتى الذين برأيهم ... حلبت أفاويق الربيع المثجج

مضوا أمماً قصداً ، وخلفت بعدهم ... أخاطب بالتأمير والى (منبج)!!

وهكذا نجد عواطف البحترى موزعة فى قصائده . لم يترك فرصة لإبرازها فى كل مناسبة تتاح . والباحث المدقق يلمحها فى شعره وكأنها نبرات موقعة على خلسة السمع .

فإذا ليم البحترى على إيثاره الهرب ساعة مقتل المتوكل ولم يتصد كالفتح بن خاقان للفداء ، فتلك طبيعة النفس الآدمية فى الحرص على البقاء ، وحسبه هذه الذكريات التى بقيت تحز فى صدره دليلا على بعض الوفاء ! ! .

بعد المتوكل

قتل المتوكل ومعه وزيره الفتح بن خاقان ، أما البحترى فقد نجا بنفسه ولاذ بالفرار .

ولم يستطع البحترى أن يبدى أى حركة تنم عن الطعن فى الانقلاب الذى وقع ، فكظم غيظه وأخذ يحتاط لنفسه ويقيها شر النقد والتجريح ، فجارى المظاهر بمدح الخلفاء والولاة . وهو فى وعيه الباطن وفى أحلامه باق على رسوم الماضى وآثاره .

أخذ فى تدبير وسيلة للهرب ففشل . وأقام فى بغداد يطل عليها منقبض النفس والليالى تمر ثقيلة عليه :

وأطربت لى بغداد إطراء مادح ... وهذى لياليها ، فكيف شهورها !

فبقى مكانه . يدعى لبلاط الخلفاء ينشر الدعاية لكل منهم ، ويطرى مناقبه ويعدد خلاله ويصف كرمه وجوده .

وبلغت شهرته أوجها . وأصبح اسمه يردد فى أروقة الخاصة وهم طبقات الخلفاء

والأمراء والوزراء حتى فضله بعضهم على أستاذه أبي تمام .

ولبث شاعر القصر لا ينازعه فى اللقب أحد من معاصريه ، تتلى قصائده وتروى أشعاره بين الإعجاب والتهليل . يسعى إليه الكبراء والعظماء يحفون بمجلسه و يؤدبون له الولائم والمآدب و يغدقون عليه المنح والعطايا .

قال ميمون بن هارون : رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيي بن جابر بن داود البلاذرى ، وحاله متماسكة ، فسألته فقال : كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال : لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترى فى المتوكل :

فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لمشى إليك المنبر

فرجعت إلى دارى ، وأتيته وقلت : قد قلت أحسن مما قاله البحترى فقال : هاته فقلت :

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته يظن ، لظن البرد أنك صاحبه

وقال ، وقد أعطيته ولبسته ، نعم هذه أعطافه ومناكبه !!

فقال ارجع إلى منزلك وافعل ما آمرك به . فرجعت و بعث إلى سبعة آلاف دينار وقال ادخر هذه للحوادث من بعدى ، ولك على الجراية الكفاية مادمت حياً .

والشاهد من هذه الرواية أن البحترى كان نموذج العصر وقدوته . يتمثلون بأقواله وتفكيره و يستشهدون بمدائحه وتصويره . فلا يرضى مثل المستعين من شعر الشعراء إلا بمثل ما مدح به البحترى الخليفة المتوكل .

وظل البحترى على حاله بين الخوف والحذر ، مدح المنتصر والمستعين وكان الثانى مناصراً لوصيف و بغا قاتلى المتوكل فسلم قياده لهما يتصرفان فى كل أمر . ويعزو المسعودى إلى البحترى أنه هو الذى نظم الأبيات الآتية فى خلافة المستعين :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف[1]

وطغوا ، فأصبح ملكنا متقسما وإمامنا فيهم شبيه الضيف !!

---

(١) لعله يقصد جعفر بن محمد وهو المتوكل ونرجح أن هذه الأبيات ليست من نظم البحترى لأنها بعيدة عن صياغته . ولم نعثر عليها فى ديوانه .

مدح البحترى الخليفة المنتصر بشفاعة كاتبه أحمد بن الخصيب ثم مدح المستعين بضغط الموالى وهو ملحوظ بأعين الرقباء والحراس :

أأرهب الدهر أو أخشى تصرفه والمستعين مجيرى منه أو جارى
وأنت ما أنت فى رفدى وأعطيتى قدماً، و إيجاب تقديمى و إيثارى (١)
فكيف تهمل أسبابى وتغفل عن حظى، وترضى بإسلامى و إخفارى!
تأت فى رسمى الجارى بعارفة كما تأتيت لى فى رزقى الجارى

وقتل المستعين أتامش وكاتبه شجاعاً بإيعاز من وصيف وبغا فيقول البحترى :

لقد سرنى أن العواقب روعت عداكم برأسى تامش وشجاع
وكانا خبيثى ظاهر وسريرة لكم، وقبيحى رؤية وسماع
أقاما قرينى غيـة وضلالة وباتا قتيلى عزة وضيـــاع
وقد أمرا بالرشد حيناً فعاصيا وكم آمر بالرشد غير مطاع

وله فى موضع آخر يمدح المستعين و يشير إلى موتهما :

لقـد نصر الإمام على الأعادى وأضحى الملك موطود العماد
وعرفت الليـالى فى شجاع وتامش كيف عاقبـة الفساد
تمـادى منهما غىٌّ فلجَّا وقد تردى اللجاجة والتمـادى
وضلا فى معاندة المـــوالى فما اغتبطا هنالك بالعناد

و يحدث الانقسام المعروف بين مؤيدى المستعين ومؤيدى المعتز (ابن المتوكل) فينضم البحترى إلى أنصار الثانى ابن مولاه المتوكل وأعز أولاده .

ولما تنازل المستعين عن الخلافة هجاه البحترى بقصيدته التى مطلعها :

يجانبنا فى الحب من لا نجانبـه ويبعد منا بالهـوى من نقاربه

وفيها يخاطب المستعين وقد سماه المستعار . . .

ألا هل أتاها أن مظلمة الدجى تجلت، وأن العيش سهل جانبه

---

(١) الخطاب موجه لأبى صالح بن يزدان وزير المستعين

وأنا رددنا المستعار مذمما على أهله، واستأنف الحق صاحبه
عجبت لهذا الدهر أعيت صروفه وما الدهر إلا صرفه وعجائبه
متى أمل السفاك أن تصطفى له عرى التاج، أو تثنى عليه عصائبه (١)
فكيف ادعى حق الخلافة غاصب حوى دونه إرث النبى أقاربه
بكى المنبر الشرقى إذ خار فوقه على الناس ثور قد تدلت غباغبه
ثقيل على جنب الثريد مراقب لشخص الخوان يبتدى فيواثبه
إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم يبل أضاء شهاب الملك أو كل ثاقبه
إذا بكر الفراش ينثو حديثه تضاءل مطريه وأطنب عائبه
تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله فطورا ينازيه وطوراً يشاغبه
فكيف رأيت الحق قر قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
ولم يكن المغتر بالله إذ شرى ليعجز ، والمعتز بالله طالبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر وعرّى من برد النبىّ مناكبه
وقد سرنى أن قيل وجّه مسرعاً إلى الشرق تحدى سفنه وركائبه

ويعتلى العرش المعتز فترتسم على وجهه ابتسامة الرضى والرجاء ويتلهف قائلاً :

ألا هل يَحْسُنُ العيـــش لنا مثل الذى كانا ؟
وهل ترجع يا نا ئل بالمعتز دنيانا ؟

ويقبل عليه البحترى يهنئه بالدولة والنيروز ويرجو منه أن يفك عقاله ويطلقه ولو إلى زمن يسير ليرى أولاده ويرم ضيعته فقد زاد الغرام فى شوقه وهاجته زجل الرواعد إلى الرحيل :

هل أطلعن إلى الشآم مبجّلاً فى عز دولتك الجديد المونق
فأرمّ خلّة ضيعة تصف اسمها وألم ثم بصبية لى دردق (٢)
شهران إن يسّرت إذنى فيهما كفلا بألفة شمـلى المتفرق

(١) فى الديوان الدياك ولم أجد لها أصلا فى القاموس (٢) دردق — صغار .

قد زاد فى شوقى الغمام وهاجنى — زجل الرواعد تحت ليل مطرق

لما استطار البرق، قلت لنائل : — كيف السبيل إلى عنان مطلق ؟!

وانطلقت أساريره واهتزت مشاعره وفرح بدولة المعتز وأمل فيها عودة أيام أبيه المتوكل

جدد إحسانك لى دولتى — وزاد فى جاهى وفى قدرى

و بيت المعتز للانتقام من قاتلى أبيه (وصيف و بغا) فقتلهما ، وفى رواية التاريخ « أنه كان فى حياة بغا لا يلتذ بالنوم ، ولا يخلع سلاحه لا فى ليل ولا فى نهار خوفاً منه » ، فقال له البحترى وكأنه شفى ما فى نفسه منهما :

فاليوم عاودت الخلافة عزها — وأضاء وجه الملك بعد ظلام

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه — وكأنهم حلم من الأحلام

ولكى يتنصل المعتز من تبعة القتل أمر بتعيين صالح بن وصيف وموسى بن بغا فى مرتبتى أبويهما .

وظهر صالح بن وصيف على مسرح السياسة يأمر و ينهى و يتدخل فى كل أمر .

واشتدت الأزمة المالية وصاح الأتراك يطلبون الرزق ، فأخذ صالح بن وصيف الكتاب عنوة وقيدهم وعذبهم واستصفى أموالهم وقتل منهم أحمد بن إسرائيل (كاتب المعتز) وأبا نوح كاتب (الفتح بن خاقان)

فماذا كان موقف البحترى ؟

كان موقفه من هذا العمل ترديد الأبيات الآتية يعنف فيها الكتاب :

نهيتكمُ عن صالح فأبى لكم — لجاجكمُ إلا اعتراراً بصالح ! !

وحذرتكم أن تركبوا البغى سادراً — فيطرحكم فى موبقات المطارح

وماذا نقمتم منه لولا اعتسافكم — وتلجيجكم فى مظلم اللج طافح

نصيح أمير المؤمنين وسيفه — وما مضمرٌ غشاً كآخر ناصح

تؤيد ركنيه الموالى ، ويعتزى — إلى مذهب عند الخليفة واضح

تكشف عن أسراره وغيوبه — تكشف نجم فى الدجنّة لائح

وكانت لكم مندوحة عن عناده　　لو أنكمُ اخترتم عفيّ المنادح
فقد ظهرت أموالكم بعد سترها　　وبعد تخفيها ، ظهور الفضائح

ويرغم المعتز على التنازل عن العرش ويصعد إليه ابن الواثق المهتدى بالله ، الخليفة الورع الصالح فيهنئه البحترى :

بارك الله للخليفة فى الملك الذى حازه له المقدار
أخذ الأولياء إذ بايعوه　　بيدى مخبت عليه الوقار[1]
وتجلى للناظرين أبىٌّ　　فيه عن جانب القبيح ازورار
وأرتنا السجاد سيما طويل الليل فى وجهه لها آثار

ويسجل له البحترى فى قصيدة أخرى زهده وصلاحه وتقواه وتقشفه وصومه :

هل الدين إلا فى جهاد تقودنا　　إليه مجالاً أو صلاة تقيمها
تقضت ليالى الشهر إلا بقية　　تهجّد فيها جاهداً أو تقومها
وأيسر ما قدمت لله طالباً　　لمرضاته أيام فرض تصومها
هجرت الملاهى حسبة وتفرداً　　بآيات ذكر الله يتلى حكيمها
وأخلت باللذات وهى أوانس　　مرابعها ، مستحسنات رسومها
وما تحسن الدنيا إذا هى لم تعن　　بآخرة حسناء يبقى نعيمها
بقاؤك فينا نعمة الله عندنا　　فنحن بأوفى شكره نستديمها

وقتل المهتدى بالله وخلفه المعتمد على الله ومدحه البحترى بقصائد قليلة انصرف على إثرها إلى مدح الموفق ورجال الدولة الحاكمين كآل مخلد وآل صاعد والقائد ابن كنداج والوزير إسماعيل بن بلبل وغيرهم من البقية الباقية من معارفه القدماء ، ويدون فى مدائحه الحوادث المنسوبة إليهم كثورة الزنج بالبصرة وثورة ابن الليث الصفار بفارس. وهكذا يظهر لنا الرجل شاعر الدولة الرسمى، ظاهره يتمشى مع أغراض الدولة الحاكمة يطرى ولاتها وأصحاب الأمر فيها سواء فى ذلك الأنصار والأضداد . لا رأى يلتزم به ولا عاطفة خاصة تتحكم فيه .

---

(١) المخبت بكسر الخاء وفتحها : المتواضع والمطمئن .

وقد نسب البعض للبحترى أنه كان ضد العلويين يمقتهم ويحرض عليهم ولكن شواهد شعره تدل على أنه لم يكن له مذهب دينى يشايعه . وقد أنحى على الشاعر علىّ بن الجهم بغضه للعلويين فقال يهجوه :

إن وقفت سوقك أو أكسدت بضاعة من شعرك الخائب
أنحيت كى تنفقها زارياً على علىّ بن أبى طالب
قد آن أن يبرد معنا كمُ لولا لجاج القدر الغالب

ويقول فى القصيدة التى مدح فيها المنتصر :

وإن علياً لأولى بكم وأذكى يدا عندكم من عمر !!

وإنما اتهمت العامة البحترى فى أيام المعتمد بأنه ثنوىّ[1] فخاف على نفسه وقال لابنه (أبى الغوث) وكان مقيماً معه : « قم يا بنى حتى تطفئ هذه الثائرة بخرجة نلم بها شعثنا ونعود » .

وينسب إليه الشريف المرتضى أنه نظم فى هذا المقام الأبيات الآتية[2] وهى التى اتهموه فيها بالمانوية :

أخىّ متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التجمع إلا علة للتفرق
أرى الدهر غولاً للنفوس ، وإنما يقى الله فى بعض المواطن من يقى
فلا تتبع الماضى سؤالك لِمْ مضى وعرج على الباقى وسائله لِمْ بقى
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب محب ، متى تحسن لعينيه تطلق
تراها عيانا ، وهى صنعة واحد فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

وخرج من العراق إلى مسقط رأسه بمنبج ولم يعد إلا لماماً .

(١) على مذهب الفيلسوف الفارسى مانى القائل بأزلية النور والظلام — وفيهما الخير والشر — وأن العالم مركب منهما .
(٢) هذه الأبيات غير مذكورة فى ديوان البحترى .

الأصدقاء والأعداء

وفى غمار هـذه الأحداث المتتابعة كان للولاة والحكام على اختلاف مشاربهم مجالس خاصة وندوات مونقة لتبادل الحديث والرواية والمناظرة .

واندمج البحترى فى أوساط هـذه المجالس وعرف روادها وعرفوه ، فكان له منهم أصدقاء وأعداء .

فكان من أصدقائه المقربين أبو تمام ودعبل الخزاعى والفتح بن خاقان وأبو العيناء والمبرد ومحمد بن بسام وإبراهيم الصولى والفضل بن محمد اليزيدى ، والمشهور عن الأخير أنه أحد علماء النحاة وتوفى سنة ثمان وسبعين ومائتين .

ومات أبو تمام ودعبل فى عهد الواثق، وقتل الفتح بن خاقان مع المتوكل، وبقى له الصديقان أبو العيناء والمبرد . وقد أدت الشيخوخة الأول وعراه الوهن فكان لقاؤهما نادراً . أما المبرد فظل له الصديق الأمين موضع سره ومحل ثقته حتى آخر لحظة من حياته .

شاع يوماً نبأ وفاة أبى العيناء ولما يزل حياً فأرسل إليه البحترى :

نعوك وما كان النعىّ ، ولم تمت ولو مت ، مات الظرف بعدك كله
وما استثقلوا من مدة قد تكاملت ومن عمر لم يبق إلا أقله
على أن لهواً للصديق يسرّه وبدعاً على حد العدو يفله
بقيت أبا العيناء فينا ولا يزل لنا ظل أنس من ذراك نحله!!

ومن نوادرهم ما ذكره إبراهيم بن المدبر « اجتمع عندى يوماً الفضل اليزيدى وأبو العيناء والبحترى . فجلس الفضل يلقى على بعض فتياننا نحواً فقال له أبو العيناء هذا بابى وباب الوالدة ، حفظها الله ... فغضب الفضل وانصرف . وخرج البحترى من بغداد إلى سامرّا ، وكتب إلىّ شعراً أوله * ذكرتينك روحة للشمول * ، وهجا فيها الفضل فقال :

جلّ ما عنده التردد فى الفا   عل من والديه والمفعول !!...

قال ابن المدبر : فأمرت أن يكتب جواب الكتاب ، ويوجه إليه بمائة دينار ، ودخل أبو العيناء فأقرأته الشعر فقال : أعطنى نصف المائة فإنه هجاه والله بكلامى ، فأخذ خمسين ووجهت إلى البحترى بخمسين وعرفته الخبر . فكتب إلىّ « صدق والله ما بنيت أبياتى إلا على معناه » .

وكان المبرد مشايعاً للبحترى يفضله على غيره من شعراء العصر كأبى تمام ودعبل الخزاعى وعلى بن الجهم .

ولبث البحترى على ولائه للمبرد إلى أن مات بمنبج .

كتب إليه يدعوه بالأبيات الآتية :

يوم سبت وعندنا ما كفى الحـرّ طعام ، والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيـاح فسيح ، ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك ممن كنت تهوى ، وإن جفاك الحبيب
فأتنا يا محمد بن يزيد فى استتار ، كى لا يراك الرقيب!!
نطرد الهم باصطباح ثلاث مترعات ، تنفى بهنّ الكروب
إن فى الراح راحة من جوى الحـب وقلبى إلى الأديب طروب
لا يرعك المشيب منى فإنى ما ثنانى عن التصابى المشيب!!

وعاداه أدباء آخرون ، حاربهم وشنوا الغارة عليه فهجا منهم من هجاه وصمت عن الباقين إما اتقاء لشرهم وقذع هجائهم و إما احتقاراً لشأنهم وازدراء لقدرهم .

فمن هؤلاء الخثعمى وأبو العنبس الصيمرى وعلى بن الجهم وعلى بن العباس المعروف بابن الرومىّ .

فالخثعمى صادفه فى أول عهده بالعراق وقد أشار إليه فى رثاء أبى تمام ودعبل الخزاعى مستغرباً موت الآخرين وبقاء الخثعمىّ ... وكان الخثعمى هذا يسرق من معانى البحترى فسلّط عليه هجاءه وتباعد عنه وقد قال فيه :

قد أهدف الغثّ العمى لو لم يكن وغداً ، وليس الوغد من أهدافى
وأتى بأبيات له مسروقة شتى النجار ونسبة أفواف

ما إن يزال يجرّ من أشعاره جيفاً ، فكيف أقول فى الجياف !

ومنها :

إنى قنعت بخثعم وهى التى ليست من الأسباب غير كفاف
ما قصرت بك همة عن هاشم لولا اتقاء عقوبة الأشراف
أسرقت شعرى ثم جئت تذيعنى يا وغد ، ما هـذا من الإنصاف
وجريت تطلبنى فردك خائباً حسب الحمار ، وكبوة الأقراف

. . . .

وقصته مع الصيمرى فى حضرة المتوكل قد رويناها فى مناسبتها وقد كفته أن لا يطيق رؤياه .

بقى على بن الجهم ومن الطبيعى أن لا يتفق مثله مع البحترى . فقد كان الأول من ندماء المتوكل ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إلى المتوكل بالمقربين منه والوشاية بهم عنده فنفاه بعد أن حبسه مدة إلى خراسان وكتب إلى طاهر بن عبد الله بن طاهر بصلبه ليلاً . فلما وصل إلى (الشاذياخ) حبسه طاهر ثم أخرجه فصلب يوماً مجرداً إلى الليل ثم أنزل . وعفا عنه المتوكل فعاد إلى بغداد وانضم إلى فتيانها .

وأرسل مع على بن يحيى المنجم قصيدة يمدح المتوكل وطلب منه عرضها عليه فلما سمع قوله :

وقبة ملك كأن النجو م تصغى إليه بأسرارها
تخر له الوفود سجداً إذا ما تجلت لأبصارها
وفوارة ثارها فى السما ء ، فليست تقصّر عن ثارها
ترد على المزن ما أنزلت إلى الأرض من صوب مدرارها

تهلل وجهه واستحسنها فلما انتهى إلى قوله :

تبوأت بعدك قعر السجو ن ، وقد كنت أرثى لزوارها

غضب وتربد وجهه وقال هذا بما كسبت يداه . ولم يسمع تمام القصيدة .

وكان ابن الجهم ينحو نحو أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة .

فمثل هـذه الشخصية تتنافى مع شخصية رجل كالبحترى و بالأخص حين رأى فيه من بادئ الأمر مزاحماً له عند المتوكل وعمل على النيل منه وهجاه فى عدة مواضع ، منها :

يا مقبلاً على القلوب إذا عـــنّ لها أيقنت بطول الجهاد
يا قذى فى العيون ياغلة بيـــن التراقى وحرقة فى الفؤاد
يا طلوع العذول ما بين إلف يا غريماً أتى على ميعاد
يا ركوداً فى يوم غيم وصيف يا وجوه التجار يوم الكساد
خلّ عنا ، فإنما أنت فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد
مض فى غير صحبة الله ماعشـــت ملقًى فى كل فجّ وواد
ايتخطى به المهامه والبيـــد دليل العمى كثير الرقاد
خلفك الباتر المصمم بالسيـــف ورجلاك فوق شوك القتاد

وهى أبيات على ركاكتها تدل على المقت الدفين الذى كان يكنه البحترى لابن الجهم . ولم تطل الخصومة بينهما فسرعان ما قتل ابن الجهم فى طريقه وهو هارب إلى الشام كما ذكرنا فى سيرته .

أما ابن الرومى فقد أفردنا له حديثاً خاصاً لمكانته من الشعر العربى وجرأته على تحدى البحترى والإفحاش فى نعته بعد أن اصطحبا زمناً ثم افترقا إلى غير رجعة .

البحترى وابن الرومى

روى المرزبانى فى الموشح « أن عبد الله بن يحيى العسكرى أخبره عن أبى عثمان سعيد بن الحسن الناجم ، أن البحترى قال له : أشتهى أن أرى ابن الرومى . قال : فوعدته ليوم بعينه وسألت ابن الرومى أن يصير إلىّ فيه . فأجابنى إلى ذلك . فلما حصل ابن الرومى عندى ، وجهت إلى البحترى فصار إلىّ . فقال له البحترى قد أقرأنى أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى أبيه وسألنى عن النواب عنها فقلت أعطوه

لكل بيت ديناراً. ثم تحدثنا . فقال البحترى : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدتك الطائية فى الهجاء ، فقال ابن الرومى : إياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك ، وهو من عملى . فقال له: نتعاون . وعمل البحترى ثلاثة أبيات وعمل ابن الرومى ثمانية فلم يلحقه البحترى فى الهجاء . وكان اجتماعهما عندى سبباً للمودة » انتهت الرواية .

وتقابل الشاعر الشيخ والشاعر الشاب . البحترى فى منتصف الحلقة الخامسة أى فى أوائل المشيب وابن الرومى فى مستهل الحلقة الثالثة أى فى إبان فتوته وفى زمان شبابه .

ولم تدم المودة بينهما طويلاً .

اجتمعا فى مناسبات منها يوم تهنئة إبراهيم بن المدبر بانفلاته من أسر صاحب الزنج وإصابته بضربة فى وجهه وهو يقاتله .

ونظم كلاهما قصيدة .

قال البحترى من قصيدته التى مطلعها :

قد كان طيفك مرة يغرى بى　　يعتاد ركنى طارقاً وركابى

* * *

من مخبرى يا ابن المدبر والوغى　　يزجى أواخر قسطلٍ منجاب

غضبان يجلى عن مضارب سيفه　　عكرات خمسٍ فى الحديد غضاب

خرق تغيب ناصروه ، وأحضرت　　أعداؤه ، واليوم يوم غلاب

آساه نصل السيف ، لا صدر القنا　　حرج ، ولا صدر الحسام بناب

لو أنه استام النجاة لنفسه　　وجد النجاة رخيصة الأسباب

أو أسعدته خيله لتتابعت　　آلاف قتلى بذة الأسلاب

إن المشيع لا يبين عدوه　　حتى يكون مشيع الأصحاب

نصبت جبينك للسيوف حفيظة　　صرفت إليك نفائس الهراب

وأبيت أعطاف الدنية دونهم ... إن الأبى لأن يعير آبى

ومبينة شهر المنازل وسمها ... والخيل تكبو فى العجاج الكابى

كانت لوجهك دون عرضك إذ رأوا ... أن الوجوه تصان بالأحساب

ولئن أسرت فما الإسار على امرئ ... لم يأل صدقا فى اللقاء ، بعاب

إلى آخر القصيدة

وقال ابن الرومى من قصيدته التى مطلعها :

ما استشرفت منك العيون ضئيلا ... لكن عظيماً فى الأمور جليلا

* * *

ولعمر جمع الزنج يوم لقيتهم ... ما صادفوك يراعة إجفيلا(١)

شهدت بذلك فى جبينك ضربة ... كانت على صدق اللقاء دليلا

من بعد ما غادرتهم ، وكأنما ... قعرت بهم عُصُف الرياح نخيلا(٢)

ما زلت تنكؤهم بجدّ شائك ... لم تألهم قرحا ولا تقتيلا

تفريهمُ طعناً أثجّ ، وتارة ... ضرباً يزيّل بينهم تزييلا(٣)

لا فلّ حدّك من حسام صارم ... ترك القراع بحدّه تفليلا

لله نفس يوم ذاك أذلتها ... ولرب شىء صين حين أذيلا

لا جاهلاً قدر الحياة مغمّراً ... بل عارفاً قدر الحياة بسيلا(٤)

ومنها يشكو إليه حاله :

أصبحتُ بين خصاصة وتجمّل ... والمرء بينهما يموت هزيلا

فامدد إلىّ يداً تعوّد بطنها ... بذل النوال ، وظهرها التقبيلا

أحسنت فيك الظن ، وهو وسيلة ... شفعت بأن أحسنت فيك القيلا

وفى مجلس آخر برز الشاعران ليمدحا الطائىّ أمير بغداد فى زمن المعتمد بقصيدتين

(١) اليراعة — الأحمق . الإجفيل — الجبان .
(٢) قعر النخيل — قطعها من أصلها .
(٣) ثج الدم — أساله . يزيل — يفرق .
(٤) من البسالة وهى الشجاعة .

من بحر واحد وروىّ واحد بل ومستهلّ واحد . فاستهلّ البحترى قصيدته بالمطلع الآتى :

يهدى الخيال لنا ذكرى إذا طافا وافى يخادعنا ، والصبح قد وافى

وجاء منها :

تصدق المنع سعدى حين نسألها نيلا ، وتكذبنا بذلاً وإسعافا
إن الغوانى غداة البين قضن لنا ما أمّل الدنف المضنى بما خافا
فتن طرفا وقد ودعن عن نظر ساج ، وتيمن إذ صافحن أطرافا
إذا نضون شفوف الريط آونة قشرن من لؤلؤ البحرين أصدافا[1]
تواضع لسيوف الصقل مشعلة ضوءاً ، ومرهفة فى الجدل إرهافا
قضى لنا الله بلوى فى نواظرها تقضى علينا ، وعافى الله من عافى

ومنها وقد انتقل إلى وصف الخيل و إغذاذها للممدوح :

أزاجر أنا جرد الليل أجشمها سيراً إلى الشام إغذاذاً و إيجافا[2]
خوص العيون إذا أبدت سرى مثلت بالأرض أو جحفت بالليل إجحافا
دوافع فى انخراق البر موعدها مدافع البحر من (بيروت) أو (يافا)
حتى نحلّ ، وقد حلّ الشراب لنا جنات عدن على الساجور ألفافا
نضيف نازلةً تقرى الضيوف كما كنّا نزولاً على الطائىّ أضيافا

ومنها فى الممدوح :

ردّ الحوادث ملقاةً أوائلها على أواخرها ردعاً وإيقافا
إن ترم آلاؤه فى الدهر عن وتر تكن له نوب الأيام أهدافا
عز العراقين حتى ظلّ مختتيا له العراقان أقلاماً وأسيافا[3]

---

(١) شفوف الريط — رقيق الثياب . (٢) الإغذاذ الإسراع وكذلك الإيجاف وكلاهما ضرب من ضروب السير .
(٣) المختتى — الذليل والمتخشع من حزن أو مرض أو المتغير اللون من الفزع .

كم من أبيٍّ أناسٍ فى ولايتهِ   قد ذلّ عارضة أو لان أعطافا
ساس البلاد بتدبير يطبقها   أيد وواسطة منها وأطرافا
لم يرتفع عن مراعاة الصغير ولم   ينزل إلى الطمع المخسوس إسفافا

أما ابن الرومى فقد استهلّها بالمطلع الآتى :

طاف الخيال ، وعن ذكراك ما طافا   فكان أصدق طيف طارق ضافا
طيف عرانى فحيانى وذكرنى   بالنرجس الغض والتفاح أتحافا
عينان جاورتا خدّين ما خلقا   إلا شقاء يراه الغرّ أترافا
وكم ألم فأهدت لى محاسنه   من الفواكه والريحان أصنافا
رمان عدنٍ وأعناباً مهدّلة   وأقحواناً يسقى الراح رفافا
ويانعاً من جنى العناب تتبعه   قلب المودع تذكاراً وتأسافا
أسرى بأنواع ريحان وفاكهة   يأبين قطفاً ، وإن خيّلن أقطافا
لله ضيفك من ضيف قرى نزلاً   من الغرور ، عميد القلب مكلافا
قرى هو البرح أعقاباً وإن وجدت   منه النفوس مذاق العيش أسلافا
أقرّ عينى فى ليلى ، وصبّحنى   وجداً أفاضهما بالماء شفافا
لا خير فى قرة للعين معقبة   دمعاً يخدد فى الخدين ذرافا
أعجب بوجدٍ مزور قاد زائره   بل لم تزل ذكر تجلبن أطيافا
هب الضمير ونام الطرف فاجتلبت   ذكراك والنوم زوراً طالما جافى
صافيته فجبال النوم زورته   وكان ذلك حق النبه ، لو صافى

ومنها فى الممدوح :

أضحى أبو جعفر الطائى منتجعاً   ومستجاراً لمن رجّى ومن خافا
أغرّ أبلج ما ينفك معتقلاً   للحمد مبتذلاً ، للمال متلافا
أفردته برجائى وانفردت به   وظل قوم على الأوثان عكّافا

ما نعرف الوعد والإيعاد من رجل سـواه إلا أمانيًا وإرجافا
منـابذ لأعاديه وثروته فليس يألوهمـا ما اسطاع إتلافا
ممن يرى المنع إسرافًا وحق له أليس ما يتلف الأعراض إسرافا ؟
إلى ذراه أنيخت بعد متعبة أنضاء ركب أملّوا الأرض تطوافا
ثم استثيرت فثارت وهى مثقلة وقد أتته تبارى الريح أخفافا[١]

وعلى هذا النحو سار ابن الرومى فى قصيدته وهى طويلة جداً كدأب ابن الرومى فى نظمه . أما البحترى فلم تعد قصيدته الأربعين بيتاً . وقد بدأ كلاهما قصيدته بطيف الخيال وما عراه من الذكرى بيد أن ابن الرومى انطلق مع عاطفته فكان أحسن تعبيراً وأدق معنى وأوفق مقصداً .

ودبت الخصومة بينهما وافترق الشاعران .

افترقا على سخيمة وتباعدا على بغضاء . وليس بعجيب أن يفترقا وإنما يكون العجب أن يأتلفا .

ذلك لأن كلاهما نقيض الآخر فى كل شىء .

فإذا تجاوزنا تفاوت السن فإن طبيعة كليهما تباين الآخر .

فالبحترى كان من أنصار المبرد ، وابن الرومى كان من أنصار ثعلب . والبحترى كان عقله أغلب على عاطفته فساير الحوادث وخلص منها سليماً معافى ، محبوباً من كل حزب ، مرغوباً من كل طائفة . أما ابن الرومى فتغلبت عاطفته على عقله فانقاد إليها يعرض بهذا وذاك ففشل .

وكان البحترى أجنح للمانوية ولو فى سريرة نفسه وكان ابن الرومى يعتنق مذهب الشيعة ويجاهر بالميل للطالبيين.

زد على هذا ما كان يدل به البحترى على ابن الرومى من مكانته عند الخلفاء والأمراء مما لا يطيقه ابن الرومى بل ويثور عليه. وغضب ابن الرومى، وبدأ غضبه فى معاتبته أبا عبد الله الباقطانى لتقديمه البحترى عليه . فقال معرضاً بشعر البحترى :

---

(١) المفهوم من مدلول القصيدتين أن الممدوح لم يكن ببغداد وقت أن مدحه الشاعران .

ثنـاؤكمُ للبحـترى وودكم ومدحى لكم ، حاشا هواكم من الخبل

فإن قلتمُ للحكم بالحق فضله فما للديغ النحل من عسل النحل

أسارت له فيكم أماديح مثلها يحمل ثقل الحق مستثقلى الحمل ؟

أم الخلة الأخرى التى تعرفونها بل الحلة الأخرى ، وما النكث كالجدل ؟!

ألم يتجهمكم بمدح كأنه شبا الحد، أسرى فى البقاع من النمل

هجاكم بمنزور الهجاء ووغـده وما حلية الحسناء بالعاج والذبل[1]

فنال الذى أجرى له وهو وادع مصون ، وقد أسقاكمُ حمأة السجل

وعارضته فيكم بمدح كأنه شباب جديد أو صقال على نصل

فكافأتمونى بالذى هو أهله من المنع والحرمان والرفض والخذل

وكافأتمـــــوه بالذى أستحقه من البر والإحسان والعطف والوصل

هطلت ، فأطفأت الصواعق عنكمُ فلم تفرقوا بين الصواعق والهطل

بلى ، قد فرقتم فرق عاكس خطة وما المغزل المعكوس بالمحكم الغزل

***

ويرموننى دون امرئ لو فضلته لكان لهم حظان فى ذلك الفضل

مديح ليـالى ذكرهم ، وحماية لأعراضهم ، أمدادها عدة الرمل

وما ذاك عند البحترى لصاحب ولا بعضه فى باب فرض ولا نفل

وما بى قصب البحترى وثلبـه وإن صال فحل ذات يوم على فحل

شهدت له بالعتق فى الشعر مخلصاً وما أنا فيه بالهجين ولا البغل

ألا ذاك مجاج السلاف علته وإنى لمجاج لما ليس بالنطل[2]

وفى معرض آخر هجاه ابن الرومى قائلاً :

---

(١) في ديوان البحترى أبيات قليلة رثة فى هجاء الباقطانى رأينا الإعراض عنها .

(٢) النطل . خثارة الشراب وبقاياه .

قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغى السامعون لها ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر التقاة إذا أضحوا على شعف الجدران فى صخب

ومنها :

عبد يغير على الموتى ، فيسلبهم حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما إن تزال تراه لابساً حللاً أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب

ثم يذكره بأيام رضاه ومودته والفرق بين مسالمته وحربه بعد إقذاع مرير :

يا بحترى لقد أقبلت منقلباً يوم اكتسبت هجائى شر منقلب
قد كنت تعرف منى فى الرضى رجلاً حلو المذاقة فاعرفنى لدى الغضب
تعرف فتى فيه طوراً مجتنى سلع للمجتنين ، وطوراً مجتنى رطب[1]

وساعد على هذا الهجاء ما آنسه ابن الرومى من إغراء العلاء بن صاعد بالبحترى لأنه خاطبه فى هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحترى ويبحث عمن يشد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت

أراك لم ترض ما أهدى له نفر من شتم أم لئيم خيمها وأب !!

وبهذا أرضى ابن الرومى نفسه وأرضى العلاء .

وكان رد البحترى على ما قاله فى هذه القصيدة أن أهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط ... وقال له :

شاعر لا أهابه نبحتنى كلابه
إن من لا أعزه لعزيز جوابه ...

وفى معرض آخر عيره ابن الرومى بما نقله النقاد عن سرقاته من أبى تمام .

والفتى البحترى يسرق ما قا ل حبيب فى المدح والتشبيب
كل بيت له يجوّد معنا ه فمعناه لابن أوس حبيب

(١) السلع — شجر مر . بقلة خبيثة الطعم .

وانتقل البحترى إلى مسقط رأسه بمنبج وأقام بها ، وظل ابن الرومى فى بغداد وشغلتهما الحوادث والأيام .

ومن غريب المصادفة أن يموت الاثنان فى عام واحد إن صح ما رواه الرواة .

الملل واليأس

رأينا البحترى ، شاعر الدولة الحاكمة يمدح رجالها ويسير فى مواكبها ومظاهرها حتى خيل لقراء شعره أنه رجل غلبت عليه الصنعة فأجادها فى طلب العيش كيفما كان .

بيد أننا لو تأملنا طويلاً لألفينا أمامنا نفساً شفافة فطرت على الحس وانطوت على الشعور وظهرت مجردة من زيف الحياة متأثرة بتفاعل الظروف وأخذت تتلاشى على مهل إلى الزوال .

شبّ البحترى مختالاً يعتبر كل أرض يحل بها وطنه له ، من شعره عاصم بقية الويلات ويعينه على الأمور الشداد :

وطنى حيث حطت العيس رحلى ... وذراعى الوساد وهو مهادى
لى من الشعر نجوة واعتزاز ... وهجوم على الأمور الشداد

فأحب البلاد إليه البقعة التى ينال فيها مبتغاه فى كريم المطالب :

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى ... أرض ينال بها كريم المطلب

ولم يلبث بعد الأحداث التى وقعت على مرمى بصره أن اعتزل الناس وتجنب مجالسهم قليل الاختلاط بهم قانعاً بالكفاف ، فلم يبق من يجود بالإنصاف .

عجب الناس لاعتزالى وفى الأطـــراف تغشى أماكن الأشراف
وقعودى عن التصرف ، والأر ... ض لمثلى رحيبة الأكناف
ليس عن ثروة بلغت مداها ... غير أنى امرؤ كفانى كفافى
وغبىّ الأقوام من بات يرجو ... فضل من لا يجود بالأنصاف

وآده حلول المشيب وتنكر الناس وقلة الخلصاء وليس له موضعه الذى كان يؤمله :

أيذهب هذا الدهر لم ير موضعى ولم يدر ما مقدار حلّى ولا عقدى
ويكسد مثلى وهو تاجر سؤدد يبيع ثمينات المكارم والمجد
سوائر شعر جامع بدد العلى تعلقن من قبلى ، وأتعبن من بعدى

وهو مع ذلك راض يأبى المطالبة ، زاهد يأنف السؤال . وكيف وحاجات هؤلاء الناس موجودة عنده ؟ !

أأضرب أكباد المطايا إليهمُ مطالبة منهم ، وحاجاتهم عندى
أبى ذاك أنى زاهد فى نوال من أراه لنقض الرأى يزهد فى حمدى !!

ويدور بعينيه فلا يرى إلا الجهل والبخل فى هذه الصور الباقية ، وواحد منهما يعفّى خلفه الأثر . وإنها لصور نائمة فى جهلها لو ضربت بالسيف ما شعرت بوقعه ... فأنى لها أن تفهم الشعر وتحس به ؟ !

لم يبق من جلّ هذا الناس باقية ينالها الفهم ، إلا هذه الصور
جهل وبخل ، وحسب المرء واحدة من تين حتى يعفّى خلفه الأثر
إذا محاسنى اللائى أدل بها كانت ذنوبى ، فقل لى كيف أعتذر ؟
أهز بالشعر أقواماً ذوى وسن فى الجهل ، لو ضربوا بالسيف ما شعروا
علىّ نحت القوافى من مقاطعها وما علىّ لهم أن تفهم البقر

وأوفت سنه على الخمسين وحالت به الأيام فلا مفر من أخذها على علاتها بترك الغواية والتمسك بأهل الحجا والركون إلى الصواب :

اليوم حولنى المشيب إلى النهى وذللت للعذّال بعد شماس
ورفعت من طرفى إلى أهل الحجا ولويت عن أهل الغواية راسى
ورضيت عن عود البخيل وبدئه باليأس ، لو نفع الرضى بالياس

فإذا تذكر الشباب راعه وقع المشيب وصحا يبكى على ما فقد فى أيامه الماضيات :

قد رابنى هرب الشباب ، وراعنى شيب يدب بياضه فى مفرق
إما ترينى قد صحوت من الصبا ومشيت فى سنن المبل المفرق
وذكرت ما أخذ المشيب فأرسلت عيناى واكف ديمة مغرورق

فلا صبوة ولا تعلق بالبيض . . . فهو فى شغل شاغل ، رمىّ رزايا صائبات . . يتبرم من تداول حالات دول العصبتين (عصبة المستعين وعصبة المعتز) يرتاع من تعلى الأسافل فلا استقرار ولا وثوب من الضلال الغامر :

تعفى الصبا ألا تلوّم راحل ... وأغنى المشيب عن ملام العواذل
وتأبى صروف الدهر سوداً شخوصها ... على البيض ، أن يحظين منى بطائل
يحاولن عندى صبوة ، وأخالنى ... على شغل مما يحاولن شاغل
رمىّ رزايا صائبات كأننى ... لما أشتكى منها رمىّ جنادل
أعد أجل النائبات رزيئة ... وفور الرزايا وانثلام الأماثل
أعن دول فى العصبتين تعاقبت ... فما نقل الحالات بعد التداول
ولولا اهتمامى بالعلا وانعكاسها ... لما ارتعت ذعراً من تعلّى الأسافل

ويرتد إلى الدنيا فيراها وقد رفعت الخامل فلا معدى من خمول النبيه :

متى أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب إلا خمول نبيه

ويجد شأنها أهون من الغرور الخادع لاتستحق أمانيها فى البقاء لأنها أحاديث باطل فأيامها متشابهة فى ماضيها ومقبلها :

أطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها ... فما العاقل المغرور منها بعاقل
يرجّى الخلود معشر ضل رأيهم ... ودون الذى يرجون غول الغوائل
وليس الأمانى فى البقاء و إن مضت ... بها عادة إلا أحاديث باطل
إذا ما حريز القوم بات وما له ... من الله واق ، فهو بادى المقاتل
وما المفلتون أجل الدهر فيهمُ ... بأكثر من أعداد من فى الحبائل
يسار بنا قصد المنون ، وإننا ... لنشعف أحياناً بطىّ المراحل
عجالاً من الدنيا بأسرع سعينا ... إلى آجل منها شبيه بعاجل
أواخر من عيش إذا ما امتحنتها ... تأملت أمثالاً لها فى الأوائل
وما عامك الماضى ، وإن أفرطت به ... عجائبه إلا أخو عام قابل

غفلنا عن الأيام أطول غفلة وما خونها المخشى عنا بغافل

ويطول به العمر فينفر من دنياه ويمل مقامه فليس له من مطامع وإن راقت له حسناً فسواه الدانى إليها المسف :

ثقلت وطأة الزمان على جا نب وفرى وأقسمت لا تخف
وإذا راقت المطامع حسناً فسواى الدانى إليها المسف
وإزائى مطالب لو تواتيـ ـنى نفس عن مثلهن تعف
ومتى ارتدت أين تجعل رقا فلينل رقك الأشف الأشف !! .

ويتنقل فى أرجاء العراق من المدائن إلى واسط إلى النيل إلى نصيبين ، والنوائب تمضى عليه فغيرت من آرائه وأكسبته تجارب بدلت من خلقه وباينت من طباعه :

قد نقلت نوب الأيام من شيمى لكل نائبة رأى أجانبه
تجارب أبدلتنى غير ما خلقى وتوسع المرء إبدالاً تجاربه
إذا اقتصرت على حكم الزمان فقد أراك شاهد أمرٍ كيف غائبه
كلفتنى قدراً فلت ضرورته عزيمتى ، وقضاء ما أغالبه

فالأرض أوسع من دار يقيم بها ، والناس أوسع من خل واحد إذا ساء بواحدة فالسلام عليه دون عتاب !!

الأرض أوسع من دارٍ أظل بها والناس أوسع من خلٍ أجاذبه
أعاتب المرء فيما جاء واحدة ثم السلام عليه لا أعاتبه

لقد حاربته الأيام وأصبح من كان يعده سلماً ، حرباً عليه ولكنه يدافع الدهر باحتقار لصرفه غير آبه لما يناله منه :

حاربتنى الأيام حتى لقد أصـ ـبح حربى من كنت أعتد سلمى
غير أنى أدافع الدهر عنى باحتقار لصرفه المستذم
وحديث نفسى بأن سوف أكفى حيف قاض واستطالة خصمى

أن أخسّت تلك الحقائق حظى أخزلت هـذه الأمانى قسمى

ويمكث فى نصيبين وقد نهبت أمواله ، يرجّى وما نفع الرجاء إذا التقت مناحس الأمر ومعاطبه . . .

مع الدهر ظلم ليس يقلع راتبه وحكم أبت إلا اعوجاجاً جوانبه

أبيت وليلى فى نصيبين ساهر لهمّ عنانى فى نصيبين ناصبه

وإن اغتراب المرء فى غير بغية يطالبها من حيف دهر يطالبه

فليس بمعذور إذا ردّ سربه عليه ، بأن تعيا عليه مذاهبه

ويعطيه مرجو العواقب مسرعا إليه ركوب الأمر تخشى عواقبه

وما خلتنى والحادثات من الحصى أخيب من مالى ويغنم ناهبه

فلو أنه قرن ترادى صفاته لأحرزت حظى أو كفىّ أغالبه

أرجّى وما نفع الرجاء إذا التقت مناحس أمر مجحف ومعاطبه

ومما يعنى النفس كل عنائها توقعها الصنع البطىء تقاربه

إذا لاقت الضراء طال عذابها كمنتظر السراء طال تراقبه

وما ملك يخشى على كسب شاعر بمرضية عند الملوك مكاسبه

وتزداد آلامه فى نصيبين فيشكوها نادباً :

عدتنى فى نصيبين العوادى فقلبى أبله فيها بليد!!

أرى الحرمان أبعده قريب بها ، والنجح أقربه بعيد

تقاذف بى بلاد عن بلاد كأنى بينها جمل شرود

إذا سجع الحمام هناك قالوا لفرط الشوق أين ترى الوليد

وأين يكون مغترب بدهر شريد فى حوادثه طريد

وخلفنى الزمان على أناس وجوههم وأيديهم حديد

لهم حلل حسنّ فهنّ بيض وأخلاق سمجن فهنّ سود

وأخلاق البغال فكل يوم يعنّ لبعضهم خلق جديد

وأكثر ما لساناهم لديهم   إذا ما جاء قولهم تعود
ووعد ليس يعرف من عبوس انـ   ـقباضهم أوعد أم وعيد

ويلحّ عليه الهمّ ويموت غلامه قيصر وكان « نصيبه من دنياه » ، وتهده شيخوخة السبعين فيشرع عينيه فى الوزير أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ويعتذر إليه عن حاله وما آل إليه :

فإن أضعف عن استصلاح شأنى   فتلك السنّ شاهدة بعذرى
وكنت أعدّ طول العمر غنماً   فعاد بضدّ ذلك طول عمرى

ويؤوب إلى منبج مسقط رأسه ، ويقيم بها فاقداً أنيسه ، يظلمه المستضعفون فيركن إلى اليأس يثلج صدره قانعاً على كره ، يلجلج فى قوله وكان متى يقل بسمعة فى مجمع لا يلجلج . وتهزه مرارة الكبر فيشعر بالقشعريرة ويخال الأعداء حسبوه قد انتهى من الوجود فيشب — على وهن — جامعاً قواه ليريهم أنه ما زال حياً وإنما هى السنّ والمشيب . .

سيثلج صدرى اليأس ، واليأس منهل   متى تغترف منه الجوانح تثلج
قنعت على كره ، وطأطأت ناظرى   إلى رنق مطروق من العيش حشرج
ولجلجت فى قولى ، وكنت متى أقل   بسمعة فى مجمع لا ألجلج
يظن العدى أنى فنيت ، وإنما   هى السنّ فى برد من الشيب منهج
نضوت الصبا نضو الرداء وساءنى   مضىّ أخى أنس متى يمض لا يجى

ولم يغن قوله . . . فقد فنىَ وفنيت عداه . وظل شعره فى وشيه الضافى البديع ، يشهد فيه القارىء ما دبجته قريحة الذهن المكدود وما أملاه وحى القلب الحساس ، ويستخلص منه طبيعة من طبائع الإنسانية على اختلاف نزعاتها .

منهل اليأس[1]

بعينيك ضوء الأقحوان المفلج … وألحاظ عيني فاتر اللحظ أدعج

شجى مبرح ، زاد الغليل توقدا … وكان الهوى ألبا على المغرم الشجى[2]

يهيج لى طيف الخيال صبابة … فلله ما طيف الخيال المهيج ؟ !

تأملت أشخاص الخطوب فلم أرع … بأفظع من فقد الأنيس وأسمج ! !

وما حسن ، وهو القريب محلة … بأقرب من وفر منالا وزبرج[3]

أيظلمنى المستضعفون وقد رأوا … تجهم ظلام متى يكو ينضج؟

أروم انتصارا ، ثم يثنى عزيمتى … تقاى الذى يعتاقنى وتحرجى

هما حجزا شغبى وكفا شكيمتى … فلم أتوعر فى وسيقة منهجى

ولم أستر فى أعراض قوم أعزة … سرى النار شبت فى ألاء وعرفج[4]

وقد يتقى فتك الحليم إذا رأى … ضريرة مدلول على الفتك محرج

تهضمنى من لو أشاء اهتضامه … لأدركه تحت الخمول تولجى

ومن عادتى ، والعجز من غير عادتى … متى لا أرح عن حضرة الذل أدلج

فلولا الأمير ابن الأمير ووعده … لقل على أهل العراق معرجى

أخو الحزم لم تصدر عزيمة رأيه … بمقتضب من عاثر الرأى مخدج

وعند الوزير نصرة إن أهب بها … أضلل أساطير الخؤون المبهرج

عتادى الذى آوى إليه وعدتى … لما أختشى من صرف دهرى وأرتجى

سيثلج صدرى اليأس واليأس منهل … متى تغترف منه الجوانح تثلج

---

(١) كتب بها إلى المبرد فى أواخر أيامه مادحاً الوزير أبا الصقر (إسماعيل بن بلبل) .

(٢) الألب — القوم تجمعهم عداوة واحد. وألب : ألبا وتألب — تجمع وتحشد .

(٣) الوفر — وفرة المال والمتاع. وزبرج — الزينة من وشى أو نحوه — كل شىء حسن .

(٤) ألاء وعرفج — الأول شجر من أشجار الصحارى حسن المنظر مر الطعم والثانى من الأعشاب القطرية التى تنبت فى القفار

قنِعْتُ على كُرْهٍ ، وَطَأطأتُ ناظرى ... إلى رَنَقٍ مطروقٍ من العيش حشرج

وَالجْلجتُ فى قولى وكنتُ متى أقُلْ ... بِمُسْمِعَةٍ فى مَجْمَعٍ لا أُلجلج

يظنُّ المدى أنى فَنيتُ ، وإنما ... هى السّنُّ فى بُردٍ من الشيب مُنهَج

نَضَوْتُ الصِّبا نَضْوَ الرداء وساءنى ... مُضىُّ أخى أنسٍ ، متى يَمْضِ لا يجى

فمن مبلغٌ عنى الشمالىَّ أنهُ ... مَكان اشتكائى خالياً وتفرُّجى

متى يأته الرُّكبانُ يُوصِلْ زَعيمُهُمْ ... رسالة مَطرودٍ عن اللهو مزعج

أرَانَا وَقيذَىْ كِبْرَةٍ وَتكاوُسٍ ... على مُمْلِقٍ من مَطْلَبِ الحاج أعرج[1]

بعيدَيْنِ لا نُدْنَى لأنسٍ فنجتنى ... عليه ، ولا نُدْعَى لخطبٍ فنَنتجى

مَضى جَعْفَرٌ والفتحُ بين مرمَّلٍ ... وبين صَبيغٍ بالدماء مضرَّج

أأطلبُ أنصاراً على الدهر بعدما ... ثوى منهما فى الترب أوْسِىٌ وخزْرَجى[2]

أُولئكَ ساداتى الذين برأيهم ... حَلبْتُ أفاويقَ الربيع المثجَّج[3]

مَضَوْا أمماً قصْداً وخُلِّفْتُ بعدهم ... أُخاطِبُ بالتأميرِ وَالىَ (منبج) ! ![4]

(١) الوقيذ : الصريع — التكاوس — التراكم .

(٢) الأوس والخزرج قبيلتان كانتا بالمدينة على عداء وآخى بينهما الإسلام .

(٣) أفاويق جمع فيقة وهى اسم اللبن الذى يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والأفاويق أيضاً ما اجتمع من الماء فى السحاب فهو يمطر ساعة بعد ساعة .

(٤) منبج بلد الشاعر حيث أقام بها فى أواخر أيامه .

مَتَى تَسْتَزِدْ فَضْلاً من العمر تَغْتَرِفْ بِسَجْلَيْكَ من شَهْدِ الخطُوبِ وَصَابِهَا

تَشُذُّ بنا الدُّنيا بأَخْفَضِ سَعْيِهَا وَغُولُ الأَفاعِي بَلَّةٌ من لُعَابِهَا

يُسَرُّ بِعِمْرَانِ الدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعِمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ من خَرَابِهَا

ولم أرتضِ الدنيا أَوَانَ مجيئِهَا فكيف ارتضائِيها أَوَانَ ذِهَابِهَا ؟!

البحترى

الفصل التاسع

الشاعر البحترى

الخاصية فى شـــعره

للشاعر المطبوع « خاصية » يمتاز بها عن نده ومثيله . وإنك لتعرفها عنه كلما قرأت قصائده . وليس معنى هذا أن تنعدم فيها ما عداها من المؤثرات النفسية وإنما تتغلب هذه « الخاصية » بالذات كأبرز ما تلمسه فيه من صفات وشيات .

ولا ريب أن لاتساع المعارف والفلسفة فى عصرى الرشيد والمأمون أثراً كبيراً فى تعدد آفاق الشعر واندماج كل شاعر من شعرائها العظام فى الجو الذى لاءمه .

فمثلاً نجد فى انصراف ابن برد إلى الولوع بالمجهول والبحث فى عناصر الطين والنار أثراً كبيراً فى شعره فظهر رمزياً يومئ من طرف خفى إلى ما تركته هذه العقائد فى نفسه حتى اتهم بالزندقة والإلحاد .

وفى شغف ابن هانئ باللهو وأوطار الشباب ما خصه بالخمريات وسرد حوادث لياليه ومناعمها ولذاتها .

وفى انقلاب أبى العتاهية إلى الزهد والتقشف ما حمله على ترديد ذكر الموت ووعظ الأحياء والكشف عن مصير الجسم والروح بعد الفناء .

وفى ذكاء أبى تمام وسعة اطلاعه ما مكناه من التقرب إلى أوساط الخاصة ومخاطبتها باللغة التى تفهمها فجعلته غريباً عن مجتمعات عصره .

وقل فى غير هؤلاء كمجون الحسين بن الضحّاك واسترساله حتى المشيب فى الغزل والنسيب .

وكذلك فى نقمة ابن الرومىّ ما أرهف حسّه فتنبه إلى دقائق المعنى يسهب فيها من خياله الموروث عن أساطير الروم .

وهكذا نستشف لكل منهم خاصيته المشتقة من البيئة والطبيعة التى أحاطت به فترجم عنها وكانت غالبة عليه فى قصائده .

وبرز البحترى على الرسوم المتخلفة من هذين العصرين (عصرى الرشيد والمأمون) فوجد نفسه بين شتى الأمزجة والأهواء وبين ترفٍ زخرفته مطالب النفس فعكف يستخلص فى قصائده أرقّ الألفاظ وأحلى النغمات .

امتاز شعر البحترى بالديباجة المشرقة والطلاوة الساحرة وعنى فى نظمه باختيار اللفظ الموسيقى النبرات ولو كان معناه سوقيًا تافهاً أو كما قال يعاتب :

اسمع لغضبان تثبت ساعة   فعداك قبل هجائه بعتابه
الله يُسْهِر فى مديحك ليلَه   متململاً ، وتنام دون ثوابه
يقظان (ينتخب الكلام) كأنه   جيش لديه يريد أن يلقى به

وبذلك استطاع أن يسحر سامعيه ويملك ألبابهم حتى تحزّب له كثير من معاصريه وفضلوه على أستاذه أبى تمام بل وعلى كثير من سابقيه من الشعراء .

سئل المبرد عن أبى تمام والبحترى ، أيهما أشعر ؟ قال : لأبى تمام استخراجات لطيفة ومعان ظريفة ، وجيده أجود من شعر البحترى ومن شعر من تقدمه من المحدثين ، وشعر البحترى أحسن استواء من أبى تمام ، فإن البحترى يقول القصيدة كلها فتكون سليمة من طعن طاعن أو عيب عائب ، وأبو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف ، وما أشبهه إلا بغائص البحر يخرج الدرّة والخشلبة[1] فى نظام واحد ، وإنما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل بأشعارهم ، وإلا فلو أسقط من شعره على كثرة عدده ما أنكر منه لكان أشعر نظرائه ... ثم قال المبرد : وبالبحترى يختم الشعر ، واستشهد على قوله بأبيات من شعر البحترى فى ممدوحيه .

وأكثر ما أجاد البحترى فى الوصف والتصوير ، وسلامة ذوقه فى إعطائك الصورة الكاملة بحيث تأخذها على مرآها غير ناقصة لا يترك فيها نتوءاً ولا أخدوداً ...

وهو فى براعته على علم واسع بذخائر اللغة ملم بالجوانب النفسية مطلع على

(١) الخشلبة : الزجاجة

اتجاهات من سبقوه ومن عاصروه من الشعراء فى نظمهم ، يقارن بين هذا وذاك فى كل منحى

روى محمد بن يوسف قال : « حضرت مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحترى فقال : يا أبا عبادة ، أمسلم بن الوليد أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لأنه يتصرف فى كل فن ، ويتنوع فى كل مذهب ، إن شاء جد ، وإن شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . فقال له عبيد الله بن طاهر : إن أحمد بن يحيى المعروف بثعلب لا يوافقك على هذا ، فقال البحترى : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه ، فقال : ورت بك زنادى يا أبا عبادة ، وإن حكمك فى عميك أبى نواس ومسلم ، وافق حكم أبى نواس فى عميه جرير والفرزدق فإنه سئل عنهما ، ففضل جريراً ، فقيل له إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا فقال ليس هذا من علم أبى عبيدة ، وإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر . »

وفى حديث لابن البحترى عن أبيه قال : « رأيت أبى يذاكر جماعة من شعراء الشام بمعان من الشعر فمر فيها قلة نوم العاشق وما قيل فى ذلك ، فأنشدوا إنشادات فيها فقال لهم أبى : فرغ من هذا كاتب العراق إبراهيم بن العباس الصولى إذ قال :

أحسب النوم حكاكا إذ رأى منك جفاكا
منى الصبر ومنك الـ ـهجر فابلغ بى مداكا
كذبت همة عين طمعت فى أن تراكا
أى ما حظ لعين أن ترى من قد رآكا
ليت حظى منك أن تعـ ـلم ما بى من هواكا

وبهذا التلفت نظم البحترى أشعاره فأحسن وأجاد ، وتفتحت له الآذان وأصاخت له القلوب ، وتمكن من أن يلج إلى ممدوحيه ببديهة صافية وصفحة مصقولة فأحبوه ورددوا شعره وصفقوا له .

ونحن نجتزئ فى الأبيات التالية مقطوعات من شعره ليست هى كل محاسنه

وإنما ننقلها على استطراد النقل ، لتعطى للقارئ صورة للشاعر الذى تعتز به العربية ضمن شعرائها فكان فى طليعتهم بل وفى الصف الأول من رعيلهم .

* * *

قال يهنئ المتوكل بضاحية المتوكلية :

أَرَى المُتَوَكِّلِيَّةَ قد تعالت   محاسنُها ، وأكملت التماما
قُصُورٌ كالكواكب لامعاتٌ   يكدن يضئن للسارى الظلاما
وَبُرْدٌ مثل بُرْدِ الوَشْيِ فيه   جَنَى الحَوْذَانِ ينشر والخزامى
إذا برز الربيعُ له كسته   غوادى المزن والريح النعامى
غرائب من فنون الغيث فيها   جنى الزهر الفرادى والتؤامى
تضاحكها الضحى طوراً ، وطوراً   عليها الغيث ينسجم انسجاما

وقال يهنئه ببناء قصر الجعفرى :

قد تم حسنُ الجعفرىِّ ، ولم يكن   ليتمّ إلا بالخليفة جعفر
مَلِكٌ تبوّأ خيْرَ دارٍ أُنشئت   فى خير مغدًى للأنام ومحضر
فى رأس مشرفة حصاها لؤلؤ   وترابها مسك يشاب بعنبر
مُخضَرَّةٌ والغَيثُ ليس بساكبٍ   ومُضِيئةٌ ، والليلُ ليس بمقمر
ظهرت لمخترق الشمال وجاورت   طلل الغمام الصائب المستغزر
تقديرِ لطفك واختيارك أغنيا   عن كل مختار لها ومقدر

. . . .

فرفعت بُنْيانًا كأنّ منارَهُ   أعلامُ رضوى أو شواهق صيبر[1]
أزرى على هِمَمِ الملوك وغَضَّ من   بُنيانِ كسرى فى الزمان وقيصر
عالٍ على لحظ العيونِ كأنما   ينظرن منه إلى بياض المشترى

. . . .

مَلأتْ جَوانبُهُ الفضاء وعانقت   شُرُفاتُهُ قِطَعَ السحاب الممطر

---

(١) رضوى وصيبر — جبلان .

وتسير دِجْلةُ تحتـه فَفِناؤهُ من لُجّةٍ غَمْرٍ وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح ، فتنثنى أعطافُهُ فى سائح متفجر

وقال يصف حلبة الخيل :

يا حسنَ مبدى الخيل فى بكورها تلوحُ كالأنجم فى ديجورها
كأنمـا أبدع فى تشهيرها مصور حَسَّنَ من تصويرها
تحمل غِرْباناً على ظهورِها فى البَيْرقِ المنقوشِ من حريرها
إن حاذروا النَّبْوَةَ من نفورِها أَهْوَوْا بأيديهم إلى نحورها
كأنها والجبل فى صدورها أجادلٌ تنهض فى سيورها
مَرَّت تبارى الرِّيحَ فى مرورها والشمسُ قد غاب ضياء نورها
فى الرَّهَجِ السَّاطعِ من تنُّورها حتى إذا أصغت إلى مديرها
وانقلبت تهبط فى حدورها تصوب الطير إلى وكورها
صار الرجال شرفاً لسورها أعطى فضل السبق من جمهورها
من فضل الأمة فى أمورها فى فضلها وبذلها وخيرها
جعفر الذائد عن ثغورها تبهى به وهو على سريرها
خلافة وفق فى تدبيرها

وقال يمدحه ويصف قصريه « الصبيح والمليح » اللذين بناهما :

قد صَفَا جانبُ الهواء ولذّت رقة المـاء فى مزاج المدام
واستتم الصبيح فى خير وقت فهو مغنَى أنس ودار مقام
ناظر وجهةَ المليح فلو يسـتطيع حَيَّاهُ مُعْلِناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا ك فمن ضاحك ومن بسَّام
كالمحبين لو أطاقا التقاء أفرطا فى العناق والالتزام
تنفذ الريح جريها بين قطريـه فتكبو من ونية وسآم

مستمدٌ بجدول من عباب السـماء كالأبيض الصقيل الحسام
وإذا ما توسَّطَ البِرْكةَ الحسـناء ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحـرٍ يخدع العين ، وهو ماء غمام
والدواليبُ إن يَدُرْنَ ولا نا ضح يمشى بهن غير النَّعامِ

وقال يمدح أبا نهشل بن حميد و يطلب منه فرساً :

فأعِنْ على غزْوِ العدوِّ بِمُنْطَوٍ أحشاؤه طىَّ الكتاب المدرج
إما بأشْقَرَ ساطعٍ أغشى الوغى منه بمثل الكوكب المتأجّج
متسربلٍ شِيَةً طلَتْ أعطافَهُ بدم ، فما تلقاه غير مضرج
أو أدهمٍ صافى السوادِ كأنه تحت الكمىِّ مظهَّرٌ بيَرَنْدَج
ضَرِمٍ يهيج السَّوطُ من شؤبُوبه هيج الجنائب من حريق العرفج
خفَّت مواقِعُ وطئِهِ فلو أنه يجرى ببرمة عالج لم يرهج
أو أشهبٍ يَقَقٍ يضىء وراءه مَتْنٌ كمتنِ اللجَّةِ المُترَجْرِج
تخفى الحجولُ ولو بَلَغْنَ لِبانَه فى أبيضٍ مُتألِّق كالدُّملج
أوفى بعرفٍ أسودٍ متغربب فيما يليه وحافرٍ فيروزجى
أو أبْلَقٍ يلقى العيون إذا بدَا من كل لون معجب بنموذج
جَذْلانَ تحسده الجيادُ إذا مشى عَنَقًا بأحسنِ حُلةٍ لم تنسج
أرمى به شوكَ القنا وأردُّهُ كالسمع أثّر فيه شوكُ العوسج
وأقبَّ نهدٍ للصواهل شطره يوم الفخار ، وشطره للشحّج

وقال يمدح الهيثم الغنوى قائد المعتز بالله :

أتاك الربيعُ الطلقُ يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبَّهَ النوروز فى غَلَسِ الدُّجى أوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمس نوّما

يُفتّقها بَرْدُ النَّدَى فكأنه يبثُّ حديثاً كان قبلُ مكتما
ومن شجرٍ ردَّ الربيعُ لباسه عليه كما نشّرتَ وشياً منمنما
أحلَّ فأبدى للعيون بشاشةً وكان قذًى للعين إذ كان محرما
ورقَّ نسيمُ الريح حتى حسبتَهُ يجىء بأنفاسِ الأحبةِ نُعَّما
فما يحبسُ الرّاحَ التى أنت خلُّها وما يمنع الأوتارَ أن تترنما
وما زلتَ خِلاً للندامى إذا انتشوا وراحوا بدوراً يستحثُّونَ أنجُمَا
تكرمت من قبل الكؤوس عليهمُ فما اسطعن أن يحدثن فيك تكرما

وقال يمدح المعتز ويهنئه ببناء سفينته « الفرد » على شاطئ دجلة :

لاحت تباشير الخريف وأعرضت قِطَعُ الغمام وشارفت أن تهطلا
فترَوَّ من شعبانَ إن وراءه شهراً يمانعنا الرحيقَ السَّلسلا
أحسِنْ بدِجْلةَ منظراً ومخيَّماً والفردُ فى أكناف دِجلة منزلا
خَضِلَ الفناء متى وطِئتَ ترابَهُ قلتَ الغمامُ انهلَّ فيه فأسْبَلا
حشدت له الأمواجُ فضلَ دوافع أعجلن دولابيه أن يتمهَّلا
تبيضُّ نُقبتُهُ ويَسْطَعُ نوره حتى تـكِلَّ العينُ فيه وتنكلا
كالكوكب الدرّى أخلص ضوءهُ حَلَكَ الدُّجى حتى تألّق وانجلى
رَقدَت جوانبُه القِبابَ ميامناً ومياسراً وسَفُلْنَ عنه واعتلى
فتخاله وتخالهنَّ إزاءه ملكاً تدين له الملوك ممثلا
وعلى أعاليه رقيبٌ ما ينى كَلِفاً بتصريف الرياح موكَّلا
من حيث دارت دار يطلب وجهها فعل المقاتل جال ثم استقبلا

وهكذا نرى « خاصية » البحترى فى الوصف المحبَّر ومماشاة المعنى المطروق بما يخلب السامعين والقراء !! . . .

سرقاته من أبى تمام

سئل البحترى فى تفضيله على أبى تمام فأجاب: « كلا والله ، ذاك الأستاذ الرئيس ، والله ما أكلت الخبز إلا به . فقال له المبرد وكان حاضراً فى المجلس : تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك ! ! »

وعيب على البحترى احتذاؤه من شعره ما احتذاه أبو تمام فى قوله فقال : « ألام على تبعى لأبى تمام ؟.. ما عملت بيتاً قط حتى أخطر ببالى شعره . »

وحدث الحسين بن إسحق قال : « قلت للبحترى الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال: والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام .. لوددت أن الأمر كما قالوا .. ولكنى تابع له ، لائذ به ، آخذ منه ، نسيمى تركد عند هوائه . وأرضى تنخفض عند سمائه » .

وكما قال الصولى : « هذا من فضل البحترى أن يعرف الحق ، ويقرّ به ويذعن له ، وإنى لأراه يتبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض لفظه فلا يقع إلا دونه ، ويعود فى بعضها طبعه تكلفاً ، وسهله صعباً » .

فأبو تمام كان قطعة من حياة البحترى عاش فيها يترقب خطاه ويسير على نهجه ويستفيد من علمه وأدبه بل ويمدح ممدوحيه .

وتكملة للبحث والدراسة نذكر فيما يلى المعانى والألفاظ التى أخذها البحترى من أبى تمام إظهاراً لصورة الشاعر فى تطورات حياته الاجتماعية والفنية .

ولا يمكن الدفع بتوارد الخواطر واتفاق المشاعر فقد اعترف البحترى نفسه غير ناكر « بأنه إنما كان يتمثل بأقوال أستاذه حينما كان ينظم قصائده » .

١ — قال أبو تمام :

يستنزل الأمل البعيد ببشره   بشرى المخيلة بالربيع المغدق
وكذا السحائب قلما تدعو إلى   معروفها الرواد ما لم تبرق

وقال البحترى :

كانت بشاشتك الأولى التى ابتدأت　　بالبشر ثم اقتبلنا بعدها النعما
كالمزنة استوبقت أولى مخيلتها　　ثم استهلت بغزر تابع الديما

وردد هذا المعنى فى قوله :

مشرق للندى ومن حسب السيـــف لمستله ضـياء حديده
ضحكات فى أثرهن العطايا　　وبروق السحاب قبل رعوده

وردده فى مدحه أبى الصقر :

يوليك صدر اليوم قاصية الغنى　　بعوائد قد كنَّ أمس مواعدا
سوم السحائب ما بدأن بوارقاً　　فى عارضٍ إلا ثنين رواعـدا

وردده فى مدح المعتز بالله :

متهلل طلق إذا وعد الغنى　　بالبشر أتبـع بشره بالنـائل
كالمزن إن سطعت لوامع برقه　　أجلت لنا عن ديمةٍ أو وابل

٢ — وقال أبو تمام :

فسواء إجابتى غـير واعٍ　　ودعائى بالقاع غـير مجيب

فقال البحترى نسخاً له :

فسألت من لا يستجيب فكنت فى اســـتخباره كمجيب من لا يسألُ

٣ — وقال أبو تمام :

إذا القصائد كانت من مدائحهم　　يوماً ، فأنت لعمرى من مدائحها

وقال البحترى

ومن يكن فاخراً بالشعر يذكر فى　　أصنافه ، فبك الأشـعار تفتخر

٤ — وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيـلة　　طويت أتاح لها لسان حسود

فقال البحترى:

ولن تستبين الدهر موضع نعمة　　إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

٥ — وقال أبو تمام :

بخل تدين بحلوه وبمرّه ... فكأنه جزء من التوحيد

فقال البحترى :

وتدين بالبخل حتى خلته ... فرضاً يدان به الإله ويُعْبَدُ

٦ — وقال أبو تمام يصف شعره :

منزهــة عن السَّرَق المورّى ... مكرّمة عن المعنى المعاد

فقال البحترى يصف بلاغة :

لا يعمــل المعنى المكرّ ... ر فيـــــه واللفظ المردَّدْ

٧ — وقال أبو تمام :

البيدُ والعيسُ والليلُ التمام معاً ... ثلاثة أبداً يقرنَ فى قَرَنِ

فقال البحترى :

اطلبا ثالثاً سواى فإنى ... رابع العيس والدّجى والبيدِ

٨ — وقال أبو تمام :

تفيض سماحةً والمزن مكدٍ ... وتقطع والحسام العضبُ نابى

فقال البحترى:

يتوقدن والكواكب مطفا ... ة ، ويقطعن والسيوف نوابى

٩ — وقال أبو تمام :

لا تدعونْ نوح بن عمرو دعوة ... للخطب إلا أن يكون جليلا

فقال البحترى :

يا أبا جعفر وما أنت بالمد ... عوّ إلا لكل أمر كُبار

١٠ — وقال أبو تمام :

ولقد أردتم مجده وجهدتمُ ... فإذا (أبانٌ) قد رسا (ويَلَمْلَمُ)

فقال البحترى :

ولن ينقل الحساد مجدك بعد ما　　تمكن رَضْوَىٰ واطمأن متالِعُ

١١ — وقال أبو تمام :

وتشرّف العليا وهل من مذهب　　عنها ، وأنت على المعالى قيم

فقال البحترى :

متقلقل الأحشاء فى طلب العلا　　حتى يكون على المعالى قيما

١٢ — وقال أبو تمام :

ويلبس أخلاقاً كراماً كأنها　　على العِرض من فرط الحصانة أدْرُع

فقال البحترى :

قوم إذا لبسوا الدروع لموقف　　لبستهم الأخلاق فيه دروعا

١٣ — وقال أبو تمام :

تندى عفاتك للعفاة وتغتدى　　رُفقاً إلى زُوّارك الزوّار

فقال البحترى :

ضيف لهم يقرى الضيوف ونازل　　متكفل فيهم ببر النزّلِ

١٤ — وقال أبو تمام :

عطفوا الخدور على البدور ووكّلوا　　ظُلَمَ الستور بنور حُور نُهَّدِ

فقال البحترى :

وبيضٍ أضاءت فى الخدور كأنها　　بدور دُجى جلّت سوادَ الحنادسِ

وغير ذلك مما يطول سرده .

عبث الوليد

وهذا عنوان الكتاب الذى وضعه فيلسوف العرب وحكيمها أبو العلاء المعرى فى تعليقاته على شعر البحترى .

سئل شيخ المعرة : أى الثلاثة أشعر ، أبو تمام أم البحترى أم المتنبى ؟ فقال : المتنبى وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى . وقد اختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » وديوان البحترى وسماه « عبث الوليد » وديوان المتنبي وسماه « معجز أحمد » وليس شرحه على ديوانى الثانى والثالث بالشرح المقصود منه إيضاح المعانى وإنما هو ملاحظات أبى العلاء على شعر الشاعرين وتعليقاته بالنقد والاستحسان فى الموضع الذى استرعاه ولفت نظره .

ولا يبعد أن يكون اقتباس شيخ المرة لعنوان كتاب البحترى مأخوذاً من بيت البحترى :

إن الخطوب طويننى ونشرننى « عَبَث الوليد » بجانب القرطاس

وهو من قصيدته التى يمدح فيها المعتز ومطلعها :

ما أنس من شىء فلست بناس عهد الشباب ، إذ الشباب لباسى

وفى هذا العنوان تورية ربما كانت إلى السخرية أقرب كما هو دأب حكيم المعرة فى سخريته وتهكمه .

فلم يقتصر عبثه فى هذا الكتاب فحسب وإنما نجده يلاحق البحترى فى مواضع أخرى فقال فى سقط الزند :

وقال « الوليد » النبع ليس بمثمر وأخطأ سِرْبُ الوحش من ثمر النبع

مشيراً بذلك إلى قول البحترى :

وعيرتنى سجالَ الدمع جاهلة والنبعُ عريانُ ما فى عوده ثمر !!

وفى قصيدة أخرى :

ذم «الوليد» ، ولم أذمم جواركمُ فقال ما أنصفت بغداد ، حوشيتا

فإن لقيت وليداً ، والنوى قُذُفٌ يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا

مشيراً بذلك إلى قول البحترى :

ما أنصفت بغداد حين توحشت بنزيلها ، وهى المحل الآنس

وقد كفانا المعرى مؤونة الاستقصاء والتعقيب و إن كان نقده فى الأغاب الأعم يدور حول أصول اللغة وما قيل فى الكلام القديم وما أجازه العرب وما لم يجر عليه العرف والمألوف .

ومسألة اللغة لها قيمتها بلا ريب ولكنها فى رأينا متروكة للاجتهاد والتحصيل و إن اختلفت فيها المذاهب والآراء .

ونقد الشعر فى ذاته أحق بأن يوجه قبل كل شىء إلى الروح الفنية أو بمعنى أصح إلى الذوق والطبع ، فهما فى المرتبة الأولى بغير حاجة إلى الأصول والقواعد التى يتوخاها العلم فى العصر الحديث .

يلى ذلك ظروف الشاعر فى حياته الخاصة ، والجو الذى عاش فيه وما أحاط به من ترف أو شقاء .

ومن الصعب أن نقيد القارئ بذوق خاص فى الشعر فما من شاعر إلا وله أضداد ومشايعون و إن كان الإجماع وحده هو الحكم الأخير . بل ربما كان الإجماع فى عصر يناقض الإجماع فى عصر آخر .

ولهذا ندع للقارئ حكمه باسطين أمامه ما حام حول البحترى من نقد أو إطراء .

فإذا كان لنا من خلال الفصول رأى خاص فى مسألة من المسائل فهو رأينا الذى نعتقده اليوم . وقد يعن لنا ما يخالفه متى توافرت له الدواعى والبراهين .

و إلى القارئ مآخذ أبى العلاء على شعر البحترى فى بعض القصائد و إن لم تنل من منزلة الرجل كشاعر صميم لدى شيخ المعرة .

*
* *

ففى القصيدة التى يمدح بها إسماعيل بن نوبخت وأولها :

فى غير شأنك بكرتى وأصيلى وسوى سبيلك فى السلوّ سبيلى

ومنها :

وَرَحَضت قنّسرين حتى أنقيتْ جنباتها عن ذلك البرطيل

يقول شيخ المعرّة : البرطيل الذى تستعمله العامة فى معنى الرشوة لا يعرف فى الكلام القديم . ولا شك أن أبا عبادة لم يعن إلا الكلمة العامية . والبرطيل فى كلام العرب حجر مستطيل . قال الراجز :

ترى شؤون رأسه العواردا والخطم واللحيين والأرائدا

مضبورة إلى شبا حدائدا ضبر براطيل إلى جلامدا

وقول العامة برطيل يجب أن يكون مأخوذاً من هذا اللفظ يريدون أن الرشوة حجر قد رمى بها من يخاصمون .

*
* *

وفى قصيدته التى يرثى بها ابن أبى الحسن بن عبد الملك صالح الهاشمى :

لأية حالٍ أعلن الوجد كاتمُهْ وأقصر عن داعى الصبابة لائمه

ومنها :

ومن إرثكم أعطت صفيّة مصعباً جميل الأسى لما استحلّت محارمُه

بنى أبو عبادة هذا المعنى على أن صفيّة ابنة عبد المطلب كانت توصف بالصبر . ولم يرد عنها شىء من ذلك ، بل ذكر أن ولدها الزبير بارز رجلاً فى بعض الغزوات بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فجزعت من ذلك وقالت يا رسول الله يقتل ابنى فقال ابنك يقتله فقتله الزبير . وإنما الموصوفة بالتصبر أسماء ابنة أبى بكر وهى أم عبد الله بن الزبير وليست أم مصعب .

*
* *

وفى القصيدة التى يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل وأولها :

أحرى الخطوب بأن يكون عظيما قول الجهول : ألا تكون حليما

ومنها :

جمعت عليك وللأنام مفرّق منها وأفراداً قسمن وتوما

قد استعمل (توما) بمعنى تؤام . وذلك غير معروف فى الكلام القديم .

وإنما يقولون للواحد توأم وللاثنين توأمان وللجميع توام ، ولكن يجوز أن يجمع تؤام على تُوم مثلما يجمع غراب على غُرُب ويكون أصله تؤم بالهمزة ثم تخفف الهمزة تخفيفاً لازماً . فأما التوم بغير همزة فهو اللؤلؤ وما صيغ على مقداره من ذهب أو فضة قال ذو الرمة :

وحف كأن الندى والشمس ساطمة إذا توقد فى أفنانه توم

*
* *

وفى القصيدة التى يمدح بها الفتح بن خاقان وأولها :

بنا أنت من مجفوّة لم تعتب ومغدورة فى هجرها لم تؤنب

ومنها يخاطب الممدوح :

ولو لم تدافع دونها لتفرقت أيادى سبا عنها سباء بن يشجب

ما علمت أحداً من الشعراء مَدّ سبا وذلك جائز على القياس . وإنما استعمله الفصحاء مهموزاً بغير مدّ كما قال :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيلها العرما

وقال الآخر :

ظلت تطاردها الولدان من سبإٍ كأنهم تحت دفيها الدحاريج

والعرب تصرفه مرة ولا تصرفه أخرى . فمن صرفه جعله اسم رجل أو حىّ ، ومن لم يصرفه ذهب به مذهب القبيلة أو البلدة التى تحلها هذه الطائفة . فأما قول من يقول إن سبأ اسم امرأة فإنما احتج بذلك لترك الصرف ولا يحتاج إلى هذه العلة . وإنما هو اسم جرى مجرى القبائل تارة يصرف وتارة يمنع من الصرف . والمقصود به فى الأصل سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأصحاب السير يقولون إن اسمه عامر ، وإنه سمى سبأ لأنه أول من سبا السبى . ولو كان الأمر على ما يقولون لوجب أن لا يهمز . ولا يمتنع أن يدعى أن أصل السبى الهمز إلا أنهم فرقوا بين سبيت المرأة وسبأت الخمر والأصل واحد .

وسبا هو الذى يقال له الأعقف . سمى بذلك فيما قيل للين مفاصله . و يزعمون أنه عبر الحرم فرأى فيه قوماً يعانون شظفاً من العيش، فقال لهم هلا ترحلون فى البلاد فتحلون مكاناً يتسع فيه العيش . فأعلموه أنهم يرغبون فى تلك المحلة لأنها مكان شريف ، ولأن الله يبعث إلى أهلها الرزق . فلحقه من قولهم إخبات وتأله . فاحتجب ثلاثة أيام يفكر. ثم ظهر فقال لجلسائه وخاصته : « إنى قد نظرت فى الفلك هذا فلم أر فيه أعظم نوراً من الشمس فرأيت أن أعبدها تقرباً إلى خالقها » . وأنه سمى عبد شمس لذلك .

فإذا أخذ بهذا الحديث وجب أن يكون اسمه فى الأصل ليس عبد شمس .

وقالت العرب افترقوا أيدى سبا فلم يهمزوا لأنهم جعلوه مع ما قبله بمنزلة الشىء الواحد . وأكثرهم لا ينون سبا فى هذا الموضع ، و بعضهم ينون ، قال ذو الرمة :

فيالك من دار تحمل أهلها   أيادى سباً عنها وطال انتقالها

والمعنى أن نِعَم سبا افترقت فى كل أوب فقيل تفرقوا أيادى سبا أى فى كل وجهة .

*
* *

ومن التى يمدح بها أبا عامر الخضر بن أحمد وأولها :

عند العقيق فماثلات دياره   شجن يزيد الصب فى استعباره

. . . .

وَمِنَ أجل طيفك عاد مظلم ليله   (أهوى) إليه من بياض نهاره (١)

قوله : أهوى إليه كلمة غير مستعملة ويجوز أن يكون أبو عبادة سمعها فى شعر أو يكون قاسها على قولهم هو أحب إليه من غيره . والأصل المعتمد فى ذلك أن قولهم « هذا أفعل من هذا » ينبغى أن يكون مأخوذاً من فعل الفاعل كقولك « هذا السيف أقطع من هذا » لأنك تقول قطع السيف . وكذلك جميع الباب إلا أن يشذ شىء . فإن قلت هذا الرجل أضرب من هذا وأنت تريد أنه ضرب أكثر مما ضرب فهو غير مستعمل لأن أفعل منك، وفعل التعجب إنما يبنى من فعل الفاعل لا من فعل لم يسم فاعله .

---

(١) فى ديوان البحترى « أحلى لديه من مضىء نهاره » وهذا يخالف النسخة التى اعتمد عليها أبو العلاء فى نقده .

فإذا قال هذا أهوى من فلان فمعناه أشد هوى منه ، وهو مأخوذ من هوى الرجل، وأبو عبادة لم يرد إلا أخذه من هُوِى . فأما حمل هذه اللفظة على أحب فإن تلك استعملت فى مواضع لم تستعمل فيها هذه لأنهم قالوا حُبّ إلينا ، ولم يأت فى ذلك هويت وقد جاء في شعره نحو من ذلك .

*
* *

ومن التى يمدح بها محمد بن يوسف وأولها :

فيم ابتداركمُ الملام ولوعا　　أبكيتَ إلا دمنةً وربوعا

. . . .

ومريضة اللحظات يمرض قلبها　　ذكر المطالب عزة وقنوعا

استعمل القنوع فى معنى القناعة وذلك جائز إلا أن المشهور القناعة الرضا والقنوع السؤال .

*
* *

ومن قصيدته التى يمدح بها الحسن بن وهب وأولها :

خذا من بكاء للمنازل أودعا　　وروحا على لومى بهن أو اربَعا

. . . .

أمولعة بالبين ، رب تفرق　　جرحت به قلباً بحبك مولعا

ومن عاثر بالشيب ضاعف وجده　　على وجده أن لم تقولى له لعا

إن صحت الرواية فهو لفظ ردىء لأنه قال رب تفرق ثم قال « ومن عاثر » وإنما هذا من مواضع كم فيصح اللفظ إذا قال « كم من تفرق » وإذا كانت الرواية على ما وجد احتاج أن يضمر كم .وذلك قليل مفقود ، وقد يجوز فيه غير هذا الوجه ولكن الشعر لا يحتملها لأن مذهب القائل معروف . ولو قال « وكم عاثر » لسلم الكلام من التعسف .

ومنها :

هم ثأروا الأخدود ليلة أغرقت　　رماحهم فى لجة البحر تبعا

الذى غرق من ملوك اليمن فى البحر لما أرهقته الحبشة هوذونواس الحميرى ولم يكن

يقال له تبّع ، إلا أن هذا يحتمله الشعر على أن يجعل كل ملك للعرب تبّعاً ، كما جعلوا كل ملك للروم قيصر ، وكل ملك من ملوك الحيرة النعمان .

*
* *

ومن قصيدته فى مدح المتوكل وأولها :

أكنت معنفى يوم الرحيل   وقد لجت دموعى فى الهمول

. . . .

فأولى للمهارى من فلاة   عريض جوزها وسرى طويل

ذكّر السرى والصواب تأنيثها يقال إنها جمع سُرية . قال جرير :

أنخنا فسبّحنا وقد مالت السرى   بأعراف ورد اللون باق شواكله

وتذكير المؤنث إذا كان غير حقيقى التأنيث جائز ، والحقيقى منه ما كان يلد أو يبيض فإن كانت السرى واحداً فهى مثل هدى و إن كانت جمعاً فهى فى باب قول الراجز مثل الفراخ نتفت حواصله

ومن القصيدة التى يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف وأولها :

زعم الغراب منبئ الأنباء   أن الأحبة آذنوا بتناء

. . . .

فلعلنى ألقى الردى فيريحنى   عما قليل من جوى البرحاء

الأكثر فى كلامهم لعلى و بها جاء القرآن وربما جاء لعلنى . وهذا البيت ينشد على وجهين

أرينى جواداً مات هزلاً لعلنى   أرى ما ترين أو بخيلاً مخلداً

ومنهم من ينشد لأننى بمعنى لعلنى .

وقوله : بصواعق العزمات والآراء ، الأصل أن يكون بعد الراء من الأراء همزة فيقال الأرءاء . ويجوز الآراء على القلب كما قالوا الآسار فى الأسآر جمع سؤر أى بقية . والقلب فى الأرءاء أوجب لأن فى الكلمة ثلاث همزات وأنشد أبو عبيدة

إنا لنضرب جعفراً بسيوفنا   ضرب الغريبة تركب الأسآرا[1]

---

(١) الغريبة — الناقة الغريبة .

وقوله :

أشلى على منويل أطراف القنا ... وبجا عتيق عتيقة جرداء

ينكر عليه أنه قال أشلى فى معنى أغرى والمعروف أن الإشلاء فى معنى الدعاء لا معنى الإغراء . وقد حكى أن الكميت استعمل الإشلاء فى الإيساد[1] ويروى هذا البيت فى شعره :

خرجت خروج القدح، قدح ابن مقبل ... على الرغم من تلك النوابح والمشلى

وإنما ينكر ذلك من يرده إلى السماع فأما من يحمله على القياس فهو عنده جائز لأنه يجعل الإشلاء دعاء للمشلى إلى أذاة المشلى عليه .

*
* *

وفى الممدوح نفسه فى القصيدة التى أولها :

يا أخا الأزد ما حفظت الإخاء ... لمحب ، ولا ذكرت الوفاء

. . . .

لم تنم عن دعائهم حين نادوا ... والقنا قد أسال فيهم قِناء

مد القنا فى آخر البيت وهو من القناة الجارية ، وأصله مأخوذ من التشبيه بالقناة الثابتة ومد المقصور سائغ عند كثير من أهل العلم وقد كثر فى أشعار المحدثين فأما الفصحاء المتقدمون فهو فى أشعارهم قليل . وهذا البيت ينشد على مد المقصور :

سيغنينى الذى أغناك عنى ... فلا فقر يدوم ولا غناء

وقد ادّعى على سيبويه أنه أومأ إلى مد المقصور فى ضرورة الشعر

*
* *

ومن التى أولها فى مدح أبى غالب بن أحمد بن المدبر :

متى تسألى عن عهده تجديه ... مليًا بوصل الحبل لم تصليه

يوجد فى كثير من النسخ « مليًا بوصل الحبل لو تصليه » بحذف النون بعد «لو» وذلك بعيد على رأى أهل البصرة ، وهو فى رأى الفراء أسهل لأنه يجعل لو مؤدية معنى أن ويجعل بينهما تشابهاً فى مواضع كثيرة ، ويستشهد بهذه الآية (وَلَئِنْ

---

(١) آسد الكلب إيساداً وأوسده وأسده — أغراه

أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا) لأن اللام تدخل فى جواب « لو » كثيراً .
وهذه الرواية تحتمل أن تكون النسخة مغيرة ، فكره الناظر فى ديوان أبى عبادة حذف النون بعد « لو » فنقلها إلى « لم »

*
* *

هذا ما أمكن نقله عن عبث الوليد .

وقد اقتطفناه كقياس لتعليقات شيخ المعرة على مواطنه البحترى ومن شاء الاستزادة بتوسع فليرجع إلى الكتاب نفسه .

ديوان الحماسة

بقى لنا ونحن فى خاتمة المطاف أن نطرق الجانب الثقافى فى البحترى وهو جانب قد يلمحه الكاتب فى صفحات الكتاب . غير أننا نقف قليلاً فى وداعه على الرسم الأخير نتزود بنظرة فيما كان عليه الرجل من علم واطلاع .

اختار أستاذه أبو تمام من أشعار العرب مجموعة صالحة أطلق عليها « ديوان الحماسة» ، وهى لشعراء القبائل فى الجاهلية وصدر الإسلام والقليل منها لشعراء الدولة الأموية كالأخطل وجرير والفرزدق وأعشى همدان والنادر لشعراء الدولة العباسية كمطيع بن إياس و بشار ومسلم بن الوليد .

وقد قسمها إلى الأبواب التى كانت متداولة وهى أبواب الحرب والأدب والنسيب والرثاء والأضياف والمديح والملح ومذمة النساء . وكلها اشتملت على أبيات متفرقة منها ما يقع فى قصائد كاملة أو مقتطعة ، جمعت بين حوشى الألفاظ ورقيقها . وتحاشى أبو تمام فيها الأبيات والقصائد المشهورة التى جرى ذكرها على ألسنة الرواة المشهورين .

وكلف الفتح بن خاقان البحترى بوضع مجموعة أخرى تماثل حماسة أبى تمام وتعارضها، فقام بوضع مجموعة واسعة وسماها « الحماسة » أيضاً اقتفاء بخطوات أستاذه . وقد رواها أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن أبى خالد الأحول عن أبيه عن البحترى . ونقلها الأب لويس شيخو اليسوعى عن النسخة الوحيدة المحفوظة فى مكتبة كلية « ليدن » وطبعتها مجلة لمكتب الشرق ببيروت سنة ١٩١٠ .

ومجموعة « حماسة » البحترى ليست قاصرة على شعراء أبى تمام وحدهم بل زاد عليها البحترى وأضاف شعراء آخرين فى العهود الثلاثة التى تقيد بها أبو تمام .

وانفرد البحترى بتقسيم مجموعته إلى مائة وأربعة وسبعين باباً نظر فيها إلى الخلجات النفسية ودوافع الأحاسيس مراعياً فى اختيارها الألفاظ الموسيقية الخفيفة

الوقع على السمع فكانت أقرب إلى التحليل النفسى أو (السيكولوجيا) التى نادى بها العالم النمسوى (فرويد) فى أوائل هذا القرن .

فالباب الأول فيما قيل فى حمل النفس على المكروه ، والباب الثانى فيما قيل فى الفتك ، والثالث فيما قيل فى الإصحار للأعداء . والمكاشفة لهم وترك التستر منهم ، والرابع فيما قيل فى مجاملة الأعداء وترك كشفهم عما فى قلوبهم ، وما إلى ذلك من ركوب الموت خشية العار ، أو فى الاستسلام على الذل بعد الامتناع ، أو فى التحريض على الثأر وترك قبول الدية ، أو فى التشمير عند الحرب ورفض النساء أو فيما قيل فى التبرم بالحياة والملالة من طول العمر ، أو فيما قيل فى تحكيم الدهر الإنسان بالتجارب والعظات ، أو فيما قيل فى الصبر على المصائب والتجلد للشامتين وترك الاستكانة ، أو فيما قيل فى الاعتذار من الجزع إذا عظمت المصيبة وجلت ، أو فيما قيل فى الغدر والخيانة وذمهما ، أو فيما قيل فى الوفاء وحمده ، أو فى إنجاز الوعد وترك المطل ، أو فى كتمان السر ورعايته ، أو فى انتشار السر إذا جاوز الاثنين ، أو فى اجتراء الناس على من ضعف وكف شره واتقائهم من صلب ومنع جانبه ، إلى غير ذلك من الأبواب .

ووضع البحترى فى كل باب ما يناسبه من بيت أو بيتين أو أكثر بقليل ولو أدى ذلك إلى تقسيم القصيدة الواحدة على جملة أبواب .

وإلى القارئ المثل الآتى .

ففى باب الأدب من حماسة أبى تمام قصيدة معن بن أوس [1] وهى :

لعمرُكَ ما أدرى وإنى لأوجلُ	على أينا تغدو المنية أولُ
وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن	إنَ أبزاك خصم أو نبا بك منزل [2]
أحارب من حاربت من ذى عداوة	وأحبس مالى إن غرمت فأعقل
وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد	ليُعقب يوماً منك آخرُ مقبل
كأنك تشفى منك داء مساءتى	وسخطى ، وما فى ريبتى ما تعجل

(١) شاعر مجيد حسن الديباجة فخم المعانى من مخضرمى الجاهلية والإسلام له مدائح فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان له صديق قد تزوج معن بأخته فاتفق أن معناً طلقها فآلى صديقه أن لا يكلمه أبداً فأنشأ معن يستعطف قلبه ويسترقه له بهذه الأبيات .

(٢) أبزى به فلان : قهره وبطش به

وإنى على أشياء منك تريبنى   قديماً لذو صفح على ذاك مجمل
ستقطع بى الدنيا إذا ما قطعتنى   يمينك ، فانظر أى كفٍّ تبدل
وفى الناس إن رثت حبالك واصل   وفى الأرض عن دار القلى متحوَّل
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته   على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حدّ السيف من أن تضيمه   إذا لم يكن عن شفرة السيف مَزحل (١)
وكنتُ إذا ما صاحب رام ظنتى   وبدل سوءاً بالذى كنت أفعل
قلبت له ظهر المجن فلم أرم   على ذاك إلا ريثما أتحول
إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكد   إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فنثرها البحترى على أبواب ثلاثة :

فى باب الاستسلام والإغضاء عن الذل بعد الامتناع ، ذكر البيتين التاسع والعاشر من القصيدة وهما :

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته   على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حدّ السيف من أن تضيمه   إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

وفى باب قطع من اعترض فى وده ، ذكر البيتين الحادى عشر والثانى عشر :

وكنت إذا ما صاحبٌ رام هجرة   وبدل سوءاً بالذى كنتُ أفعل (٢)
قلبت له ظهر المجن فلم أرم   على ذاك إلا ريثما أتحول

وفى باب صحة المودة وحفظ الأخاء ، ذكر الأبيات الخمسة مبتدئاً من البيت الثانى :

وإنى أخوك الدائم العهد لم أحل   إذا حال دهر أو نبا بك منزل
أحارب من حاربت من ذى قرابة   فأحبس مالى إن عزمت فأعقل
وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد   ليعقب يوماً منك آخر مقبل
كأنك تشفى منك داء مخامراً   أذاتى ، وما فى نيتى لك مفصل
ستقطع بى الدنيا إذا ما قطعتنى   يمينك ، فانظر أى كف تبدل

ويلاحظ أن بعض الألفاظ الواردة تغاير الألفاظ المذكورة فى رواية أبى تمام .

---

(١) مزحل مبعد   (٢) فى أبيات أبى تمام (رام ظنتى)

ففى الشطر الأول من البيت الأول « لم أحل » وفى أبيات أبى تمام « لم أخن » . وفى الشطر الثانى « إذا حال دهر » وفى رواية أبى تمام « إن ابزاك خصم » . وفى البيت الثانى « من ذى قرابة » بينما فى بيت أبى تمام « من ذى عداوة » . وفى الشطر الأول من البيت الرابع « داء مخامراً » وفى رواية أبى تمام « داء مساءتى » . وفى الشطر الثانى « أذاتى ، وما فى نيتى لك معضل » ورواية أبى تمام « وسخطى ، وما فى ريبتى ما تعجل » .

والخلاصة أن المقارنة فيما سقناه فى الأبيات السابقة وفى دراسة الديوانين تظهر أن البحترى كان أعمق من أستاذه فى هذا الاختيار وأنه أحسن إلى العربية بهذا المجهود الذى نعتبره نوعاً من التجديد والابتكار .

شخصية البحترى

بين روايات التاريخ المتناقضة و بين الروح التى نستشفها من شعر البحترى ومظاهر الحياة فى ذلك الأوان ، مفارقات يحار المرء فى أيها أقرب للحقيقة وأولى بالصدق . فمثلا ينسبون للبحترى أنه « كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلة » . ومثل هذه الرواية لا يمكن أن يتصورها العقل فى مجلس مثل مجاس المتوكل المحفوف بكل شىء مونق زاهر .

فالذى يروى عن المتوكل أنه كان يتقزز من الدمامة ، وأنه كان يميل إلى الوسامة والمناظر المرحة البهيجة . والمتوكل هو الذى ذكر له الجاحظ لتأديب بعض ولده فاستبشع منظره وكره أن يكون مؤدب أولاده مشنوء الوجه ولو كان الجاحظ . والجاحظ كما نعلم حجة الأدباء و إمام العلماء فى عصره .

وقالوا عن البحترى إنه كان من أبخل الناس ، وكان له أخ وغلام معه فى داره فكان يقتلهما جوعاً . فإذا بلغ منهما الجوع ، أتياه يبكيان فيرمى إليهما بثمن أقواتهما مقتراً و يقول « كلا ، أجاع الله أكبادكما وأطال إجهادكما » . . .

وحدث أبو مسلم محمد بن الأصبهانى الكاتب قال : « دخلت على البحترى يوماً فحبسنى عنده ودعا بطعامٍ له ودعانى إليه فامتنعت من أكله وعنده شيخ شامى لا أعرفه. فدعاه إلى الطعام فتقدم وأكل معه أكلاً عنيفاً فغاظه ذلك والتفت إلى فقال لى : أتعرف هذا الشيخ ؟ فقلت : لا ، قال : هذا الشيخ من بنى الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

و بنى الهجيم قبيلة ملعونة حصّ اللحى متشابهو الألوان

لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان ، أصبح جمعهم بعمان

قال فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك ! !

ولا نعلم فى أية مرحلة من عمر البحترى وقعت كل رواية من هاتين القصتين . فالأولى إن صحت ، فقد تكون لها بواعث داخلية بحتة أدّت إلى وقوف البحترى هذا

الموقف من أخيه وغلامه ، وربما حدثت قبل أن يتسع عليه رزقه فى أول قدومه للعراق ، أو ربما كان أخوه وغلامه يكلفانه فوق ما يستطيع بالجوز عليه والإلحاح فى الطلب ، وهذا فى الرزق المحدود مما تضيق به النفس وتنوء بحمله . والقصة الثانية ليس فيها ما يدل على شح البحترى وتقتيره فقد قام بالضيافة بلا ضجر ودعا راوى القصة نفسه إلى الاشتراك معهما فى الطعام فامتنع .

وفى اعتقادنا أن مثل الرواية الثانية أحق بالتدليل بها فى سبيل الدعابة والمزاح . فقد كانت اجتماعات القوم مفعمة بالنكات والملح بل و بالسخرية والمجون .

وإنما يدحض ما رويناه آنفاً طبيعة البحترى السمحة الكريمة فى القصة التالية :

ذكر أبو الفرج فى أغانيه :

كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمى ، مات أبوه وخلف له مقدار مائة ألف دينار أنفقها على الشعراء والزوار فى سبيل الله فقصده البحترى من العراق ، فلما وصل إلى حلب قيل له إنه قعد فى بيته لديون ركبته . فاغتم البحترى لما أصابه غماً شديداً ، و بعث المدحة إليه مع بعض مواليه . فلما وصلت الرجل ووقف عليها ، بكى ودعا بغلام له وقال له بع دارى فقال له الغلام: « أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس » فقال : « لا بد من بيعها » فباعها بثلاثمائة دينار . فأخذ صرة وربط فيها مائة دينار ، وأنفذها إلى البحترى مع رقعة فيها هذه الأبيات :

لو يكون الحباء حسب الذى أنـــت لدينا به محل وأهل
لحثيت اللجين والدرّ واليا قوت حثواً ، وكان ذاك يقل
والأديب الأريب يسمح بالعذ ر ، إذا قصّر الصديق المقل

فلما وصلت الرقعة إلى البحترى رد الدنانير ، وكتب إليه :

بأبى أنت والله للبرّ أهل والمساعى بعد وسعيك قبل
والنوال القليل يكثر إن شا ء مرجيك ، والكثير يقل
غير أنى رددت برك إذ كا ن رباً منك ، والربا لا يحل
وإذا ما جزيت شعراً بشعر قضى الحق ، والدنانير فضل

فلما عادت الدنانير إليه ، حل الصرّة وضم إليها خمسين ديناراً أخرى وحلف عليه أن لا يردها . فلما وصلت البحترى أنشأ يقول :

شكرتك إن الشكر للعبد نعمة ومن يشكر المعروف فالله زائده

لكل زمان واحد يقتدى به وهذا زمان أنت لا شك واحده

هذه الرواية تجلو نفس الشاعر فى صدق عاطفته وجانب الخير منها . لا صنعة ولا تكلف ولا إرغام .

وقصته التى رواها إبرهيم بن المدبر حينما اجتمع عنده مع أبى العيناء والفضل اليزيدى وهجائه للأخير على معنى قاله أبو العيناء ، وطلب أبى العيناء نصف المكافأة التى منحها ابن المدبر للبحترى و إقراره للحقيقة فيها ، هذه القصة شاهد على ما فى نفسه من القناعة غير طماع ولا ضنين .

فهل بعد هذا يمكن الأخذ برواية بخله وتقتيره ؟

على أن البخيل تظهر أمواله وتتكشف ذخائره التى جمعها من شحه طول حياته ، ولم يظهر على البحترى حتى أواخر أيامه إلا ضيعته الموروثة التى عمل بالشعر على أن تعود فيرمها و يقيم على محصولها كما قال للوزير أبى صالح بن يزداد :

وقد غدت ضيعتى منوّطة بحيث نيطت للناظر الزهره

أروم بالشعر أن تعود فما أقطع فيما أرومه شعره

حكم من الله أرتضيه ولا ترتاب نفسى فى أنها خيره

إن ردها السعى والدؤوب فقد وفيت فى السعى أشهراً عشره

و إن قضى الله أن تبين فقد كانت فبانت من أهلها البصره

ويقول عنها للمعتز طالباً الإذن بالسفر إلى بلده ليرم « خلة ضيعة تصف اسمها » . وللمعتمد :

سألت عن مالى ، ولا مال لى غير بقايا تركت للحقوق

فالبخل والتقتير لم يكونا من سليقة البحترى . و إنما قلبت الرواية على غير المقصود منها من قبيل الفكاهة والعبث كما كان شأن الأدباء فى ذلك العصر .

فمن أساليب العبث ما نسوقه فى هذا المقام ما رواه أحدهم عن نفسه وهو أحمد

بن أبي طاهر وكان مؤدب كتّاب ويقول عنه البحترى إنه كان كثير اللحن والسرقة في شعره جميل الأخلاق ظريف المعاشرة !!.

قال :

« خرجت من منزل أبي الصقر (أحد وزراء المعتمد) نصف النهار في تموز ، فقلت ليس بقربي منزل أقرب من منزل المبرد ، إذ كنت لا أقدر أصل إلى منزلى بباب الشام . فجئته ، فأدخلنى إلى حُوَيشة له ، وجاء بمائدة فأكلت معه لونين طيبين وسقانى ماء بارداً وقال لى أحدثك إلى أن تنام ، فجعل يحدثنى أحسن حديث ، فحضرنى لشؤمى وقلة شكرى بيتان فقلت قد حضرنى بيتان أنشدهما فقال ذاك إليك ، وهو يظن أنى قد مدحته ، فأنشدته :

ويوم كحر الشوق فى صدر عاشق على أنه منه أحر وأومد
ظللت به عند المبرد قائلاً[1] فما زلت فى ألفاظه أتبرد !!

فقال لى : قد كان يسعك إذا لم تحمد ألا تذم ، ومالك عندى جزاء إلا أن أخرجك . والله لا جلست عندى بعد هذا ، فأخرجنى . فمضيت إلى منزلى بباب الشام ، فمرضت من الحر الذى نالنى مدة . وعدت باللوم على نفسى .

هذا مثل من أمثال الدعابة التى لا طائل وراءها .

وإلى القارئ قصة أخرى تظهر لنا نفس البحترى التى لا يسفّ بها الحرص ولا يدنيها الجشع . فقد حدث أبو الفضل عباس بن أحمد بن ثوابة قال : قدم البحترى (النّيل) على أحمد بن الإسكافى مادحاً له فلم يثبه ثواباً يرضاه بعد أن طالت مدته فهجاه بقصيدته التى يقول فيها :

ما كسبنا من احمد بن علىّ ومن النّيل غير حمّى النيـل

وهجاه بقصيدة أخرى أولها * قصة النيل فاسمعوها عجابه * وجمع إلى هجائه إياه هجاء أبى ثوابة . وبلغ ذلك أبى فبعث إليه بألف درهم وثياب ودابة بسرجها ولجامها فردها إليه وقال : قد أسلفتكم إساءة لا يجوز معها قبول رفدكم . فكتب إليه أبى ،

---

(١) ممضياً وقت القيلولة

أما الإساءة فمغفورة ، وأما المعذرة فمشكورة والحسنات يذهبن السيئات ، وما يأسو جراحك مثل يدك ، وقد رددت إليك ما رددته علىّ وأضعفته ، فإن تلافيت ما فرط منك أثبنا وشكرنا ، وإن لم تفعل احتملنا وصبرنا . فقبل ما بعث به . وكتب إليه : كلامك والله أحسن من شعرى ، وقد أسلفتنى ما أخجلتنى وحملتنى ما أثقلنى وسيأتيك ثنائى . ثم غدا إليه بقصيدة أولها :

ضلال لها ماذا أرادت من الصدّ

وقال فيه بعد ذلك :

برق أضاء العقيق من ضرمه .

وقال فيه أيضاً :

إن دعاه داعى الهوى فأجابه .

ولم يزل أبى يصله بعد ذلك ويتابع بره حتى افترقا .

وقالوا عن البحتري فى معرض الذم إنه كان من أبغض الناس إنشاداً يتشادق ويتزاور فى مشيه مرة جانباً ومرة القهقرى ويهزّ رأسه مرة ومنكبيه أخرى ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول أحسنتُ والله ثم يقبل على المستمعين فيقول مالكم لا تقولون أحسنت، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله حتى ضجر المتوكل منه !!

قالوا هذا بينما يقولون فى موضع آخر : دخل البحترى على الفتح بن خاقان وأنشده قصيدته :

شرخ الشباب أخو الصبا وأليفه

فلما بلغ إلى قوله :

ملك بعالية العراق قبابه يقرى الضيوف بها ونحن ضيوفه

اهتز الفتح وطرب وقال هاتوا أرطالاً حتى نشرب على حسن الوصف فجيء بأرطال وأعاد البحترى الأبيات .

فالذى ينشد القصيدة ثم يستعاد منه إنشادها لا يمكن أن يكون من أبغض الناس إنشاداً يتشادق ويتزاور كما قيل عنه فى الرواية الأولى .

وكان يغضب لكرامته و يفخر بعر بيته و يباهى بمجد قومه وله فى ذلك جملة قصائد.

وفى قصة أبى العنبس الصيمرى أمام المتوكل وقد رويناها فى تاريخ هذا الشاعر يحسن أن نشير إلى ما قاله أحد الرواة المعاصرين للبحترى فى ذاك الوقت ، أنه جاء له وقال « ياأبا خالد أنت عشيرتى وابن عمى وصديقى وقد رأيت ما جرى علىّ — وروى له القصة — أفتأذن لى أن أخرج إلى « منبج » بغير إذن فقد ضاع العلم وهلك الأدب فقلت « لا تفعل من هذا شيئا فإن الملوك تمزح بأعظم مما جرى » . ومضيت معه إلى الفتح بن خاقان فشكا إليه ذلك فطيب خاطره ووصله وخلع عليه . فسكن إلى ذلك .

نعم إن البحترى كان يعتد بشعره و يفخر بأن له منه « نجوة واعتزازاً » ولكن ليس معنى ذلك أن نصدق كل ما رواه الراوون فى هذه المتناقضات التى تخفى حقيقة الشاعر .

فالواضح المعروف أن التاريخ العربى الموروث كان تسطيره على السماع والرواية المنقولة ، فبديهى أن تتناقل الأفواه الأحاديث تبعاً للأهواء والميول. ولا يمكننا ونحن نستعرضها فى كشف صورة هذا الشاعر الكبير أن نقبلها على علاتها كما هى تناقض بعضها البعض .

فالمحاسن والمساوئ لها بيناتها ومدلولاتها وإنا لنأخذها على حقائق المنطق وقرائن الشواهد الملموسة وندع بعد ذلك ما يخالفها .

والخلاصة التى يمكن إيجازها عن شخصية البحترى أنه كان شاعراً من إخمصه إلى قمة رأسه ، ذكياً فطناً استطاع أن يمثل عصور الدول التى عاش بها فى ألوانها المتعددة ضاحك السن أنيقاً لا يفتر مؤنساً لكل مجمع ، كريماً فى غير إسراف ، حريصاً فى غير طمع . تقلب فى الترف والنعيم وذاق مرارة البؤس الأليم وخرج من هذه الدنيا وقد أدى رسالته فى الشعر العربى على أحسن ما يؤديه شاعر ذاك الزمان الآفل .

*
* *

وعاش البحترى طول حياته قوىّ الجسم ممتلئاً بالعافية فلم نقرأ فيما روى عنه ولا فى شعره شكوى يشتم منها حلول المرض واعتساف الداء إلا عند ما عراه الكبر

والشيب ، وفى هذه السنّ يهن كل جسم وتتفكك بنية الأعضاء . فهو لم يشك شيئاً يخالف الطبيعة الآدمية .

قال صالح بن الأصبغ التنوخى المنبجى : وأول ما رأيت البحترى سنة ستةوسبعين ومائتين ونحن فى مجلس المبرّد فى مسجده ، وكان يجلس على دكان فى المسجد قليل الارتفاع وباب المسجد عن يساره ، فإذا سلم عليه من يعظمه التفت بجميعه إليه . فسلم عليه شيخ على برذون مشرف أسمر طويل اللحية . فالتفت إليه وعظمه وقطع الإملاء ، وقام جماعة من أهل المجلس إليه وقمت معهم . فسألوه أن يقرؤوا عليه أبياتاً من شعره فأجابهم . وقرأ عليه واحد منهم قصيدته فى الفتح (منى وصل ومنك هجر) إلى آخرها . ثم مضى . فرآنى المبرد كالمتأسف عليه فقال لى : إنه يمضى إلى عبد الله بن الحسين القطربلى وستراه ثمّ . وعبد الله جار المبرد وكنت أمضى إليه فى كل وقت لاجتماع الشطرنجيين عنده . فلما انقضى المجلس دخلت إلى عبد الله مع ابنه هاشم وكان لا يفارق مجلس أبى العباس فوجدت البحترى قد انصرف . فساءنى ذلك فقال لى عبد الله وكان من علية أهل الأدب والرواية « أنا أحضره يوماً آخر لك . فاجتمعنا بعد ذلك عنده أياماً حضر فى بعضها أبو العباس المبرد . وكان أبو هاشم يقرأ على البحترى شعره بحضرة أبيه . »

هذه أيام البحترى الأخيرة ظلّ عليها إلى أن مات بالسكتة ، وقد أربت سنه على الثمانين .

وقيل نقلاً عن على بن سليمان الأخفش النحوى قال : سألنى الوزير القاسم بن عبيد الله عن خبر البحترى ، وقد كان أسكت ومات من تلك العلّة ، فأخبرته بوفاته وأنه مات فى تلك السكتة فقال الوزير : « ويحه ، رمى فى أحسنه ! ! »

فهرس

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	الأخير	ولا تبرح	ولا برح
١٠	٤	والسحر	والسمر
٢٨	١١	أبو أحمد	أبا أحمد
٢٢	١١	جنس	جنسى
٣٩	١	المبصرى	البصرى
٤٩	٣	المباس	العباس
٦٨	١٦	فقتلها	فقتلهما
٧٠	٨	تُحل	تَحُل
٧٤	٥	العلويين	العلويون
٧٥	٨	إلى المدينة من سامرا	من المدينة إلى سامرا

١٩٤٧/٢١٦٨

